جوستين غاردِر



سِرُ الصبرْ

ترجمة:
خلدون النبواني

مراجعة وتقديم:
د. يوسف سلامة

رواية

سِرّ الصّبر

LE MYSTÈRE
DE LA PATIENCE

عنوان الكتاب : سر الصبر LE MYSTÈRE DE LA PATIENCE
اسم المؤلف : غوستن غاردر Jostein Gaarder
TRADUIT PAR HÉLÈN HERVIEU
ILUSTRATIONS DE SOPHIE DUTERTRE
EDITION DU SEUIL1996.
ترجمة : خلدون النبواني
مراجعة : د. يوسف سلامة
الناشر : دار الفرقد
الطبعة الأولى : 2008

التنفيذ والإشراف: دار الفرقد
الإخراج الفني : رغداء حلوم
تصميم الغلاف : اسماعيل سويلم

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هاتف : 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص . ب : 34312 فاكس : 6660915 (00963-11)
البريد الإلكتروني : info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

غوستَن غاردِر

سِرُّ الصّبر

ترجمة: خلدون النبواني

مراجعة: د. يوسف سلامة

رواية

ستلتقون في هذه القصة بـ:

هانس- توماس الذي يقرأ الكتاب في الطريق إلى أرض الفلاسفة.

الأب، ابن جندي ألمانيّ. كبُر في ارِندل قبل أن يفر منها بتطوعِهِ كبحار متدرب على ظهر سفينة.

الأم التي أضاعت نفسها في عالم الموضة.

لين، جدة هانس- توماس عن طريق الأب.

الجد الذي أُرسِل إلى جبهة الشرق في عام ١٩٤٤.

القزم الذي يهدي عدسة مُكبرة لهانس- توماس.

امرأة سمينة في نُزُل في دورف.

الفرّان العجوز الذي يقدمُ لهانس- توماس كأساً من الليمونادة بالأجاص وأربعة فطائر من الحلوى في كيسٍ ورقي.

قارئة البخت الغجريّة وابنتها الفاتنة، المرأة الأمريكية المنقسمة على نفسها، وكيل يوناني لعارضات الأزياء، عالِم روسي اختصاصي بالدماغ، سقراط، الملك أوديب، أفلاطون، نادل ثرثار جداً.

في كتاب الفطيرة ستلتقون أيضاً بـ:

لودفيغ، الذي اجتاز الجبال ووصل إلى دورف في عام ١٩٤٦.

ألبرت الذي كان عليه أن ينشأ وحيداً بعد موت والدته.

هانس الفرّان الذي تغرق سفينته في عام ١٨٤٢ ما بين روتردام و نيويورك ليفتح بعد ذلك فرن في دورف.

فرود (Frode) الذي تغرق سفينته في عام ١٧٩٠ بحمولتها الضخمة من الفضة حيث كان متجهاً من المكسيك إلى اسبانيا.

ستين خطيبة فرود والتي كانت حامل عندما غادر هو إلى المكسيك.

فريتز اندري الفلاح وهنريخ البويخت التاجر.

٥٢ *ورقة لعب* بما فيها آس الكُبة وشب الديناري وشيخ القلب.

الجوكر الذي يرى بعيداً جداً وجيداً جداً.

المحتوى

مقدمة

لا يصعب على من يُطالع رواية جوستِين غاردِر «سر الصبر» التي نُقدِّم ترجمتها للقارئ العربي أن يتبيَّن بسهولةٍ أننا بإزاء نصٍ يمزج فيه المؤلف مزجاً تركيبياً مُبدعاً وخلّاقاً بين الفلسفة والأدب. فالرواية تنتظم في هذا الجنس الأدبي بصورةٍ شرعية مما يسمح لنا بوصفها عن حق بأنها روايةٌ قد اكتملت لها وتحققت فيها جملة الخصائص الفنيَّة التي لا يكون العمل روائياً بدونها أبداً. غير أن الرواية، من ناحيةٍ أُخرى، يمكن النظر إليها على أنها نصٌّ فلسفيٌّ أصيلٌ قد تحوَّل المؤلف هنا من كونه أديباً، فصار فيلسوفاً. وعلى الرغم من صعوبة الفصل هنا بين الفلسفة والأدب أو بين الفيلسوف والأديب، فإن المؤلف قد نجح، وباقتدار، في أن يترجم عن أعمق الأفكار الفلسفية بأُسلوبٍ أدبيّ رفيعٍ ومتميز، كما أن عناصر المتعة والجمال والتشويق قد ظلّت حاضرةً في هذه الرواية الفلسفية، مما جعل الطابع الأدبي فيها قوياً قوّة الطابع الفلسفي جنباً إلى جنب.

وإذا ما عدنا إلى الجانب الأدبي في هذه الرواية، فسنجد الفن الروائيَّ يحظى بأكبر قدرٍ من عناية الفيلسوف الأدبي. فلغة الرواية لغةٌ حيّةٌ ناجحةٌ بصورةٍ

أساسية عن التخيل الذي يلعب دوراً حاسماً في إنتاج الفن الأدبي من خلال ما يخلقه النظم البديع للنص الأدبي من فُسحةٍ تُمارس فيها مخيلة القارئ لعبها الحر مع ذاتها من ناحية، ومن خلال الحوار الخلاّق الذي تمارسه هذه المخيلة مع النص الإبداعي ذاته.

وقد اضطلعتْ لغة الرواية بهذا الأداء المتميز من خلال لغةٍ دراميةٍ مُتدفقةٍ نجحتْ، في أغلب الأحيان، في إنتاج بُنيةٍ فنيَّة تماسكت فيها لغةٌ بسيطة، وأحياناً شبه عاميّة، مع لغةٍ رفيعة المستوى، ولكن دون إسراف، فنجم عن ذلك كله أن امتلكتْ اللغة مقدرةً على التعبير عن الأحداث تعبيراً إبداعياً يُمكن مخيلة القارئ من التفاعل مع النص وحسب، وإنما أيضاً من إكماله بل والتمرد عليه أحياناً.

وأما شخصيات هذا العمل الروائي، فقد رُسمت على الأغلب رسماً دقيقاً. وما يعنيه الرسم الدقيق هنا هو النمو الداخليُّ المستخرج من صميم الحياة ذاتها لشخصيات هذا العمل. وقد يخطر على بال بعضنا التساؤل عما إذا كان من الممكن للطفل في هذه الرواية «هانس- توماس» أن يُقدِّم أفكاراً فلسفيةً؟ والجواب على ذلك هو أن شخصية هذا الطفل قد ظلت عبر العمل كله شخصيةً متماسكةً ومُقنعةً لأننا غالباً ما وجدنا أنفسنا أمام طفلٍ مشاكسٍ قليلاً ومتمردٍ كثيراً متسائل بصورةٍ دائمة. وهذا يعني أن هانس- توماس لم يُقدِّم الأجوبة الفلسفية وإنما اقتصرت مهمته أصلاً على طرح الأسئلة. وهذا ما جعل الأجوبة التي تصدر عن الفيلسوف الأب مُقنعةً لا من حيث هي إجابات، وإنما من حيث هي عناصر قد وردتْ في سياقها الصحيح. ولعل هذا على الضبط ما جعل شخصية الفيلسوف هنا تبدو وقد رُسِمَتْ بطريقةٍ مُقنعةٍ جداً. ومما يزيد

في إقناعنا بواقعية هذه الشخصية ذلك القدر الهائل من الإنسانية، بل والفطرية، التي خلعها المؤلف على شخصية هذا الفيلسوف، فهو يُدخن ويشرب الكحول ويغضب ويُسرف في بعض الأمور. كما أنه واقع في حب امرأةٍ هي زوجته التي غادرت المنزل منذ وقتٍ طويل. ورحلة الفيلسوف وابنه في هذه الرواية قد تكون في إحدى جوانبها رحلةً لتأكيد قيمة الحب الذي يحياه الفيلسوف ويحتاج إليه الطفل الفيلسوف حاجةً ماسّةً أيضاً.

صفوة القول هنا هي أن شخصيات هذه الرواية شخصياتٌ مُقنِعة، وغالباً ما تطابقتْ هذه الشخصيات مع الوظائف المتنوعة والمعقدة التي شاء الأديب أن ينيطها بتلك الشخصيات.

أما إذا نظرنا في الحبكة الروائية، فسنجد أنفسنا بإزاء حبكةٍ شديدة التعقيد، الأمر الذي يستدعي من القارئ بذل جهدٍ كبير لاستجماع عناصرها الموزّعة والمشتتة عبر أزمنةٍ وأمكنةٍ متعددةٍ جداً. ومما يزيد في صعوبة استكشاف هذه الحبكة كون الأديب الفيلسوف يتنقل بين مجموعة شديدة التنوع من الأمكنة والأزمنة. فهناك أزمنة واقعية تعدّها الحركة، وهناك أزمنة سحريَّة لا تُدرك إلا عبر المخيلة. وهناك الماضي والحاضر والمستقبل، فضلاً عن تقاطع الأزمنة وتداخلها تداخلاً يجمع بين الإيهام والواقعية على نحوٍ لا يخلو من إبداع. ومع ذلك فليس بوسعنا إلا التأكيد بأن للرواية حبكتها الأمر الذي يجعلنا بإزاء نوع من السرد ينزاح انزياحاً نسبياً عن السرديات الأدبية في الرواية التقليدية من غير أن ينفصل عنها انفصالاً تاماً، ولكنه انزياحٌ يلعب دوراً هاماً في جعل التفاعل ممكناً، بل وخلّاقاً، بين الأدب والفلسفة، أو بعبارةٍ

أُخرى، بين ملكتي المخيلة والعقل، وهكذا نجد أنفسنا بإزاء نصٍ سرديٍّ من الناحية الأدبية، وبإزاء مضمونٍ فلسفيٍّ عميق من الناحية العقلية. غير أن كل عزلٍ أو فصلٍ هنا بين الأدبيّ والفلسفيّ، أو بين المخيلة والعقل، ليس من شأنه إلا تحطيم التركيب المبدع والخلّاق الذي نسج لنا هذه الرواية، الأمر الذي لا بد لنا أن نتجنبه تجنباً تاماً عندما نكون منخرطين في قراءة هذه الرواية بل وبعد الفراغ من قراءتها أيضاً.

وعلى الإجمال ربما أمكن لنا أن نعزل خطين سرديين رئيسيين في هذه الرواية أحدهما يتطابق مع السِّر والآخر يتطابق مع الصبر أو بعبارة أخرى رحلة هانس- توماس وأبيه من ناحية وما كان يقرأه الطفل الفيلسوف في كتاب الفطيرة في الطريق إلى أرض الفلاسفة. السِّرُ هو الذي يضطلع المنحى السرديّ المتجه إلى الماضي، بل وحتى لحظة البدء والإنشاء لهذه الرواية، وهو يمتد عبر تسلسل المتوحدين من «هانس- توماس» الطفل الفيلسوف إلى «فرود» الخالق والمنشئ والمصوِّر، مروراً بهانس الفرّان وألبرت ولودفيغ. والمنحى السرديُّ الآخر هو منحى الصبر الذي يتكوَّن من جملة الجهود التي يبذلها «هانس- توماس» وأبوه في رحلتهما ذات الهدف المزدوج إلى أرض الفلاسفة عبر أوربا. فاستعادة الأم أو استعادة الحب هو أول ما يبدو باعتباره لا يتحقق إلا عبر الصبّر. غير أن الهدف الثاني وهو الأشق والأصعب والذي لا سبيل إلى تحقيقه إلا عب الصبر هو اكتشاف الحقيقة. وإذا كانت الحقيقة هنا يُعبَّر عنها في الكشف عن شجرة العائلة، فإن هذا لا يعدو أن يكون سطحاً ينبغي تجاوزه بسرعة، الهدف الحق هنا هو تبيُّنُ علاقة الوجود بالخالق أو المصوِّر أو الفاعل. وتكشف الرواية بالفعل عن هذا السِّر عبر صبر أبطالها.

ولكنها لا تكشف لنا عنه إلا عبر تقنيات القص وفاعلية السَّرد، فيتم بذلك تجنب المباشرة مما يسمح لنا بالقول عن هذه الرواية إنها قد أنتجت تركيباً رائعاً بين مقتضيات الفن ومتطلبات الحقيقة عبر هذا الجدل أو الديالكتيك بين السِّر والصبر، هذا الصبر الذي قرَّبه المؤلف تقريباً شديداً إلى القارئ عندما انطلق في صياغته من لعبة الورق التي يسمح تجميع أوراقها على أنحاء مختلفة بإنتاج صورة مختلفة للعب تماماً مثلما أن أفكارنا ومناهجنا وتصوراتنا هي التي يُفترض أن تكون قائمة من وراء هذا الوجود ذاته.

ولو أننا نظرنا في الجانب الفلسفي من هذه الرواية ، لقلنا أن مؤلفنا يلجأ إلى القص أو السرد باعتباره أداةً للتعبير عن مضمون الأفكار الفلسفية التي يريد إبرازها. وربما لم يكن المؤلف هنا قد أتى بدعاً أو جديداً. فأفلاطون كان هو أول من استخدم الحوار في التعبير عن الأفكار الفلسفية. كما أن العصور الحديثة قد كشفتْ لنا من خلال ما تم إنتاجه من أدبٍ طوباوي عن المقدرة الهائلة للقص والسرد في التعبير عن الخبرات الفلسفية والتجارب الروحية التي يودُّ هذا المفكر أو ذاك عرضها علينا.

وإذا كانت «يوتوبيا» توماس مور هي أول عملٍ روائيٍّ طوباويٍّ في العصور الحديثة، فقد تتالتْ في الظهور بعدها سلسلةٌ طويلةٌ من القصص الطوباوي الذي رام كُتَّابهُ التعبير عن أفكارهم من خلال أُسلوبٍ بدا لهم أيسر منالاً بالنسبة لغالبية قرائهم. ومن هذه الناحية فإن الأديب الفيلسوف صاحب هذه الرواية يلجأ إلى أساليب مماثلة أو مقاربة لكي ينقل لنا تجاربه الفلسفية وخبراته الروحية في هذا الإيهاب القصصي الأدبي الجميل.

وبما أن الأديب مثل الفيلسوف ليس لأي منهما أن يُنتج الأدب أو يُبدع الفلسفة في استقلالٍ عن تاريخ الأدب أو تاريخ الفلسفة، فلا بُدَّ من الإشارة إلى أن مؤلف هذه الرواية قد تأثر وانتفع بالتجارب السردية لسابقيه، وخاصة تلك النصوص السردية المتاخمة لهذه الرواية بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة. فمن منا إذا قرأ هذه الرواية لا يتذكرّ «أليس في بلاد العجائب» فشخصيات سِرّ الصبر وخاصةً على الجزيرة المسحورة، هي أوراق لعبٍ لا يستطيع القارئ إلا أن يستعيد بمناسبتها كثيراً من شخصيات أليس في بلاد العجائب التي كان بعضها من أوراق اللعب أيضاً مثل سيدّة الكُبة وغيرها من شخصيات الكُبة على سبيل المثال لا الحصر. يضاف إلى ذلك أن «أليس» بعد أن سقطتْ في الثقب ودخلت إلى أرض العجائب شربت شراباً سحرياً أشاع في جسدها كله طعوماً لا حصر لها من مذاقات الفاكهة المعروفة وغير المعروفة، وهو ما نقع على نظيرٍ صريح له في رواية سر الصبر.

كما أن شخصيات الأقزام الذين وجدوا على الجزيرة المسحورة في رواية سر الصبر تُذكّرنا وبقوة برحلات غاليفر الذي وجد نفسه وجهاً لوجه مع الأقزام في إحدى رحلاته على إحدى الجزر تماماً كما حدث مع هانس الفرّان الذي غرقت سفينته فوجد نفسه وحيداً على جزيرةٍ لم يلبث أن اكتشف أنها مأهولة بمجموعة من الأقزام.

وربما كانت الترجمات المتعدّدة إلى اللغات الأوربية لقصة حي بن يقظان قد مارست تأثيرها الواضح في عقل أديبنا الفيلسوف في كتابته لهذه الرواية. فتجربة «التوحد» عنصرٌ جوهريٌ في هذه الرواية وتلعب دوراً أساسياً في تطور أحداثها وخلق شخصياتها. ففضلاً عن كون الشخصيات الأساسية لهذه الرواية

محدودة العدد فإن تسلسل القص أو السرد يكاد أن ينتقل من متوحدٍ إلى متوحد من خلال وساطة الكتاب والعدسة. فمن حينٍ إلى حين ينقلنا هانس-توماس من شخصيةٍ متوحدةٍ إلى أخرى من غير أن تلتقي هذه الشخصيات جميعاً في زمانٍ واحد أو مكانٍ واحد.

فالقص ينتقل في كتاب الفطيرة من لودفيغ إلى ألبرت إلى هانس الفرّان وأخيراً إلى فرود. ويشير هذا الأخير هنا إلى الوحدانية المطلقة أو إلى نقطة الإبتداء المفترضة أو إلى الطاقة المبدعة الخلاقة الأولى أو إلى الله بمعنى ما من المعاني. فالتوحد عنصرٌ سارٍ ومهيمن في هذه الرواية الأمر الذي يقنعنا بأن كثيراً من العناصر قد أكدت حقوقها ووجودها في رواية سر الصبر بما في ذلك قصة «حي بن يقظان» للفيلسوف العربي الأندلسي ابن طفيل.

ولعل النقطة الأعمق في الجانب الفلسفيّ في هذه الرواية هو جملة الأسئلة التي يتم طرحها عبر صفحات هذه الرواية بأكملها، فهناك أسئلةٌ تتصل بالوجود وأصله ومصيره، وهناك أسئلة تتصل بواقعية الموجودات أو مكونها مجرد أحلامٍ وخيالات، وهناك أسئلة تتعلق بالشك وبالارتياب فيما إذا كان وجودنا حقيقياً أو لا، وأخيراً ربما كان السؤال الأهم هو: إذا كان كل شيء، كل الوجود، صدر عن عقل معين أو فاض عن ذهنٍ محدَّد، فمن أي مصدرٍ قد فاض هذا الذهن أو ذاك العقل الذي يُفترض أن كل شيء قد فاض عنه أو صدر منه.

بقي أن نبيِّنَ أخيراً أن هذه الرواية تستهدِف إبراز دور الفيلسوف وتحاول الكشف عن أهمية هذا الدور، ولكنها قبل هذا وذاك تحاول أن تمنح الفيلسوف «الجوكر» شرعيةً يستمدُّ منها مسوغات وجوده من ناحية ومسوغات تفكيره

من ناحيةٍ أُخرى. الفيلسوف عقل وطليق لا قيد عليه إلا وجدانه وضميره. ومن هنا فهو متأبٍ على التصنيف، متمردٌ على كل من يحاول أن يحشره في فئةٍ أو طبقةٍ أو ضربٍ بل وحتى أمةٍ محددة. فأهمية الفيلسوف نابعةٌ من الكلية التي يمثلها والتي ينتجها في آن معاً.

إن شرعيته لا تعود إلا إلى أفكاره، والعالَم مشروعٌ وعقول بقدر ما يكون ملبياً ومتطابقاً لحاجات الفيلسوف وأفكاره في آنٍ معاً. إذا كان الفيلسوف مغترباً- وهو هكذا فعلاً- فذلك لأنه حرٌ على نحوٍ لا يتمكن أي قيدٍ من قسره باستثناء حريته ذاتها.

فالاغتراب هنا سمةٌ إيجابية لا تُعبِّرُ إلا عن الحرية لا أكثر ولا أقل.

وبما أنه من الممكن لنا أن نُعرِّفَ الفلسفة بأنها الحرية، كما أنه بوسعنا أن نُعرِّفَ الوجود ذاته بوصفه حريّة، فالنتيجة المترتبة على ذلك هي أن الفيلسوف قادرٌ على إنتاج أفكاره بصورةٍ حُرّة وأن ما يتطلع إليه الفيلسوف هو تحقيق التركيب الخلاق والمبدِع بين أفكاره بصورةٍ وبين ما ينظر إليه الناس على أنه «الواقع» الواقع زائفٌ في نظر الفيلسوف ومغتربٌ عن الحقيقة اغتراباً تاماً، ولا يصبح وجوده حقيقياً إلا عندما تتحقق الوحدة بين أفكار الفيلسوف وبين هذا الواقع الذي لا يلبث أن يفقد خصائصه الظاهرة نتيجة لقوّة أفكار الفيلسوف التي تعيد إنتاج الواقع وترتقي به إلى مستوى العقل والحرية.

ذلكم هو سِرُ«سِرُ الصبر» غير أن فضَّ مغاليق هذا السِّر لن يتأتى إلا للصابرين، ومن ثم فهو لن يتأتى إلا للفلاسفة.

أ د. يوسف سلامة

ستُ سنوات انقضت منذ أن وجدتُ نفسي أمام أطلال معبد بوسيدون القديم في رأس سونيون أتأمل بحر إيجة.

عما قريب ستنقضي مئة وخمسون سنة منذ أن وصل هانس الفرَّان إلى تلك الجزيرة الغامضة في البحر الأطلنطي ومئتا سنة بالتمام والكمال مذ غرقت سفينة فرود ما بين المكسيك وإسبانيا.

أنا مجبر أن أعود بعيداً جداً إلى الوراء من أجل أن أفهم لماذا هربت ماما إلى أثينا...

ربما لهذا كنتُ أفضل كثيراً التفكير بشيء آخر ولكنني أعلم أن عليّ أن أحاول تدوين كل شيء قبل أن يختفي ذلك الطفل من داخلي نهائياً.

أخذتُ مكاني أمام نافذة الصالون في هيسوي حيث أستطيع أن أرى الأشجار في الخارج وهي تفقد أوراقها. تتزوبع الأوراق في الهواء وتتموضع على الرصيف لتشكل سجادةً متموجة. طفلة صغيرة تتسلى بالمشي ما بين حبات الكستناء المتساقطة والمرتدة إلى أسوار الحدائق.

كما لو أن كل شيء يتشظى أجزاءً.

عندما أُفكر في لعبة الصبر لفرود يتملكني الإحساس أن الطبيعة نفسها قد تجاوزت حدودها.

البستون ♠

آس البستون

جندي ألمانيّ على دراجة هوائية يظهر فجأةً على الطريق.....

بدأت الرحلة الكبيرة إلى أرض الفلاسفة من ارندل وهي مدينة بحرية قديمة على الشاطئ الجنوبي. اجتزنا المسافة ما بين ارندل و هيرتشالس بشكلٍ *رتمي (Boléro)* وليس لديَّ الشيء الكثير لأرويه عن رحلتنا في الدانمرك وفي ألمانيا. باستثناء حديقةٍ ليجولاند الساحرة التي تقام فيها العروض الترفيهيّة وميناء هامبورغ الأخاذ فإننا لم نرَ شيئاً تقريباً إلا شوارع ومزارع. ولكن ما أن وصلنا إلى مشارف الألب حتى بدأ كل شيء.

كنا قد اتفقنا أنا ووالدي ألا أركب رأسي وأفعل ما أشاء أثناء المراحل الطويلة بينما لا يحق له هو التدخين أثناء القيادة. في المقابل سيكون هناك توقفات-تدخين طويلة. تلك التوقفات هي أفضل ما أتذكره قبل وصولنا إلى سويسرا.

في كل مرة كان والدي يبدأ بإلقاء خطابٍ صغيرٍ حول ما قد مرّ في ذهنه أثناء القيادة بينما أكون أنا مستغرقاً بقراءة *مجلة* ميكي أو ألعب لعبة الصبر♠

♠ لعبة الصبر: هي لعبة ورق يلعبها شخص واحد بمفرده وتقوم على محاولة ترتيب أوراق اللعب المختلطة في محاولة للتأليف بينها لتكوين مجموعة متماسكة ذات معنى. مثلاً تجميع الأوراق التي لها نفس اللون أو الأوراق التي لها نفس الأرقام على سبيل المثال. وهي تشبه ما نسميه عندنا لعبة الباصرة.(المترجم).

على المقاعد الخلفية. وقد كان معظم الحديث ينقضي حول ما يتعلق بماما وإلا فإنه كان يعود إلى موضوعاته المفضلة وهنا كان يستفيض.

الروبوت على سبيل المثال. لقد أمضى أبي سنوات طويلة في البحر وعندما عاد إلى البر بدأ يهتم به واثقاً من أن العلم سينجح في يوم من الأيام في أن يصنع بشراً اصطناعيين.

لم يكن يقصد بذلك تلك الأنواع من الروبوتات المعدنية التي تومض بالأضواء الحمراء والخضراء وتتكلم بصوت الخارج من القبر. أبداً لا. إن والدي كان يعتقد فعلياً أن العلم سينجح يوماً ما في خلق كل أجزاء الموجودات المُفَكِّرة مثلنا. بل ذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً، لقد آمن بعمق أن كل البشر قد صُنِّعوا تصنيعاً. كان يقول أحياناً:

- نحن دمى متحركة حيَّة وهذا كل شيء.

بشكلٍ عام كان يدلي بهذا النوع من التصريحات بعد كأسٍ أو اثنين.

في حديقة ليجولاند نظر مطولاً إلى مُجسمات البشر الصغيرة المصنوعة من البلاستيك. سألته إذا ما كان يفكر في ماما ولكنه اكتفى بأن هز رأسه وأجاب:

- هل تأخذ بالحسبان يا هانس- توماس، إذا ما مُنِحتْ هذه المُجسمات الحياة. هل تتأمل المشهد قليلاً لو أنهم بدؤوا جميعاً بالتنزه بين هذه البيوت المصنوعة من البلاستيك؟ ماذا سيحدث؟ إني أسألك.

- أنت تقول أي كلام. أجبتُ ببساطة لأنني لم أكن أرى الآباء الآخرين يقومون بهذا النوع من التأملات.

كان عندي رغبة شديدة أن أطلب منه بوظة. لاحظت في الحقيقة بأنه يجب الاستفادة من هذياناته لأطلب منه شيئاً ما. وبما أنه كان يشعر بالخطأ لتناول هذه

الموضوعات مع ابنه فإنه سَيُكَفِّرُ عن هذا بعدها بأن يشتري لي شيئاً. كانت تلك هي الضربة القاضية. ولكن قبل أن أوجه منها واحدة كان قد استطرد:

- بعد إنعام النظر، نحن لسنا إلا شخصيات من اللوغو من لحم ودم.

وبما أنه قد أخذ يتفلسف فقد أدركتُ أن البوظة قد كُسِبَتْ.

كان علينا أن نذهب إلى أثينا، ولكنها لم تكن عطلة طويلة كغيرها من العطل. في أثينا- أو على الأقل في مكانٍ ما من اليونان- كان علينا أن نحاول أن نجد ماما. ولكن الأمر لم يكن محسوماً مسبقاً لأننا حتى لو وجدناها فهذا لم يكن يعني أبداً بأنها كانت ستقبل العودة معنا إلى النرويج. يمكن دائماً أن نُجرِّب حظنا، قال والدي، لأننا لا أنا ولا هو كنا نستطيع تحمل فكرة أن نمضي بقية حياتنا بدونها.

تركتنا ماما فجأة عندما كان عمري أربع سنوات. من أجل هذا بالطبع بقيت أناديها *ماما*. أنا ووالدي عرفنا بعضنا بشكلٍ أفضل وفي يومٍ من الأيام لم يعد لديَّ رغبة في أن أناديه *بابا*.

أرادت ماما أن تجوب العالم من أجل أن تعرف منْ هي. كنا متفقين والدي وأنا على مبدأ يقول: بما أنها أُم لولد ذي أربع سنوات فقد كان من الأفضل أن تحل هذا النوع من المشكلات قبل ذلك. ولكن لماذا كان عليها أن *تغادر* بأي ثمن لتعرف منْ هي؟ لماذا لم تستطع أن تفكر في كل هذا هنا، في هذا المكان في ارندل؟ كان يمكن لجولة في كريستيانساند أن تكون مُقنعة لها بشكل ممتاز.

لدي نصيحة أقدمها إلى أي شخص يريد أن يعرف من هو: عليه بشكلٍ أساسي أن لا يتحرك، وإلا فإنه سيخاطر بقوة في أن يخسر نفسه نهائياً.

كان من المستحيل أن أتذكّر كيف كانت تبدو ماما، فقد مضت الكثير من السنوات منذ رحيلها. كل ما عرفته هو أنها كانت أكثر جمالاً من الكثير من النساء. هذا على أية حال ما كان يكرره والدي، وكان يضيف: كلما ازدادت المرأة جمالاً كلما شق عليها أن تعرف من هي.

لم أتوقف عن البحث عن ماما منذ يوم اختفائها. في كل مرة اجتزتُ فيها ساحة السوق في ارندل كنتُ أظن أني سألمحها وكلّما كنتُ أذهب إلى جدتي في أوسلو كنتُ أتفحص كل الوجوه على جادّة كارل- جوهان. ولكنني لم أرها أبداً. حتى جاء يوم عرض عليّ والدي مجلة للموضة اليونانية. كانت هي ماما على الغلاف وفي الصفحات الداخلية. بالحكم على الصور كان من الواضح أنها لمّا تحل مشكلتها بعد. لم تكن فعلياً صوراً لماما. كانت تحاول بشكل جليّ أن تبدو شخصاً آخر. لقد سبب لنا هذا الكثير من الألم أنا ووالدي.

المجلة موضوع الحديث كانت قد دخلت إلى البيت بفضل عمة أبي العائدة من عطلة قضتها في كريت. هناك كانت صورة ماما الموجودة على الغلاف معروضة في كل أكشاك الجرائد وكانت بضع دراخمات كافية للحصول عليها. كان هذا هزلياً بما يكفي عندما نفكر فيه.

لقد أمضينا سنوات في البحث عن ماما هنا بينما كانت هي تستعرض نفسها هناك مبتسمة على مرأى من كل العابرين.

«ولكن ما عسى أن يكون قد دار في خلدها؟» هذا ما سأله أبي وهو يحكُّ رأسه. ومع ذلك فقد أخذ بعبء قص الصور ولصقها في غرفة النوم. أن يكون هناك صورٌ لشخص يشبه ماما خيرٌ من ألا يكون هناك صورٌ إطلاقاً.

وفي يوم من الأيام اتخذ القرار بالذهاب إلى اليونان ليبحث عنها قائلاً:

- لابد من محاولة إعادتها إلى البيت ياهانس- توماس، طوعاً أو إكراهاً وإلا فإنني أخشى وبقوة أنها لن تنغمر أبداً في هذا العالم.

لم أفهم جيداً ما أراد قوله من ذلك. كنتُ غالباً أسمع أنه من الممكن أن ننغمر تحت ثوبٍ كبيرٍ جداً ولكنني لم أكن أعلم بأنه من الممكن أن ننغمر بمغامرة. ومن حينها فقد تعلمت بأن ذلك خطَرٌ وعلينا جميعاً أن نحترس منه.

أسهب والدي في الحديث عن أبيه عندما توقفنا على الطريق العام قريباً جداً من هامبورغ.

إن مفتاح القصة هو أن والدي ابن لجندي ألمانيّ. لم أعد أشعر بالخجل لقول هذا، لأنني أعرف الآن أن هؤلاء الأطفال هم بالعمق مثلهم مثل غيرهم من الأطفال. ولكن من الطبيعي جداً أن أقول هذا، أنا الذي لم أعانِ من العيش بدون أب في مدينة صغيرة في جنوب النرويج.

حدث ذلك بدون شك لأننا وجدنا أنفسنا في ألمانيا فعادت كل تلك القصص حول جده وجدته إلى الذاكرة.

العالم كله يعرف صعوبة توفير طعامٍ خلال الحرب الأخيرة. كانت الجدة تعرف ذلك أيضاً عندما ركبتْ دراجتها الهوائية لتقطف عنباً برّياً من فرولاند. كان عمرها سبعة عشر عاماً بالتمام، والمشكلة هو أن عجلة دراجتها قد انفجرت.

رحلة قطف العنبِ البرّي تلك كانت حاسمة بالنسبة لي. و قد يبدو من المستغرب أن الحدث الأكثر أهمية في حياتي قد وقع قبل مضي أكثر من ثلاثين

سنة على ميلادي. و لو لم تتعطل دراجة جدتي في ذلك الأحد ما كان أبي ليرى النور أبداً ولا أنا كذلك بالمحصلة.

في فرولاند إذن تعطلت دراجة جدتي بسلتها المليئة بالعنب البرّي. وبالتأكيد لم يكن لديها رُقَعٌ للعجلة، لكن حتى لو كان معها واحدة فما كانت لتعرف أن تستخدمها.

في هذه الأثناء يظهر جندي ألمانيّ على دراجة هوائية فجأةً. وعلى الرغم من أنه كان ألمانياً فلم تبدو عليه هيئةُ من يريد أن يقاتل. على العكس من ذلك فقد بدا مؤدباً جداً حيال الصبية التي لم تعد تستطيع العودة إلى بيتها مع أعنابها البرّية، و كان لديه رقع للعجلة.

لو كان الجد دنيئاً فاسقاً كما كان كل الألمان المتمركزين في النرويج في تلك الفترة لما كان قد توقف، أليس كذلك؟ ولكن المسألة ليست هنا. كان على الجدة بالتأكيد أن تتجاهل وترفض المساعدة من القوة المقاتلة العدوّة.

هنا تأخذ المسائل بالتعقد إذ يتملك الجندي الألماني شيئاً فشيئاً شعورٌ بالحنان على الصبية تعيسة الحظ. لقول الحقيقة كان لا بد من أن يكون هناك سبب لتعاسة حظها، ولكن بعد سنواتٍ طويلة لاحقة...

وعند هذا الحد من قصته، كان من عادة والدي أن يشعل سيجارة.

أُعجِبَتِ الجدة بالألمانيّ كذلك وقد كانت تلك بالضبط هي الحماقة التي ما كان يجب أن تُرتكب. لم تشكر الجد وحسب على إصلاحه دراجتها ولكنها قبلت أن تتركه يرافقها حتى ارندل. بذلك تكون قد بدت على أنها فعلاً حمقاء بقدر ما هي متمردة. وقد قبلتْ أن ترى من جديد المُساعِد لودفيغ ميسنير.

هكذا تصبح جدتي خطيبة جندي ألمانيّ. لسوء الحظ نحن لا نختار دائماً الناس الذين نقع في حبهم. كان عليها أن ترفض أن تراه مجدداً قبل أن تهيم به جدّياً، لكنها لم تصغ إلا إلى قلبها وقد كلفها هذا غالياً.

الجد والجدة استمرا باللقاء سراً فالعلاقات العَلَنية مع الأعداء عادت لتكون مُستهجنةً في كل المجتمعات ذات الحس السليم. كانت الطريقة الوحيدة الممكنة لمقاومة الاحتلال الألمانيّ في نظر الناس الصالحين هي تجنب أية صلة معه.

خلال صيف ١٩٤٤ يُعَاد لودفيغ ميسنير إلى ألمانيا ليدافع عن الرايخ الثالث على جبهة الشرق. حتى أنه لم يملك الوقت ليقول إلى اللقاء للجدة وليختفي إلى الأبد من حياتها منذ لحظة صعوده إلى القطار في ارندل. على الرغم من المحاولات التي لا يمكن عدّها لإيجاد أثره بعد نهاية الحرب، إلا أنها لم تعد تسمع أبداً شيئاً عنه فانتهت إلى أن أقنعت نفسها بأنه قُتِلَ على يد الروس.

كان يمكن للجدة أن تنسى تلك الرحلة على الدرّاجة في فرولاند وكل ما تبعها لو لم تجد نفسها حامل. لقد حدث هذا مباشرة قبل رحيل الجد إلى جبهة الشرق ولكنها لم تنتبه إلى ذلك إلا بعد مضي عدة أسابيع.

أمابقية القصة فهي ما يدعوه والدي: البربرية البشرية- في تلك اللحظة- من قصته كان يشعل سيجارةً جديدةً. لقد وُلِدَ أبي مباشرة قبل التحرير في شهر أيار ١٩٤٥. وما إن انتهت الحرب حتى أُوقِفَت الجدة من قِبَلِ نرويجيين كانوا يراقبون في الأربعينات النرويجيات اللواتي عاشرن جنوداً ألمان. لم تكن حالتها فريدة، ولكن الهجوم تركز على أولئك اللواتي كان

لديهن طفل من نازيّ. كانت الجدة تخرج مع الجَد لأنها عاشقة له وليس لأنه نازي. من جهةٍ أخرى فإن الجد لم يكن نازياً.

قبل أن يُفاجَأ عند النهوض من السرير ويُعَاد فوراً إلى ألمانيا كانت لديه النيَّة أن يفر مع الجدة إلى السويد. وما منعه من ذلك هو تلك الإشاعة القائلة بأن الحراس السويديين يطلقون النار على الألمان الفارِّين من الجندية، الذين يحاولون اجتياز الحدود.

تكالب الناس في ارندل على الجدّة وجزّوا شعرها، ضربوها وركلوها بالأرجل. كانت حينها قد وضعت طفلاً صغيراً... و بعد إمعان النظر، كان لودفيغ ميسنير قد تصرف معها بأفضل ما يكون.

بدون أية ظلال لشعرة على الجمجمة، كانت الجدة مجبرة على أن تلتحق بالخال ترايغف والخالة انغريد فالحياة أصبحت خطيرة جداً في ارندل. بما أنها كانت صلعاء كشيخ مسن فقد كان عليها أن ترتدي قلنسوة. لقد كان ذلك في الربيع وكان الجو حاراً، ولكن بما أن والدتها بقيت في ارندل فقد عادت إلى تلك المدينة بعد خمس سنوات من انتهاء الحرب ومعها والدي على ذراعيها.

لا جدتي ولا والدي التمسا عذراً لما حدث في فرولاند. إن نقطة الخلاف الوحيدة قد انصبت على قسوة العقوبة، فالسؤال المثير هو: كم شخصاً من العائلة نفسها عليه أن يُكَفِّرَ عن الخطأ؟ من المؤكد أن الجدة لم تكن بريئة بالكامل في القصة ومن جهةٍ أُخرى هي لم تدَّعِ عكس ذلك أبداً، ولكن كيف يمكن أن نبرر عقاب الطفل أيضاً؟

غالباً ما فكرت بكل ذلك. جاء والدي إلى العالم نتيجة «خطيئة» خطيرة. ولكن ألم ننحدر جميعاً من آدم وحواء؟ أنا أعرف أن مقارنتي متهافتة، في

حالةٍ كان هذا يعني تُفّاحاً وفي الحالة الأُخرى فإنه يعني عنباً برّياً، ولكن في كلتا الحالتين فإن أفعى♠ هي عامل الإغواء.

على أي حال فإن كل الأمهات يعرفن جيداً أنه لا يمكن أن يمضين حياتهن في لوم أنفسهن لأنهن أنجبن طفلاً بعد أن يكون قد وجد. وإلا لماذا أردنه إذن؟ أعتقد أن صبياً لجندي ألماني له الحق أيضاً في أن يحب الحياة، ولكن حول هذه النقطة فإني وأبي مختلفان.

كانت طفولة والدي طفولة ابن لجندي ألمانيّ هذا يعني أن غيره من الأطفال اعتادوا على إهانته أما البالغون فإنهم أخيراً قد تركوا بسلام النسوة اللائي خدمن الألمان «كعاهرات» ليعشن بسلام. من الجنون أن يتعلم الأطفال بسرعة خبث البالغين! كانت طفولة والدي صعبة. وفي السابعة عشرة من عمره انهارت أعصابه فتطوع في البحريّة ليعود بعد سبع سنوات بعد أن كان قد تعرف إلى أمي في كريستيانساند. وهناك استقرا في هيسوي في منزلٍ قديم ،حيث وُلِدتُ أنا في ٢٩ شباط ١٩٧٢. وهكذا فأني مرتبط بما قد حصل في فرولاند، بما يمكن تسميته هنا بـ «الخطيئة الأصلية».

بعد طفولةٍ كتلك وبعد تلك السنوات الطوال التي مرّت في البحر سيعتاد والدي أن يُعَزّي نفسه بتعاطي الكحول بإفراط. كان يدّعي بأنه يشرب لكي ينسى ولكنه كان مخطئاً لأنه وبعد كأس أو كأسين كان ينطلق بالحديث عن جدتي وعن طفولته وقد كان يبكي أحياناً. فلقد كانت المشروبات الكحولية تنعش ذاكرته أكثر.

♠ لعب على الكلمات في اللغة النرويجية حيث تعني *slange* أفعى بقدر ما تعني أيضاً العجلة الداخلية للإطار.

وبوصولنا بالقرب من هامبورغ أنهى والدي قصته بالقول:

– ثم رحلت ماما. لقد كانت أستاذة رقص عندما كُنتَ أنتَ في روضة الأطفال، بعد ذلك أصبحتْ عارضة أزياء، وقد اعتادت أن تذهب إلى أوسلو وأحياناً إلى ستوكهولم. وفي يومٍ من الأيام لم تعد. روتْ في رسالتها الوحيدة أنها وجدتْ عملاً في الخارج وأنها لا تعرف متى ستعود. هذا ما نعنيه عندما نتغيب أسبوعاً أو أسبوعين، ولكن بعد قليل سيمضي على غيابها ثماني سنوات...

حفظتُ هذه القصة عن ظهر قلب.

– هذا مضحك ياهانس– توماس، كان يجب أن يكون هناك شخص *ناقص* دائماً في أسرتي. كان فيها دائماً واحداً مشرداً. لا بد أن تكون هذه لعنة تلقي بظلالها علينا.

كنتُ خائفاً جداً من كلمة لعنة، ولكن وبالتفكير فيها كان عليّ أن اعترف بأنه على حق إلى حدٍ ما.

كان ينقصنا نحن الاثنان أب وجَد وزوجة وأم. لا بد أن والدي قد فكّر بنفس الشيء. عندما كانت الجدة لا تزال فتاة صغيرة كان والدها قد مات مسحوقاً تحت شجرة وكان عليها أن تكبر بدون أب. قد يُفَسِّرُ هذا لماذا وقعت الجدة بالحب وانتظرت طفلاً من جندي ألمانيّ كان عليه أن يموت بعد الحرب بقليل. ربما بسبب هذا تزوج ذلك الطفل الذي كان بدون أب هو أيضاً من امرأة هاجرت بشكلٍ فظ إلى أثينا لتعرف من كانت عليه بالفعل.

زوج البستون

الله في السماء يتسلى كثيراً برؤية الناس لا يؤمنون به.....

عند الحدود السويسرية توقفنا عند محطة وقود غريبة بمضخة بنزين وحيدة. من منزلٍ أخضر خرج رجلٌ ضئيل الجسم يمكن وصفه بالقزم. بَسَطَ والدي خريطة كبيرة وسأله النصيحة عن الطريق الذي يجتاز الألب ليصل بنا إلى البندقية.

أجاب القزم بصوتٍ صغيرٍ حاد عارِضاً خط السير على الخارطة. لم يكن يتحدث إلا الألمانية ولكن والدي قام بالترجمة وقال إن القزم ينصحنا بأن نمضي الليلة في قرية تدعى دورف.

أثناء حديثه أبقى عينيه مثبتةً عليّ كما لو كنتُ أول طفل في العالم. لا بد أنني أعجبته لأننا كنا نحن الاثنين نملك تماماً نفس الطول. كنا نتهيأ للانطلاق من جديد عندما وافانا ملوحاً بعدسة مُكَبِّرة صغيرة في غلاف أخضر.

- خذ هذه، قالها بصوت كما لو أنه كان يمزق (تولى والدي عملية الترجمة). صَقَلْتُها في يوم ما من قطعة زجاج قديمة كنتُ قد وجدتها في بطن أيلٍ جريح. صدِّقني يا ولدي، ربما ستحتاج إليها في دورف. لأن عليك أن تعرف شيئاً: من أول نظرة عرفتُ بأنكَ قد تحتاج إلى عدسة مكبرة صغيرة أثناء رحلتك.

بدأتُ أسأل نفسي ما إذا كانت دورف صغيرة جداً بحيث تستوجب عدسة مكبرة لكي يُعثَرَ عليها. قبلتُ هديته بأن شكرته وصعدتُ إلى السيارة، بمصافحة يده أُصبتُ بالذهول للشعور بأنها أصغر وبشكلٍ خاص أبرد من يدي.

أنزل والدي زجاج نافذته وأشار له بيده فلوَّح له القزم بساعديه الصغيرين.

- أتيتم من ارندل؟ nicht wahr♠ طرح هذا في حين كان والدي يقوم بإقلاع الفيات.
- بالضبط، أجاب والدي وهو يبتعد. سألتُ فيما بعد:
- كيف عرف في الحقيقة أننا أتينا من ارندل؟
- ألستَ أنتَ من قال له ذلك؟ ذُهِلَ والدي ناظراً إليَّ في المرآة العاكسة.
- أبداً!
- بلى. أصرّ هو. وعلى كل حال لستُ أنا.

كنتُ أعرف مع هذا ما قُلت ولا أرى كيف كان من الممكن أن أقوله له بما أنني لا أتكلم ولا حتى كلمة واحدة بالألمانية.

- لماذا كان صغيراً جداً؟ سألتُ بعد ذلك ونحن على الأوتورستراد.
- أتوجه السؤال إليّ حقاً؟ حسنٌ، إن هذا النمط صغيرٌ جداً لأنه إنسان اصطناعي. إن ساحراً يهودياً صنعه منذ عدة قرون.

كان يريدُ أن يضحكَ عليَّ.

منذ عدة قرون إذن. قلتُ.

- أنتَ لا تشك بذلك؟ تابع والدي، إن الناس الاصطناعيين لا يهرمون وهذه هي الميزة الوحيدة التي يمتازون بها علينا، ولكن هذا مهم لأن هذا يعني أنهم لا يموتون أبداً.

♠ عبارة بالألمانية وتعني أليس كذلك؟ علماً بأن كل العبارات الألمانية والإنكليزية في الترجمة الفرنسيّة قد بقيت على حالها أي دون ترجمتها إلى الفرنسيّة (المترجم).

بينما كنا نسير في السيارة أخرجتُ عدستي المكبرة لأرى ما إن كان لدى والدي قمل في الشعر. لا لم يكن لديه شيء منها ولكن بالمقابل ليس إلا زغب شنيع في قذاله!

بعد الحدود السويسرية رأينا لافتة تشير إلى المَخرج الذي يقود إلى دورف سلكنا طريقاً يتسلق حتى قمم الألب. بعض البيوت الخشبية هنا وهناك بين الأشجار ولا شيء آخر.

بدأ الليل يقترب وشعرتُ بالنعاس. كنتُ على وشك أن أنام تماماً عندما توقف والدي.

- استراحة- تدخين. هتفَ.

خرجنا نستنشق هواء الجبال النقي. كانت قد أعتمتْ، وكانت السماء فوق رؤوسنا تشبه بساطاً يُشع بآلاف المصابيح الصغيرة كل واحد منها بألف واط على الأقل.

ذهب والدي إلى جانب الطريق ليريح مثانته ثم عاد نحوي، أشعل سيجارة وقال لي بإصبع متجه نحو السماء:

- نحن لسنا إلا نملاً، يا ولدي، شخصيات عاميّة من اللوغو تحاول أن تزحف من ارندل إلى أثينا في فيات عتيقة. آه! وعلى حبة بازلاء ... في ما وراء هذا، أعني فيما وراء هذه الأرض المجهرية التي نعيش فوقها يا هانس توماس، هناك آلاف المجرات في كل واحدة منها عدة آلاف من النجوم. والله وحده يعرف مقدار ما يوجد من الأجسام السماوية!

نفض رماد سيجارته وتابع القول:

- اعتقد أننا لسنا وحيدين. يا ولدي، إيه أبداً لا. إن الكون يفيض بالحياة والمشكلة الوحيدة هي أننا لن نعرف أبداً ما إن كنا الكائنات الحية الوحيدة أم لا. المجرّات هي مثل جزر مهجورة دون أن يكون هناك سفينة تربط بينها...

الكثير من الأشياء يمكن أن تُأخذ على والدي، لكنني لم أكن أشعر أبداً بالملل عندما كنتُ أتناقش معه. ما كان يجب أبداً أن يبقى مُشَحَّماً على ظهر سفينة. لو كان الأمر متوقفاً عليّ لفَرَضتُ على الدولة أن تدفع له معاشاً ثابتاً بصفته فيلسوفاً، كما قد أكّدَ يوماً بنفسه: «نحن لدينا وزارات لكل شيء ما عدا للفلسفة!» مما يعني أن دولاً كبرى تعتبر نفسها قادرة على أن تستغني عنها.

مع وراثةٍ بهذا الوزن، كنتُ أبذل أفضل ما عندي لأشارك بالنقاشات الفلسفية التي كان يطرحها عليّ حالما كان يتوقف عن الحديث عن ماما.

- حتى ولو كان الكون كبيراً، قُلتُ مجازفاً، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن هذه الأرض هي حبة بازلاء صغيرة.

هزَّ كتفيه، رمى بعقب سيجارته وأشعل سيجارة جديدة. في العمق لم يكن يعني له كثيراً ما يقوله الآخرون حول الحياة والنجوم. كان له رأيه الخاص في ذلك، واكتفى أيضاً بالقول:

- من أين خرجنا نحن، ها؟ أقصد أناساً مثلنا يا هانس- توماس...هل طرحتَ أبداً على نفسك السؤال؟

بالطبع بلى، ولكنني كنت أعلم أن جوابي ما كان ليهمه. تركته إذن ليتابع. إنه والدي الذي عرفته منذ زمن.

- هل تعلم ماذا قالت جدتك يوماً؟ لقد كانت قد قرأت في الكتاب المقدس أن الله في السماء يتسلى كثيراً برؤية الناس لا يؤمنون به.

- ولماذا هذا؟ سألتُ. فطرح الأسئلة أسهل دائماً من الإجابة عنها.

فبدأ بالقول:

- اسمعْ. إذا كان الله قد خلقنا فإننا إذن بشكلٍ ما موجوداتٌ مصطنعة بنظره. نحن نُجري أحاديث، ونتخاصم، نحن لم نكن أبداً متفقين، نحن نرحل ونموت. هل تفهم؟ نحن نؤمن بأنفسنا بشكل قوي لأننا نعرف كيف نصنع القنبلة الذرية والمركبات الفضائية من أجل الصعود إلى القمر، ولكن أحداً لا يتساءل من أين جاء. نحن راضون أن نكون على الأرض وأن نجيب بحاضر عند النداء.

- وهذا يُضحك الله كثيراً؟

- أيه بالطبع. لو كنا نحن قادرين أن نخلق موجوداً اصطناعياً يا هانس توماس، وأن هذا الفرد أخذ بإجراء أحاديث عظيمة حول البورصة أو حول رهانات سباق الخيول بدون أن يطرح على نفسه السؤال الوحيد والفريد الجدير بأن يُطرح وهو ذلك المتعلق بمعرفة أصله. آه، فإن ذلك سيكون هو المهزلة الأكبر، أليس كذلك؟

انطلق بقهقهة عالية ثم استأنف:

- ربما كان علينا أن نقرأ الكتاب المقدس أكثر قليلاً. بعد أن خلق آدم وحواء، بقي الله في جنة عدن يتجسّس عليهما وهذا بالفعل المعنى الدقيق للعبارة: خبيء نفسه خلف الأدغال وراقب أدق أفعالهما وإيماءاتهما. هل تفهم؟ كان مشغول البال تماماً بما خلق. أنا لا أحاول أن أفتري عليه صدّقني أستطيع أن أتفهمه.

سحق عقب سيجارته مشيراً بذلك إلى نهاية استراحة– التدخين. مع هذا فقد كنت محظوظاً بوجود ثلاثين أو أربعين استراحة– تدخين كهذه قبل اليونان.

وفي احد المرات في السيارة أخرجتُ العدسة التي أعطاني إياها القزم الغامض وقرَّرتُ أن أُعاين الطبيعة عن قرب أكثر فلو تمددتُ في حقل لأتفحص نملة أو زهرة لربما استطعتُ سرقة بعض أسرار الطبيعة وسيكون ذلك هديةً جميلةً لوالدي في عيد الميلاد فأبعث في نفسه شيئاً من السلام...

استمررنا صاعدين في الألب ووصلنا في النهاية إلى قرية دورف. ثم سأل والدي في لحظةٍ ما:

- هل أنتَ نائم يا هانس- توماس؟

كنتُ بالتأكيد أُشارف على النوم في اللحظة التي طرح عليّ هذا السؤال، ولكي لا أكذب أجبتُ بلا الأمر الذي جعلني أكثر صحواً.

- هل تعرف، أسأل نفسي ما إذا كان القزم قد كذب علينا.

- هل تعتقد أن العدسة لم تكن في بطن أيل؟ غمغمتُ.

- ياه، أنت مُتعَب بشكل مضحك يا هانس- توماس. ولكن لا. فأنا أتحدث عن الطريق! لماذا جرّنا ذلك الشيطان إلى هذا البلد البائس؟ فقد كان الأوتستراد يمر بالألب في حين أننا سنقطعُ بعد قليل أربعين كيلو متر ولم أرَ فندقاً واحداً ولا حتى منزلاً!

- كنتُ منهكاً جداً حتى انه لم تكن عندي القدرة لأُجيب. قلتُ لنفسي فقط بأنني جدير أن أُسَجّلَ في كتاب الأرقام القياسية بوصفي أكثر من يُحب أباه. فعلياً ما كان عليه أن يكون مُشحَّماً. كان يجب أن يحصل على ترخيص لإجراء خطابات عن أسرار الحياة والملائكة في السماء. لقد كرَّر والدي على مسامعي بشكلٍ كافٍ أن الملائكة هم أذكى بكثير من بني البشر. هم ليسوا بالتأكيد بذكاء الإله ولكنهم يفهمون على الأقل كل ما نستطيع إدراكه نحن البشر من غير أن يفكّروا فيه.

– ولكن لماذا جعلنا نمر من دورف؟ استطرد والدي، أراهنك بأنه جذبنا إلى قرية أقزام.

كانت تلك هي آخر كلمات سمعتها قبل أن أنام. حلمتُ بقرية مليئة بأقزام شديدي اللطف يتكلمون جميعهم في الوقت نفسه عن كل شيء بكلام لا معنى له. في حين أن أحداً ما كان ليعرف على وجه الضبط أين يوجدون ولا من أين جاؤوا.

اعتقد أيضاً أنني أتذكر أن والدي حملني خارج السيارة ووضعني في السرير. الهواء نشر رائحة العسل وصوت امرأة يقول: *Ja, ja. Aber natürlich, mein herr!* (نعم،نعم. ولكن هذا طبيعي يا سيدي).

ثلاثة البستون

أية فكرةٍ غريبةٍ أن تُثَبِّتَ أحجارٌ صغيرة في أقصى عمق الغابة.....

عندما استيقظتُ صباح اليوم التالي فهمتُ أننا كنا قد وصلنا إلى دورف. كان أبي لا يزال ينام بجانبي وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل، لكنه لم يكن قد حظي بقسطه من النوم فقد كان ذلك واضحاً. فمهما تكن الساعة التي يأوي فيها إلى الفِراش يشرب دائماً كأساً صغيراً قبل إخماد الحرائق. « كأس صغير» كان هذا تعبيره هو بينما قد يعني ذلك في الحقيقة كؤوساً كبيرة، كبيرة جداً، ونادراً ما كان كأساً واحداً.

كانت النافذة تُطل على بحيرة كبيرة. لبستُ مباشرةً ونزلتُ إلى الطابق الأرضي حيثُ صادفتُ امرأةً ضخمةً ولطيفةً جداً أبتْ إلا أن تُجري حِواراً معي مع أنها لم تكن تعرف كلمة واحدة بالنرويجية.

- هانس- توماس... كانت تُكرِّر مرَّاتٍ عديدة، مما دلَّ أنه توجب على أبي أن يُقَدِّمَني عندما حملني نائماً إلى الغرفة.

ذرعتُ المرج أمام البحيرة وجرَّبتُ أرجوحة بارتفاع جنوني: كانت طويلة جداً فما أن بلغتُ حدود السقف حتى استطعتُ رؤية القرية كلها والمشهد المحيط.

بدأتُ أجد الوقت طويلاً. من المؤكد أن والدي انزعج لوصوله مع ضوء النهار إلى دورف والتي كان يمكن القول إنها قرية دُمى. عند أقدام القمم المغطاة بالثلوج كانت تقوم بعض المَحَال الصغيرة في أزقة ضيقة. مباشرةً وعلى خطٍ مستقيم بدتْ القرية من أعلى أرجوحتي وكأنها بلد مُجسماتٍ بشريةٍ صغيرةٍ من البلاستيك. لم يكن البنسيون يزيد عن كونه بناية بيضاء صغيرة جداً من ثلاثة طوابق بأجنحة ورديَّة ونوافذ صغيرة من الزجاج المُلوَن.

كان لدي وقتٌ طويل لأن أرى كل شيء عندما ناداني والدي في النهاية لتناول الفطور.

كانت صالة الطعام جديرة أن تدخل كتاب الأرقام القياسية هي أيضاً: بالكاد كان فيها مكان لوضع أربع طاولات وبالتأكيد كنتُ أنا ووالدي الزبونين الوحيدين. كان يوجد أيضاً مطعم كبير بجانب صالة الطعام ولكنه كان مغلقاً.

كان والدي يُحِسُّ بالذنب لأنه نام وقتاً أطول مما نمتُ فكانت فرصة مواتية لأطلب منه ليمونادة بدلاً من الحليب. استسلم. ولكنه استفاد أيضاً بدوره من الفرصة بطلب كأس جعة كبير. قد يبدو ذلك غريباً ولكن ما قُدِم له كان يشبه بالأحرى نبيذاً أحمر فأدركتُ بأننا قد لا نغادر قبل صباح اليوم التالي.

شرح لي والدي أننا نُقيم في (*Gasthaus*،) أي « منزل للضيوف» ولكن بخلاف النوافذ فإنني لم أتبين ما يميزه عن البنسيون. كان يُسمى

والبحيرة ڤالدمارسي *Schöner Waldemar*. ومن المحتمل أنه كان يجب أن يعني كذلك ڤالدمار.

- كان مناسباً جداً لنا. قال والدي بعد أن شرب جرعته الأولى في اليوم.

كان يريد أن يتحدث عن القزم بالتأكيد. ربما كان هو «ڤالدمار»؟

هل انحرفنا عن الطريق المباشر؟ سألتُ.

- تقول انحرفنا عن الطريق المباشر؟ نحن بعيدان من هنا عن البندقية بمقدار بُعدنا عن محطة الوقود، والكيلومترات متساوية في الحالتين. بمصطلح آخر كان هذا الطريق كله بلا معنى.

- رعدُ بريستْ♠. صرختُ.

منذ أن عشت وحيداً مع أبي انتهيتُ إلى تبني بعض تعابيره البحريّة.

- لم يبقَ عندي سوى خمسة عشر يوماً من العطلة، تابع، ويجب أن لا نتخيل بأننا سنعثر هكذا على ماما بمجرد أن ننزل في أثينا.

- لماذا لا نغادر اليوم إذن؟ سألته لأنه لم يكن الوحيد الذي لديه رغبة في إيجاد ماما...

- كيف تعرف أننا لن نغادر اليوم؟

ما جدوى الإجابة؟ اكتفيت بالإشارة إلى كأسه.

انطلق بقهقهة عظيمة حتى أن ضحكته كانت مُعدية جداً إذ أن المرأة السمينة أخذت تضحك دون أن تعرف تماماً عما كنا نتحدث.

♠ Brest: مدينة ساحلية تمتد على مساحة ١٥٠ كيلو متر مربع على شاطئ البحر الأطلنطي. حيث تكثر هناك الجزر والصخور البحرية تمتاز بمُناخ صعب كثير الأنواء وتجري فيها تيارات بحرية عنيفة. ويبدو أن المقصود منها هنا: تباً أو اللعنة (المترجم)

- لقد وصلنا حوالي الساعة الواحدة صباحاً. شَرَحَ لي. وحتى نقوم بالتعويض نحتاج إلى نهارٍ كامل.

هززتُ كتفيَّ. ولكن بما أنني كنتُ أتذمر بدون توقف لأننا نقطع مسافات طويلة فإنني لم أكن في وضع يسمح لي بنقده. سمحتُ لنفسي أن أبُثَ بعض الشكوك بالنسبة لِ «تعويضه» والذي كنتُ متأكداً أنه كان يضُم بشكلٍ أساسي إفراغ بعض الكؤوس.

خرج والدي ليحضر حاجياتنا من صندوق السيارة: مساء البارحة كان متعباً حتى أنه لم يكن قادراً على أخذ فرشاة أسنانه.

عندما وضع مُصَمِمُ السيارة بعض الترتيبات فيها ربما قد توقع أننا سنقوم برحلةٍ حقيقية. أشارت لنا مُضيفتُنا إلى جبلٍ ذي إطلالةٍ رائعة ولكنه كان أبعدا قليلاً من أن نذهب إليه ونعود على الأقدام ولاسيما وأن النهار كان قد تقدَّم كثيراً.

كان عند والدي حينها واحدة من أفكاره العبقرية: كيف ننزل مشياً من جبل دون أن نصعد إليه على الأقدام؟ حسنٌ، يكفي في مرحلة أولى أن نتأكد أن هناك طريق يقود إلى القمة. وهذا ما أكدته لنا سيدة البنسيون، ولكنها أضافت أنها لا ترى مصلحة في ذلك لأننا عندما سنكون في الأسفل فإننا سنصبح مُضطرين للصعود من جديد لإحضار السيارة.

- ولكن لا. سوف نصعد بتاكسي وننزل على الأقدام. أوضح والدي.

وهذا ما فعلناه فاتصلنا بتاكسي. ظن السائق في البداية بأنها مزحة لكن والدي لوَّح ببعض الأوراق النقدية السويسرية فانطلقت السيارة مثل سهم.

كانت السيدة تعرف المنطقة أفضل من قزم المحطة! الجبل والمنظر الشامل في القمة كانا رائعين بحق وهذا، صدِّقوني، ليس مديحاً رقيقاً من قِبَلِ نرويجيّ.

في عمق الوادي كان بإمكاننا أن نلاحظ منحدراً مائياً صغيراً مع بعض البيوت الصغيرة جداً. كانت تلك هي دورف وبحيرة ڤالديار.

وعلى الرغم من أننا كنا في عز الصيف إلا أن الريح في أعلى القمم كانت تصفعنا. وجدنا أنفسنا- بالنسبة إلى مستوى سطح البحر- أعلى بكثير من أعلى نقطة في النرويج. اعترفُ بأن ذلك بهرني، ولكن والدي كان خائب الظن لأنه كان قد تخيّل كل تلك الجولة بأملٍ وحيد وهو أن يلمح البحر الأبيض المتوسط. من يدري ما إن كان قد تصوَّر حتى *رؤية* ما كانت تفعله ماما في اليونان؟ ثم روا لي:

- كان ذلك على العكس تماماً عندما كنتُ في البحر، فقد كنتُ أبقى ساعات على سطح السفينة دون أن أرى أي أثر لليابسة.

حاولتُ أن أتخيل المشهد.

- في الحقيقة كان ذلك أفضل بكثير. أشعر دائماً بالضيق عندما لا أستطيع رؤية البحر.

بدأنا النزول مُقتفين طريقاً يتعرج في غابة. هنا أيضاً كانت تنبعث رائحة العسل.

ثم توقفنا في حقل فأخرجتُ عدستي بينما كان والدي يُدخِّن سيجارة. شاهدتُ نملة تتسلق ساقاً صغيرة ولكنني لم أتمكن فعلياً من تفحصها لأنها لم تُرِد أن تبقى ساكنة. هنا دفعت بالنملة بعيداً وتأملت الساق. بدتْ جميلة بعد تكبيرها بعدستي ولكنني بهذا لم أصبح عالماً بعد.

فجأةً تحرك شيء بين الأغصان. انتفض والدي كما لو كان يخشى هجوماً من قبل قطاع طرقٍ خطيرين. لكن ذلك لم يكن إلا أيلاً مُسالِماً. تأمّلنا الحيوان لبضع ثوانٍ قبل أن يختفي في الغابة. كان يكفي رؤية الهيئة المُتشنجة لوالدي حتى تفهم بأنهما كانا خائفين بنفس القدر أحدهما من الآخر. منذ ذلك اليوم أخذتُ أُقارن والدي بأيل. على أن يظل ذلك بيننا، ها؟

وحتى بعد أن يثمل والدي من الخمر فقد كان يمتلئ حيويةً. لقد ركضنا كمجنونين إلى أن اكتشفنا فُرجة مضيئة منثورة بحصى بيضاء غريبة. كان يجب أن يكون منها هناك مئة على الأقل كلها ملساء ومستديرة بحجم قطع سُكَّر.

هرش والدي رأسه باديةً عليه الريبة.

- هل تعتقد بأنهم نبتوا هنا؟ سألت.

هز رأسه.

- لا بد أن هذا من فعل البشر يا هانس- توماس.

- ولكن أية فكرة غريبة أن تُثَبتَ أحجارٌ صغيرة في أقصى عمق الغابة؟!

لم يُجب مباشرةً، ولكنني فهت أنه كان يشاركني الرأي.

إذا ما كان هناك شيء يُغضِب والدي فهو عدم القدرة على تفسير كل شيء. بسبب ذلك فإنه يذكرني بعض الشيء بشارلوك هولمز الذي كان دائماً مُتَّقد النشاط لِحلِ القضايا غير المألوفة، ثم انتهى إلى القول:

- فلنقل أنها مقبرة،. كل حجر صغير له مكانه المحدد جيداً في كل سنتيمتر مربع تقريباً...

ما كنتُ لأُدهش لو أن والدي قصّ عليَّ أن سكان دورف كانوا يدفنون هنا رجالهم الطيبين الصغار المصنوعين من البلاستيك، لكنه لم يذهب مع ذلك إلى هذا الحد.

- أوه، لا بد أنهم أولاد صغار يلعبون بدفن دعسوقيات♠، أضاف عوضاً عن أن يقدم شرحاً أفضل.

- هذا ممكن، ولكن على أية حال ليست الدعسوقيات هي من صقلت هذه الأحجار البيضاء. قلتُ، وأنا منبطحٌ أتفحص واحداً من هذه الأحجار بالعدسة المكبرة.

وندَّتْ عن والدي ابتسامة صغيرة ساخرة، لف ذراعه حول كتفيّ وتابعنا النزول، ولكن ببطءٍ أكثر هذه المرة. وفي النهاية وجدنا أنفسنا أما منزلٍ خشبيّ.

- هل تظن بأن أحداً ما يسكن هنا؟ سألت.
- بالطبع، أجاب والدي.
- وكيف تعرف ذلك؟
- أشار بإصبعهِ إلى المدخنة التي كان يخرج منها قليلٌ من الدخان. على أعتاب البيت شربنا ماءً من ساقية كان يتدفق من قسطل وقد سمّى والدي هذا نبعاً.

أربعة البستون

ما وجدتُه بين يديَّ كان كتاباً صغيراً .....

عدنا إلى دورف في وقتٍ متأخر من بعد الظُهر.

- إن عشاءً جيداً لن يضُرنا، قال والدي.

♠ جنس من الحشرات من رتبة مغمدات الأجنحة. وتسمى في بعض الأقاليم العربية (أم علي) المترجم.

كان المطعم مفتوحاً مما جَنّبَنا أن نأكل في صالة الطعام الضيقة المضحكة تلك. لقد كان بعض سكان دورف قد تحلقوا جالسين حول طاولة شرب البيرة.

أكلنا نقانق ومخلل الملفوف السويسري وتحلينا بنوع من كعكة التفاح بالقشدة الفرنسية.

كان من الطبيعي أن يكون أهم ما في الوجبة بالنسبة لوالدي هو: « تذوق ماء حياة الألب» كما قال. لم أرَ فائدة في أن أبقى هناك لأتأمله وهو يسكر وفضلتُ الصعود إلى الغرفة حاملاً قنينة من الليمونادة بالتوت الأحمر. أعدتُ قراءة المجلات المحمولة من النرويج مرَّة جديدة. بدأتُ أعرفها عن ظهر قلب. ثم قمتُ ببعض ألعاب الصبر، وفي مرتين متتاليتين كانت اللعبة تتعرقل ما أن تبدأ بسبب توزيع الورق الكارثيّ. هكذا إذن عاودتُ النزول إلى المطعم.

كنتُ آمل في أن أحملَ والدي على الصعود معي ليروي لي مغامراته في العالم الواسع قبل أن يصبح ثملاً فوق الحد. لكن لم يكن يبدو أنه قد انتهى من تذوق مياه الحياة ذائعة الصيت تلك. بل بالإضافة إلى ذلك ها هو ذا ينطلق متحدثاً بالألمانيّة مع أهل القرية.

- اذهبْ واعملْ دورة صغيرة في المدينة. اقترح عليّ.

لم يكن إهماله لي سلوكاً لبقاً، لكن بانصرافي عنه طائعاً كنتُ حسناً فعلتُ، وأظن أنني كنت أكثر حظاً منه.

استغرقت مني الـ « جولة في المدينة» خمس دقائق بالضبط. فتلك المدينة كانت صغيرة جداً وبالإجمال كانت تتألف من شارع وحيد كان يُدعى ڤالديمارستراس. لقد كانوا يفتقدون فعلياً المخيلة في هذه المدينة.

ما جعلني أنـزعج من والـدي هو بقاؤه مع أهل القرية هناك يـدقّ كأساً بكأس: آه، ماء حياة الألب هذا... بالتأكيد كان وقعها أحسن من كلمة «الكحول»! كان لوالدي يومٌ ماجنٌ مدعياً أنه لم يكن بصحة جيدة بشكلٍ كافٍ لكي يسمح لنفسه بالتوقف عن الشرب. كان عليَّ أن أكرِّر العبارة مرَّات عديدة في رأسي قبل أن افهمها إذ عادةً ما يقول الناس عكس ذلك، ولكن والدي لم يكن يفعل شيئاً مثل بقية الناس. آه. لم يكن ابناً لألماني (عالفاضي).

كل محلات القرية كانت مغلقة، ومع ذلك فإن شاحنة حمراء كانت متوقفة لتموِّن إحدى البقاليات، بنت صغيرة كانت ترمي كرةً على حائط، رجلٌ مُسِن على مقعد يدخن غليونه في ظل شجرة وكان هذا كل شيء. على كل حال لم أكن أرى فعلاً الفائدة في امتلاك عدسة مكبرة في منطقة نائية كهذه وعلى الرغم من أنه كان في القرية بيوت جميلة بحجمٍ صغير جداً إلا أنني شعرتُ بالقلق من أن أموت في هذا البلد البائس. لهذا فقد كنتُ أرى أنه من حسن الحظ أننا سنرحل صباح اليوم التالي. كنا قد تهيأنا للوصول إلى إيطاليا في نهاية الظهيرة أو في المساء ثم أن نَمُرَّ عبر يوغسلافيا لنصل إلى اليونان وهناك في النهاية ربما قد نجد ماما. لا شيء إلا التفكير فيها كنتُ كما لو كان لديَّ دمل في حلقي.

عبرتُ الشارع لكي أتملى واجهة مخبزٍ صغيرٍ والذي كان هو المحل الأخير. بجانب طبقٍ مُزيّن بحلوياتٍ بائتة كان ثمة وعاء زجاجيّ فيه سمكة حمراء وحيدة وكان حرفه مثلوماً: فقد كسرت منه قطعة زجاجية كبيرة. يتضح بالملاحظة أنها مساوية لحجم عدستي المُكبرة. أردتُ أن أتحقق من الموضوع

فأخرجتُ العدسة من غلافها، وتأكدتُ أنها كانت أصغر قليلاً من قطعة الزجاج المفقودة.

كانت السمكة الحمراء تتحرك بشكلٍ دائريٍّ في وعائها. لا بد أنها كانت تتغذى على فتات الحلويات. قلتُ لنفسي: ربما أن أيلاً كان يريد أن يأكلها فقرض الوعاء بدلاً منها؟

وفجأة أضاءت الشمس المحتجبة الواجهة الصغيرة مما جعل الوعاء الزجاجي يتلألأ. لم تكن السمكة حمراء بل أيضاً برتقالية وصفراء وخضراء. تلوّن الماء والوعاء بلون السمكة. يمكننا القول: لوحة رسام حقيقية. كلما كنتُ ازداد تأملاً في السمكة وفي زجاج الوعاء وفي الماء كلما كنتُ أنسى أكثر أين كنتُ حتى أنني انتهيتُ إلى الاعتقاد أنني أنا الذي كنتُ في الوعاء وأن السمكة الحمراء كانت تراقبني من الخارج.

كنتُ مُستغرِقاً بدرجة كبيرة حتى أنني لم ألحظ حضور رجلٍ مسنٍ شعره أبيض خلف البسطة. بإيماءةٍ من يده أشار لي بالدخول.

غريب أن يكون هذا المخبز مفتوحاً حتى هذا الوقت المُتأخر جداً! حاولتُ أن أرى ما إن كان والدي قد خرج من المطعم ولكن لا بد أنه لم يكن قد انتهى من «تذوق» ماء حياته. عندها فتحتُ باب المخبز ودخلتُ.

- *Grüss' Gott !* قلتُ بصوتٍ احتفاليٍّ مغتنماً فرصة قول التعبير الوحيد الذي أعرفه بالسويسريّة الألمانيّة والذي يعني «السلام عليكم» أو شيء ما من هذا القبيل.

تبينتُ على الفور أني كنتُ في حضرة رجل طيب.

- نرويجيّ، قلتُ، ضارباً على صدري لأفهمه بأن ذلك كل ما عرفته.

انحنى الرجل العجوز فوق بسطة عريضة من الرخام ونظر إليّ مباشرةً في عيني وقال.

- *? Wirklich* حقاً؟. قال. أنا أيضاً عشتُ في النرويج. أوه كان هذا منذ زمن بعيد، بعيدٍ جداً. الآن نسيتُ تقريباً كل لغتي النرويجيّة.

استدار وفتح ثلاجة قديمة أخرج منها قنينة ليمونادة حيث نزع غطاءها ووضعها على البسطة.

- *?Und du* (وأنتَ) تُحب الليمونادة؟ *? nicht wahr* (أليس كذلك؟) خُذ يا صديقي الشاب. هذه ليمونادة جيدة *sehr* (جداً).

رفعتُ القنينة إلى شفتيّ وشربتُ بعض الجرعات. كان لها طعم أفضل بكثير من تلك التي في *Schöner Waldermar*. لا بُد أنها كانت بالأجاص.

انحنى الرجل العجوز ذو الشَعر الأبيض من جديدٍ نحوي ووشوشَ:

- كانت جيدة إذن؟

- لذيذة، قلت.

- *Jawohl*، (نعم)، وشوشَ من جديد. هذه ليمونادة جيدة *sehr* (جداً). ولكن يوجد ليمونادة هنا في دورف أفضل من هذه. ولكن تلك الليمونادة لا تُباع على البسطة. *? Verstehst du* (هل فهمتَ؟).

أشرتُ بنعم. كان يهمسُ بأسلوبٍ غريبٍ جعلني خائفاً بعض الشيء، لكن عينيهِ الزرقاوين كانتا تُفصحان عن طيبة ما كان لها أن تقوى على الكذب فقلتُ:

- جئتُ من أرندل. نحنُ ذاهبان أنا ووالدي إلى اليونان من أجل أن نبذل كل ما في وسعنا لإيجاد ماما التي ولسوء الحظ قد أضاعت نفسها في عالَم الموضة.

في تلك اللحظة بالتحديد ألقى عليَّ نظرةً قاسية.

- *Sagst du* (أقلتَ) أرندل يا صديقي؟ ضائعة؟ ليست وحدها ممن يقع له هذا النوع من الحوادث المزعجة. أنا أيضاً عشتُ بضع سنوات في هذه(الـ*Stadt* الفظيعة والرماديَّة. ولكن من يتذكر هذا الآن؟)؟

هل كان يريد التحدث عن **Grimstad** (غريمستاد) التي كانت تقع بجانب ارندل مباشرةً، والتي كنا نذهب إليها غالباً أنا ووالدي بالقارب في الصيف.

- هي... هي ليست بعيدة عن ارندل، قلتُ مُتلعثماً.

- لا، لا. عرفتُ جيداً أن شبَّاً سيأتي في يومٍ ما إلى هنا إلى دورفٌ ليبحث عن الكنز يا صديقي ومنذ تلك اللحظة لم يعُد الكنز لي وحدي.

فجأةً سمعتُ والدي يناديني. فهمتُ من صوته أنه قد أفرط في تثمين ماء حياة الألب.

- شكراً جزيلاً على الليمونادة، ولكن يجب عليَّ أن أذهب إن والدي يبحثُ عني. قُلت.

- *Vater, ja. Aber natürlich* (نعم، والدُكَ. ولكن بالطبع)، يا صديقي. *Doch* (فقط) انتظر لحظة واحدة فقد وضعتُ صينية بفطائر الحلوى في الفرن بينما كنتَ تراقب السمكة رأيتُ أن لديك عدسة مُكبرة ففهمتُ عندها بأنك كنتَ الشب الحقيقي. سوف *verstehen, mein Sohn* (سوف تفهم يا ولدي) سوف *verstehen* (تفهم)...

اختفى الرجل العجوز في خلفية المحل ثم ظهر مع أربعة فطائر طازجة تماماً حيث أدخلها في كيسٍ ورقيّ مدّهُ إليّ وقال بوقار :

- شيء واحد هام عليك أن تَعِد به. سوف تحتفظ بالفطيرة الأثخن وتأكلها آخر واحدة عندما ستكون وحيداً. ولن يكون عليك أبداً أن تحكي شيئاً. *Verstehst du ?* (هل فهمتَ؟).

- حسنٌ، موافق شكراً مرّة ثانية، قلتُ.

وها أنا ذا من جديد في الشارع. حدث كل ذلك بسرعة شديدة حتى أنني لا أتذكر شيئاً آخر إلا إذا كنت قد وجدتُ والدي في منتصف الطريق.

قصصتُ عليه أنه قد أُهدي إلي ليمونادة وأربع فطائر من الحلوى من قِبَلِ فرّانٍ مُسن كان في شبابه في غريمستاد (Grimstad). ظن والدي أنني كذبتُ عليه، ولكنه مع ذلك أكل واحدة من الفطائر على الطريق. تناولت اثنتين منها واحتفظتُ بالأثخن في الكيس.

نام والدي حالما وضع نفسه في الفِراش، لكن النعاس لم يعرف طريقه إليّ إذ أنني لم أتوقف عن التفكير بالفرّان وبسمكته الحمراء، ثم شعرتُ في النهاية ببعض الجوع فذهبتُ لإحضار الفطيرة الأخيرة. كنتُ آكل في العتمة وأنا أجلس على كرسي مريح. فجأةً شعرتُ أن أسناني قد اصطدمت بشيءٍ قاسٍ. عندها فتحتُ الفطيرة لأُخرجَ منها شيئاً بحجم عُلبة الكبريت. وبما أن والدي كان يشخر بهدوء أضأتُ المصباح أعلى الكرسي.

ما وجدتُه بين يديَّ كان كتاباً صغيراً. على الغلاف كان يمكن أن يُقرَأ :

الليموناد ة الأرجوانية والجزيرة المسحورة.

قلّبتُ أوراقه. رغم أن حجمه كان في غاية الصِّغر إلا أنه كان يحتوي على أكثر من مئة صفحة مطبوعة بحروفٍ صغيرة. فتحتُ الصفحة الأولى وحاولتُ أن أحل رموز السطور الأولى، لكن ذلك كان مستحيلاً، تذكرتُ عندها العدسة المُكبِّرة التي أعطاني إياها القزم في محطة الوقود. بحثتُ في جيوب سروالي وأخرجتُ العدسة من غلافها الأخضر ووضعتها فوق الحروف الأولى للنص. بقيت الحروف صغيرة ولكن بوضع عينيّ فوقها تماماً استطعتُ في النهاية أن أميز الواحد منها عن الآخر.

خمسة البستون

سمعتُ الرجل العجوز يمشي في السقيفة.....

ولدي العزيز- اسمح لي أن أُخاطبك هكذا- أنا هنا لأكتب تاريخ حياتي مدركاً بأنك ستأتي في يومٍ ما إلى هذه القرية. ربما ستمر من أمام مخبز ڤالديمارستراس وستتوقف لتراقب وعاء السمكة الحمراء. سوف لن تعرف لماذا أتيتَ، ولكنني أعرف بأنك ستجيء إلى دورف لكي تُكمِلَ قصة الليمونادة الأرجوانيّة والجزيرة المسحورة.

ها نحن ذا في كانون الثاني من عام ١٩٤٦ ولا أزالُ رَجُلاً فتياً. عندما ستلتقي بي بعد ثلاثين أو أربعين سنة سأكون رجلاً مُسناً بشعرٍ أشيب. أكتبُ أيضاً لأكون مقروءاً بعد أن أتوقف عن الوجود.

فالورقة التي أكتبُ عليها هي مثل قارب النجاة. آه يا ولدي المجهول. إن قارب النجاة يُمكنُ أن يواجه الريح والعاصفة وينجرف زمناً طويلاً قبل أن

يـصل إلى ميناءٍ بعيـد ، لكـن قـاربي يتبـع تيـاراتٍ أُخـرى تماماً . إنـه يـسير نحو(*Levant*) بلاد المشرق حيث اللاعودة .

كيف سأعرفُ بأنكَ من سيُكملُ القصة؟ سأعرف ذلك عندما تقـترب مـني يا ولدي . سـوف أرى أنك تحمل العلامة .

أكتبُ إليكَ باللغة النرويجيّة لأكون متأكداً بأنك ستفهم ولكن أيضاً من أجل أن لا يستطيع الناس في دورف أن يقرؤوا قصة الأقزام . إن سـرّ الجزيـرة المسحورة سينتشرُ سريعاً في القرية . ولكن ماذا سيحصل لهذا السـر بعدها؟ خَبَر حتى ولو أنه يترك أثراً عميقاً إلا أنه سيُرمى في النسيان ، لا؟ وحدها قصة الأقزام لا يجب أن تحرق نفسها تحت الأضواء الكاشفة .

مـن الأفضل أن يعرف شـخصٌ واحد سِرَّ الأقـزام مـن أن يطّلع عليه كـل الناس لينسوه في لحظتها .

أُمثِّلُ واحداً من أولئك الذين بحثوا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، عن مكانٍ يعيشون فيه . إن نصف أوروبا لم يكن غير مخيمٍ واسعٍ للاجئين . جزءٌ كامل من العـالَم وجد نفسه تحت تـأثير الاضطراب . ولكـن نحن لم نكن فقط لاجئين سياسيين ولكن كنا أيضاً أرواحاً تائهة تبحثُ عن هُويّة .

من جهتي كان عليّ أن أهجر ألمانيا وأبني لنفسي وجوداً جديداً . ولكن بوصفي ضابط صف في جيش الرايخ الثالث لم يكن لي الخَيار تقريباً .

لم أجد نفسي فقط في أمة محطمة إذ أ قلبي أيضاً قد تـرك حبيبةً في بلادِكَ في الشمال . لم يكن كل شيء حولي أكثر من خرائب ودمار .

عرفتُ أنني لن أستطيع العيش بعد في ألمانيا، لكنني لم أكن أستطيع أن أعود أيضاً إلى النرويج. نجحتُ إذن في اجتياز الجبال من أجل العبور إلى سويسرا.

تهتُ بضعة أسابيع هنا وهناك إلى أن قابلتُ في دورف فرّاناً عجوزاً باسم البرت كلاجيس.

في ذلك اليوم كنتُ اهبطُ من الجبل جائعاً وعطشاناً كما يحدث بعد عدة أيام من المشي المنفرد، عندما رأيتُ فجأةً قرية في العمق داخل الوادي. منحني الجوع أجنحةً فركضتُ كمجنون عَبْرَ الغابة. بالكاد كان عندي الوقت لألمح منزلاً خشبياً قديماً ولأسمع طنين النحل ولأشم رائحة حليب وعسل لطيفة قبل أن أسقط مغشياً عليّ.

اعتقد أن الفرّان العجوز حملني إلى داخل منزله الخشبي. وعندما استيقظتُ اكتشفتُ رجلاً مُسِناً يدخن غليونه في كرسي هزاز. وما إن رآني أفتحُ جفنيَّ حتى ارتمى عند وسادتي وقال بصوتٍ مُطمئِن:

- ها أنت ذا قد عُدتَ إلى المنزل يا ولدي العزيز، كنتُ أعرف جيداً بأنك ستنتهي إلى أن تطرق بابي من أجل أن تبحث عن الكنز يا ولدي.

لا بد أنني نمتُ مرّةً ثانية لأنني عندما استيقظتُ من جديد كنتُ وحيداً في المنزل الخشبيّ. نهضتُ وخرجت. كان الرجل العجوز جالساً عند طاولة حجريّة عليها وعاءٌ زجاجيٌّ أخاذ تسبح في داخله سمكة حمراء جميلة.

وقد كان من الطبيعي أن أتعجب كيف أن سمكة صغيرة جاءت من المحيط بوسعها- على ما يبدو- أن تكون مسرورة في وسط الجبال في مركز أوروبا. إنها قطعة من المحيط نُقِلَتْ إلى نهاية وسط جبال الألب السويسريّة.

- *Grüss' Gott !* (السلام عليكم)، ألقيتُ التحية.

استدار ورفع عينيه نحوي، فقلت:

- اسمي لودفيغ

- وأنا ألبرت كلاجيس، أجاب.

رجع إلى المنزل الخشبيّ وعاد بالخبز والحليب والجبنة والعسل.

روى لي، وهو يشير بيده إلى الوادي، أن القرية تدعى دورف وأنه يمتلك فيها مخبزاً صغيراً.

عشتُ بضعة أسابيع عند الرجل العجوز، ثم في يوم من الأيام رافقته إلى مخبزه. علّمني ألبرت أن أصنع فطائر الحلوى والبرتزل وكل أنواع الحلويات. لقد عرفتُ منذ زمنٍ طويل بأن السويسريين موهوبون بصناعة الحلويات.

ساعدتُ ألبرت في إفراغ أكياس الطحين الثقيلة بصورةٍ أساسية، لكوني شاباً وكنتُ أبحث أيضاً عن صداقاتٍ أُقيمُها في القرية. فكنتُ أذهبُ مثلاً إلى *Schöne Waldermar*.

أظن أن الناس قد ألفوني و فهموا أني كنتُ قد خدمتُ في الجيش الألمانيّ، ولكنهم امتنعوا عن إلقاء أسئلةٍ حول ماضيّ.

وفي يومٍ من الأيام دار النقاش حول الطريقة الحارّة جداً التي استقبلني بها ألبرت.

- هو أبله قليلاً. قال الفلاح فريتز اندري.

- تذكر أن الأمر كان متشابهاً مع الفرّان القديم. زاود التاجر المُسن هنريخ البريخت.

عندما جازفتُ بالسؤال عما يريدان قوله بهذا، اكتفيا بأن أجابا بطريقة مراوغة. وبما أنني كنتُ أشعرُ أنني نصف ثمل بعد أن شربتُ عدة كؤوس من الخمر قلت صارخاً:

- إذا لم تعطياني حالاً جواباً واضحاً فسيكون من مصلحتكما أن تسحبا الافتراء على ذلك الذي يصنع الخبز الذي تأكلان.

لم يتم التطرق إلى ألبرت في ذلك المساء ولكن بعد عدة أسابيع أعاد فريتز طرح المسألة:

- أولم يصبح لديك فكرة من أين جاءت كل هذه السمكات الحمراء؟ سألني.

- كنتُ قد لاحظتُ أنني قد أثرتُ اهتمامهما بشكلٍ خاص منذ أن تقاسمتُ السطح مع الفران العجوز.

أجبتُ بما أعتقدتُ أنه الحقيقة.

- لا يوجد منها إلا واحدة... ولابد أنه اشتراها من زيوريخ.

انطلق الفلاح والتاجر ضاحكين.

- أيه، لديه منها مجموعة كاملة! هتف الفلاح. في أحد الأيام عاد والدي من الصيد وفاجأ ألبرت الذي كان قد أخرج كل سمكاته الحمراء إلى الشمس ليتركها تتنفس. وصدقني يا صغيري أنه كان يوجد منها الكثير.

- ومهما عدتُ بالذاكرة إلى الوراء فإنني لا أتذكر أنه غادر القرية أبداً. تدخَّل التاجر. فأنا في موقع يخولني أن أعرف ذلك لأن لكلينا تقريباً من نفس العمر.

- هناك من يظن بأنه ساحر. همس الفلاح. فهو لا يصنع فقط الخبز والحلويات، كما يقولون، ولكنه يصنع هذه السمكات الحمراء بنفسه. على أي حال فإن الشيء الأكيد انه لم يصطدها من بحيرة ڤالديمار.

انتهيتُ إلى تصديقهم وسألتُ نفسي ما إذا كان ألبرت لا يخفي سراً رهيباً . العبارات الأولى التي قالها لي ظلت تقفز دائماً في رأسي : « ها أنت ذا قد عُدتَ إلى المنزل يا ولدي العزيز . كنتُ أعرف جيداً بأنك ستنتهي إلى أن تطرق على بابي من أجل أن تبحث عن الكنز يا ولدي . »

لم أشأ أن أجرح الرجل العجوز بأن أنقل إليه كل تلك الثرثرات . فإذا كان يُخفي سِراً بالفعل فربما سأعرفه جيداً في الزمان والمكان المناسبين .

اعتقدتُ ولزمنٍ طويل أن كل تلك الضجة المُثارة حول الرجل العجوز كانت بسبب سكناه منفرداً أعلى القرية ، ولكن عليَّ أن أعترف أن شيئاً غريباً كان في منزله .

ما أن ندخل ، حتى نجد أنفسنا في الحجرة الرئيسية بمدفأتها وبركنٍ صغيرٍ للطبخ . كان هناك بابان يقودان على التوالي إلى غرفته وإلى الحجرة الصغيرة التي أعطاني إياها لدى وصولي . رغم أن المنزل الخشبيّ لم يكن بسقفٍ عالٍ فإنه مع ذلك يسمح ، من بعيد ، بتخيل سقيفةٍ واسعة حتى أنني لاحظتُ فتحةً صغيرةً في السقف المغطى بالألواح .

من الغريب أن ألبرت لم يأتِ على ذكر السقيفة قطّ بل حتى لم يكن يذهب إليها أبداً الأمر الذي يجعلني استحضر تلك السقيفة الغامضة كلما سمعتُ اسم ألبرت .

في أحدى الأمسيات رجعتُ متأخراً أكثر من المعتاد فسمعتُ الرجل العجوز يمشي في السقيفة . ففوجئت وشعرت بالرعب فخرجتُ مباشرةً بحجة

إحضار الماء. ثم انسحبتُ بهدوء قدر الإمكان ولما عُدتُ كان ألبرت قد أخذ من جديد مكانه المعتاد على الكرسي الهزاز يدخن بهدوء غليونه.

- عدتَ متأخراً اليوم، قال.

شعرتُ أن ثمة ما يخفيه في رأسه.

- هل كنتَ في السقيفة؟ قلتُ مجازفاً.

وحتى الآن لازلت أتساءل، كيف تجاسرتُ على طرح سؤالٍ كهذا.

انتفضَ. ولكنه استدرك سريعاً جداً ونظر إليّ بنفس العطف كما في اليوم الأول الذي التقطني فيه نصف ميت من الإنهاك.

- هل أنتَ مُتعب يا لودفيغ؟ سأل.

أومأت برأسي أن لا. كنا في مساء السبت وكان بإمكاننا أن ننام إلى الضحى حتى توقظنا الشمس.

نهض ووضع بعض الحطب على النار، وقال:

- إذن سنبقى معاً هذه الليلة.

ستة البستون

ليمونادة بطعم لا مثيل له أبداً .....

كنتُ على وشك أن أنام فوق العدسة و*الكتاب*. لقد فهمتُ أنني قد بدأتُ بقراءة مغامرة عظيمة، ولكن ما الذي كان يعنيني في كل هذا؟ مزّقتُ طرف الكيس الورقيّ لأضعه كعلامة بين الصفحات لأعرف أين وصلتُ في القراءة.

تذكرتُ أنني كنتُ قد رأيتُ من قبل عملاً من هذا النوع في مكتبة دانيلزن في ساحة سوق ارندل: كان ذلك كتاب مغامراتٍ صغيراً معروضاً مع

شريطٍ مُسَجَّل، ولكن الحروف كانت ضخمة جداً بحيث أنه لم يكن هناك أكثر من خمس عشرة أو ست عشرة كلمة بالكاد في الصفحة وفي هذه الأحوال نعرف بأن أحداث المغامرة تدور بسرعة كبيرة.

كانت قد تجاوزت الواحدة صباحاً بقليل عندما دسستُ العدسة في أحد جيوب سروالي *والكتاب* في الأخرى وعدتُ إلى السرير.

أيقظني والدي عند الفجر. كان يجب أن نتابع طريقنا وبسرعة وإلا فإن موعد العودة إلى البيت كان سيحين ونحن على أبواب أثينا. لقد كان مزاجه سيئاً لأنني تركتُ الكثير من فُتات الفطيرة على الأرض.

فتات فطيرة! فكرتُ، لم أكن أحلم إذن. وثبتُ إلى سروالي وتحسستُ شيئاً ما صلباً في الجيبين. قلتُ لوالدي أن جوعاً شديداً وفُجائياً انتابني في عز الليل فأتيتُ على الفطيرة الأخيرة. وبما أنني لم أشأ أن أُشعل الضوء فقد تركتُ كل هذا الفتات.

وضعنا كل الأشياء في السيارة بسرعة قبل أن ننزل لتناول الفطور. ألقيتُ نظرة على صالة المطعم الفارغ: إلى هنا إذن جاء لودفيغ في أحد الأيام ليشرب كأساً مع أصدقائه.

وبعد الفطور غادرنا نُزل *Schöner Waldemar*. وعند مرورنا أمام المخبر سألني والدي إن حصلتُ على الفطائر من هنا. لم يكن عندي الفرصة للإجابة لأن الفرّان أصبح حينها على عتبة الباب ملوحاً بيده بمثابة "إلى اللقاء"، كما ألقى التحيَّة على والدي الذي أجاب بدوره على سلامه.

في إحدى المرات على الطريق العام أخرجتُ العدسة *والكتاب* باحتراس من جيبي وتابعتُ قراءتي. سألني والدي مراراً عما كنتُ أفعل: أجبته مرّة بأنني كنتُ أتحقق ما إذا كان هنالك قمل أو براغيث على المقعد الخلفي، وفي مرَّة أخرى بأنني كنتُ أفكر في ماما.

عاد ألبرت ليجلس في كرسيّه الهزّاز، حشا غليونه ببعض التبغ أخذه من علبة قديمة وأشعله.

- لقد ولدتُ هنا في دورف في عام ١٨٨١، بدأ. كنتُ الأصغر في عائلة من خمسة أطفال. وهذا يفسر بدون شك ارتباطي الخاص جداً بأمي. كان من المألوف هنا في دورف أن يبقى الأطفال مع أمهاتهم في المنزل حتى عمر سبع- ثماني سنوات، ثم يرافقون بعد ذلك آباءهم ويساعدونهم في أعمال الحقول أو الغابة.

أتذكر نهاراتٍ طويلة كنتُ ألاحق أمي في المطبخ ملتصقاً بثوبها. لم تكن العائلة تجد نفسها مكتملة إلا يوم الأحد. في ذاك اليوم كنا نقوم بنزهاتٍ كبيرةٍ: نُجَهزُ وجبة شهية وفي المساء نلعبُ النرد.

ثم جاء النحس ليخيم فوق عائلتنا. كان بالكاد عندي أربع سنوات عندما أُصيبت أمي بمرض السّل. على مدى عدة سنين استقر المرضُ في المنزل. من الطبيعي أنني لم أكن في سنٍ تسمح لي بفهم كل شيء، ولكنني كنتُ أيضاً أرى أمي تُجبَرُ غالباً على الجلوس لتستريح ثم انتهت إلى أن بقيت طريحة الفراش لعدة أسابيع. كنت عندها أجلس إلى جانبها وأروي لها أكاذيب كنتُ أخترعها.

فاجأتها يوماً منحنيةً فوق (المجلى) فريسةً لنوبة سعالٍ رهيبة. عندما رأيتُ بأن ما كانت تبصقه كان دماً، أصبحتُ كالمجنون وكسَّرتُ كل ما وقع تحت يديّ: صحون، أكواب، كؤوس، أي شيء. لا بد أنها كانت تلك هي المرّة الأولى التي أفهمُ فيها فعلياً بأنها سوف تموت.

أتذكر أيضاً أنه في صباح باكرٍ من أحد أيام الآحاد وقبل أن يستيقظ الآخرون بزمن دخل والدي إلى غرفتي، وقال:

- البرت، لدينا ما نتحدث به كلانا، لم يبقَ لوالدتك وقتٌ طويل لتعيش.

- سوف لن تموت. صرختُ مجنوناً من الألم. أنت تكذب.

ولكنه لم يكن يكذب. كان لا يزال أمامنا عدة شهور لنتكلم مرّةً أُخرى في ذلك. لم يكن عندي شيء من الخوف ولكنني لم أكن قد فكّرت بوجوب مواجهة الموت بهذا الشكل المُبَكِر. كنتُ أرى أمي تزداد شحوباً ونحولاً من يومٍ لآخر ولم تعد الحُمى تفارقها.

ما أتذكره جيداً من هذا هو الجنازة. كان علينا أنا وأخوتي أن نستعير ملابس الحِداد من أصدقاء في القرية. كنتُ الوحيد الذي لم يبكِ: كنتُ أريد كثيراً أن تغادرنا أمي حين لن يكون باستطاعتي أن أذرف دمعة واحدة. منذ ذلك اليوم استمررتُ بالاعتقاد أن الدواء الأنجع لمواجهة الحزن هو الغضب...

- هكذا سيجد والدي نفسه مع خمسة أفواه يجب إطعامها. تابَعَ. في البداية كان الأمر لا بأس به تقريباً فبالإضافة إلى عمله في المزرعة قَبِلَ والدي أن يعمل كمُستَخدَم بريدٍ في القرية. كانت دورف تَعُدُ في تلك الفترة حوالي مائتي إلى ثلاثمائة شخص. تولت أُختي آيني، والتي كانت تبلغ الثالثة عشرة عند موت أمي، أمر التنظيف وساعد الآخرون في المزرعة. أما أنا الذي لم أكن ذا فائدة لأي شخص فقد أمضيتُ معظم وقتي مُتسكعاً. كنتُ أذهب غالباً لأبكي على قبر أمي التي لم أعذرها أبداً على موتها.

بدأ والدي بعدها بالشرب. في البداية فقط عند نهاية الأسبوع، ثم في كل يوم. وقد تأثر عمله في البريد نتيجةً لذلك، ثم بدأتِ المزرعة تشارف على الانهيار. غادر أخواي إلى زيوريخ قبل أن يصبحا راشدين أما أنا فقد بقيتُ هنا دون أن أعرف ما أفعل.

ومع تفتحي تحملتُ الكثير من السخرية لأن والدي كان غالباً « ثَمِلاً» كما كان يصف نفسه. حملناه عدّة مرّات إلى المنزل وقد أنهكه السُكر. كنتُ الأكثر بؤساً في التاريخ فقد ماتت أمي وكنتُ مُقتنعاً أنني دائماً من كان عليه أن يدفع ضريبة ذلك.

وفي النهاية وجدتُ صديقاً: هانس الفرّان. كان رجلاً مُسناً بشعرٍ أشيب وهو من أسَّس مخبز القرية منذ زمنٍ أبعد بكثيرٍ من أن أتذكره رغم أنه لم يكبر في دورف. من أجل هذا كان يُعتبر دائماً غريباً ومُهمَشاً معزولاً. وبما أنه كان بالأحرى من ذلك النوع الكتوم حتى أن أحداً ما كان ليستطيع أن يدّعي معرفته حق المعرفة.

كان هانس الفرّان بحاراً في شبابه، ولكنه انتهى بعد سنواتٍ طويلة مضت في البحر إلى أن استقر كفرّان في القرية. في المرات القليلة التي تجوَّل فيها في مخبزه مشمِّر الأكمام كان يمكن رؤية أربعة وشوم على ذراعيه. إنني أقسم لك أن هذا كان مُبهراً. لا بد أنه كان سعيداً لأن يكون الرجل الوحيد الموشوم في كل القرية.

أتذكر بشكلٍ خاص وشماً لامرأةٍ كانت تجلسُ على مِرساةٍ ضخمة. وكان مكتوباً في الأسفل: *ماريا* . كل أنواع القصص كانت تدور حول هذا الاسم. كان البعض يقول أنه اسم خطيبته وأنها ماتت بالسِّل قبل أن تبلغ عشرين سنة. بينما ادّعى آخرون أنه قد قَتَلَ ألمانيَّة اسمها ماريا لذلك فقد لجأ إلى سويسرا...

كيف استطاع ألبرت أن يعرف أنني أنا أيضاً قد فررتُ تاركاً امرأةً خلفي؟ أرجوا أنه لم يفكر مع ذلك أنني قتلتها؟

ولكنه أضاف:

- كان يمكن القول أيضاً أن ماريا كانت اسم السفينة التي أبحر على ظهرها وإن تلك السفينة غَرِقت في مكان ما في عرض الأطلنطي.

نهض ألبرت ليحضر الخبز والجبن الأصفر، ثم وضع كأسين وقنينة نبيذ على الطاولة، ثم سألَ:

- ألا أُشعِرُك على الأقل بالملل بقصصي؟

هززتُ رأسي بحيوية، ثم تابع قصته:

- وبما أنني كنتُ ولداً مشاكساً فقد كنتُ أُمضي ساعاتٍ أتأمل واجهة الفرّان في شارع □الديمارستراس. غالباً ما كنتُ جائعاً ووجدت أن مجرد النظر إلى الأنواع المُتعددة من الخبز والحلويات كان يشعرني بالشبع قليلاً. وفي يومٍ ما أشار لي هانس الفرّان لكي أدخل وأعطاني قطعة كبيرة من الخبز بالعنب. منذ ذلك اليوم أصبح صديقي. وهنا تبدأ قصتي الخاصة يا لودڤيغ.

أمضيتُ أياماً كاملة في المخبر. إن هيئتي المتوحدة لم تغب عنه. إذا كنتُ جائعاً كان يعطيني قطعة من الخبز خرجت من الفرن أو يجعلني أتذوق حلوى لذيذة، حتى انه فتح في يومٍ ما قنينة ليموناد لا لشيء إلا من أجلي. بالمقابل قدَّمتُ له بعض الخدمات الصغيرة. ولكن ذلك كان قبل سنوات. بالكاد كان عندي ثلاثة عشر عاماً عندما غدوتُ صانعه. ولكن قبل ذلك حَدَثَتْ العديد من الأشياء الأُخرى، لقد أصبحتُ ابنه...

في السنة التي أصبحتُ فيها فرّاناً مات أبي واستطيع القول إنه بالكحول قد حفر قبره بيديه. لم يتوقف عن القول حتى أنفاسه الأخيرة أنه أخيراً سيجد أمي في السماء. خلال ذلك الوقت كانت شقيقتاي قد تزوجتا إلى مدينة أُخرى، بينما لم أعد أسمع شيئاً عن أخويي الآخرين...

ملأ البرت كأسيّ نبيذنا. ذهب بالقرب من المدخنة فأفرغ غليونه وحشاه بالتبغ ثم أشعله. سُحبٌ كثيفة من الدخان عبقت للحظة في الحجرة.

- ... هانس الفرّان وأنا نفسي كنا نساند بعضنا البعض بشكلٍ متبادل. في يومٍ من الأيام جاء فعلياً لنجدتي. انقض عليّ أربعة أو خمسة أولاد سيئين أمام المخبر وأوسعوني ضرباً بالأكف. على الأقل هذه هي الذكرى التي أحملها عن تلك المشاجرة إذ عادةً ما كنتُ أتعرض لهذا، أولم أكن يتيم الأم وابناً لسكير؟، ولكن في ذلك اليوم اندفع هانس خارج المخبز و، آه يا لودفيغ! سوف لن أنسى أبداً هذا المشهد: لقد قام بتخليصي وبتأديب كل واحدٍ منهم. أوه، لقد تصرف بعنف والحقيقة هي أنه منذ ذلك اليوم لم يعد يجرؤ أحد على أن يهاجمني.

إيه نعم، لقد شكّلت تلك المشاجرة نقطة تحول في حياتي. أدخلني هانس الفرّان إلى مخبزه، نظّف سترته البيضاء بالفرشاة وفتح قنينة ليمونادة وضعها على البسطة الرخاميّة.

- هيا اشرب، أمَرَني.

فأطعتُ ووجدت بأنه قد تمت مواساتي تماماً على ذلك الاعتداء الذي تعرضتُ له.

- هل كانت جيدة؟ سألني حتى قبل أن يكون عندي الوقت لأبتلع الجرعة الأولى.

- أوه، شكراً جزيلاً. قلتُ بكل بساطة.

- ولكن إذا وجدتَ أن هذه الليمونادة جيدة، تَابَعَ وصوته آخِذٌ بالارتجاف، فإنني أعدك بأن تتذوق ليمونادة بطعمٍ لا مثيل له أبداً.

كان من الطبيعي أن أعتقد أنه كان يمزح، ولكني تذكّرتُ أن هذا الوعد كان قد قُطع بصوتٍ احتفاليّ وفي ظروف خاصة، فوجهه كان لا يزال مُلتهباً من المُشاجرة.

لا، لم يكن هانس الفرّان رجل مُزاح...

تنحنح ألبرت كلاجيس وسَعَلَ. كنتُ أظن ذلك بسبب الدخان ولكني أعتقدُ كذلك أنه كان مُثاراً إلى حدٍ كبير. نظر إليّ بعينيه الداكنتين والعميقتين:

- هل أنتَ مُتعبٌ يا ولدي؟ هل تريد أن نعاود الحديث عن كل هذا في مساءٍ آخر؟

شربتُ جرعة نبيذ وهززتُ رأسي.

- بالكاد كان عمري اثنتي عشرة سنة في تلك الفترة، تابع بصوتٍ مُتفكرٍ. استمرتْ الحياة بشكلٍ رتيب مع اختلافٍ وحيد هو أن أحداً لم يعد يجرؤ أن يرفع يده عليّ. أمضيتُ نهاراتٍ بكاملها عند الفرّان. أحياناً كنا نتحدث وفي أحيانٍ أُخرى كان يكتفي بأن يعطيني قطعة حلوى ويرسلني من جديد إلى الشارع. كان يستطيع أن يبقى صامتاً لساعات تساوي تلك السّاعات التي كان يروي لي فيها مغامراته في ذلك الزمن الذي كان فيه بحاراً. بفضله تعلمتُ الكثير عن البلاد الأجنبية.

كنتُ أنا دائماً من يأتي لزيارته. لم ألتقيه ولا مرّة واحدة بالصدفة إلا في أحد أيام الشتاء عندما كنتُ أتسلى برمي أحجارٍ في بحيرة ڤالديمار المتجمدة حيث انبثق فجأةً أمامي :

- إيه، لقد كبرت يا ألبرت.... قال.
- أوه، يجب أن يكون هذا....قلتُ.
- هل تعتقد بأنك كبير بما فيه الكفاية لكي تحفظ سِراً؟
- سوف أحمل معي إلى القبر كل الأسرار التي تريد أن تودعني إياها.
- هذا بالضبط ما اعتقدته. هذا أكثر أهمية مما تتخيل يا ولدي لأنه لم يبقَ لي الكثير من الوقت لأحتفظ بهذا السر.
- بل أتمنى كثيراً أن يكون لكَ العمرُ المديد. أجبتُ مُتأثراً.

ولكني شعرتُ أن البرد قد اكتسحني وأن دمي تجمد. هي المرّة الثانية في حياتي القصيرة التي يُعلِمُني فيها الموت بقدومه.

بالكاد ألقى بالاً لكلماتي ثم قال بصوتٍ عالٍ :

– أنت تعرف أين أسكن يا ألبرت. أريدك أن تأتي إليَّ هذا المساء.

سبعة البستون

كوكبٌ غامض...

بذلتُ مجهوداً عظيماً في قراءة هذا المقطع الطويل والذي أصابني منه ألمٌ في عينيّ. كانت الحروف بغاية الصُغر إلى درجة أنني سألتُ نفسي ما إذا كنتُ قد اختلقتُ القصة كلها.

تأملتُ للحظة الجبال الشاهقة والتي كانت تُحاذي الطريق مُفكّراً بألبرت الذي فقد أمه والذي كان والده في حالة سُكْرٍ دائم.

- نحن نقترب من نفق سانت- غوتارد الشهير، قال والدي بعد لحظة، اعتقد أنه يخترق المرتفعات الجبليّة التي تلحظها هنا في الأمام.

أضاف أن نفق سانت غوتارد هذا هو الأطول في العالم فهو يمتد أكثر من ستة عشر كيلومتر وكان قد افتُتِحَ في هذه السنوات الأخيرة. قبل أكثر من مئة سنة كان يوجد في هذا المكان نفقٌ حديديّ، وقَبْلَ ذلك بكثير أيضاً كان ثمة نُسَّاكٌ ومهربون يقومون هنا بتجارة غير مشروعة بين ألمانيا وإيطاليا.

- كما ترى، نحن لسنا أول مَنْ يمر من هنا. خَتَمَ بالقول.

ما أن أنهى عبارته حتى دخلنا في النفق الطويل.

لقد استغرق ذلك ربع ساعة كاملة. كانت أول مدينة نصادفها في الطرف الآخر تُدعى ايرولو.

- ولوريا، قلتُ.

كانت تلك لعبة صغيرة مارستها بانتظام منذ الدنمرك. كنتُ أتسلى بالقراءة بشكلٍ معكوس كل أسماء الأماكن الموجودة على لافتات الطرق لأرى ما إذا كانت تُخفي شيئاً ما ككلمة سريّة. وكان هذا ينجح بعض الأحيان: « روما» على سبيل المثال كانت تُقلَب إلى « امور♠» الأمر الذي يناسب بالأحرى كثيراً هذه المدينة.

♠ وتعني الحُب. (المترجم).

« ولوريا » ليس سيئاً كذلك، فلنقل أنه اسم بلدٍ سحريّ، ولو أغمضنا عينينا نصف إغماضة يمكن أن نستحضره.

تابعنا طريقنا هابطين في وادٍ فيه بعض المزارع وجدران واطئة من الحجارة ثم اجتزنا نهر يُسمى تيسينو. كان والدي هو أول من رآه، فما أن يتعلق الموضوع بالماء حتى يكون هو البطل! كانت الدموع في عينيه، الأمر الذي لم يحدث له منذ كنا على ضفاف هامبورغ.

فَرْمَلَ، ركن السيارة على جانب الشارع وقفز خارجها ليبدي إعجابه بالنهر الفضيّ الذي يلتقي بقعر الوادي.

في الزمن الذي استغرقه نزولي كان قد أشعل سيجارة:

- ها نحن ذا قد وصلنا إلى المحيط في النهاية. يا ولدي. تعرفتُ على رائحة الطحالب و الفَوْقَس. كانت هذه إحدى الصفات الملازمة لوالدي الذي يخرج من فمه هذا النوع من العبارات في اللحظة التي لا تتوقع ذلك أبداً. ومع ذلك فقد وجدتُ أنه قد زوّدها بعض الشيء. لقد أخافني قليلاً لأنه لم يُضف شيئاً كما لو أنه لم يبقَ لديه شيء آخر ليُقوله غير: لقد وصلنا إلى المحيط.

كنا في سويسرا و رغم أنني لم أكن ضليعاً في الجغرافيا إلا أنني كنتُ أعرف أن هذا البلد ليس لديه أية واجهة بحريّة وأن الجبال الشاهقة هي الدليل على أن البحر ليس قريباً جداً.

- هل أنتَ مُتعَب؟ سألتُ.

- أبداً، أجاب مُشيراً مرّةً أُخرى بإصبعه إلى النهر. أخشى بكل بساطة أنني لم أُحدثك أبداً عن التهريب في البحر الأبيض المتوسط. لا بد من تدارك هذا حالاً.

أصبتُ بالذهول وقد لاحظ والدي ذلك لأنه ظنَّ بأن من المناسب إضافة:

- لا تقلق يا هانس- توماس، لا يوجد قراصنة هنا.

قام بإشارة للفت انتباهي إلى الجبال و تابع:

- لقد اجتزنا كتلة نفق سانت- غوتارد. من هنا تستمد الأنهار الكبيرة ينابيعها مثل الرين والرون وأيضاً تيسينو الذي سيرفد نهر البو وليصبا معاً في البحر الأدرياتيكي.

بدأتُ أدرك لماذا قرَّرَ فجأة أن يحدثني عن المحيط. ولكنه عاوَدَ حديثه وهو يُشير إلى الجبال من جديد كما لو أنه أراد أن يزيد من حيرتي.

- لقد قلتُ أن الرون ينبع من هنا. حسنٌ، إن هذا النهر يجتاز جنيف ويجري في فرنسا قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط على بُعدِ بضع عشرات الكيلومترات غرب مرسيليا. أما بالنسبة للرين فهو يتعرج عبر ألمانيا وهولندا قبل أن يصب في بحر الشمال. كل هذه الأنهار تشرب جرعتها الأولى من هنا من الألب.

- وهل توجد سفن تبحر في هذه الأنهار؟ سألتُ لأُساعده في عرضِه.

- احفظ هذا جيداً يا ولدي: إن السفن لا تبحر فقط في الأنهار ولكن أيضاً فيما *بينها*.

كان قد أشعل سيجارة ثانية.

- لو انطلقتَ من الرين على سبيل المثال فإنك تستطيع أن تجتازه إلى الرون وإلى السين وإلى لوار من بين أنهارٍ أُخرى وأيضاً إلى كل الموانئ الكبرى لبحر الشمال وللمحيط الأطلنطي وللبحر الأبيض المتوسط.

- ولكن الجبال الشاهقة تفصل بين هذه الأنهار. قلتُ.
- بالتأكيد، ولكن الجبال لم تكن أبداً عقبة طالما بالإمكان التنقل فيما بينها.
- عن ماذا تريد أن تتحدث. قاطعته.

أُسلوبه في الحديث بالألغاز كان يُغضبني أحياناً بشكلٍ عجيب.

- قنوات. هل تعرف بأنه يمكن أن تنتقل بالسفينة من البحر البلطيقي حتى البحر الأسود من دون أن تقترب أبداً من المحيط الأطلنطي أو من البحر الأبيض المتوسط.

اكتفيتُ بهز رأسي.

- حتى أنك تستطيع أن تصل حتى بحر قزوين بعيداً داخل آسيا. همس وهو مُستثارٌ تماماً.
- هل هذا ممكن فعلاً؟ سألتُ.
- وكيف لا؟ هذا حقيقي كوجود نفق سانت- غوتارد. إن هذا أيضاً خارقٌ للعادة عندما تُفكر فيه!

بقيتُ هناك أتأمل النهر وانتهيتُ بأن شممتُ أنا أيضاً رائحة غامضة للطحالب وللفوقس.

- ولكن ماذا يعلمونكم في المدرسة يا هانس- توماس؟ سأل والدي.
- أن نبقى جالسين بتعقل. وهذا صعب جداً حتى أنه يلزمنا سنوات قبل أن نحققه.
- أرى ذلك. هل تعتقد فعلاً بأنك ستُشاغب إن حدثّك الأُستاذ عن المعابر البحريّة في أوروبا؟
- ربما لا.

انتهت استراحة التدخين واستكملنا طريقنا بإتباع تيسينو. مررنا بيلينزونا: وهي مدينة كبيرة فيها ثلاثة قصور تعود للعصور الوسطى. قدّم لي والدي خطاباً صغيراً حول الصليبيين في العصور الوسطى ثم استطرد:

- أنتَ تعرف يا هانس- توماس أنني مهتم جداً بالكون وبالكواكب، لكن وبشكل خاص بالكواكب المأهولة.

لم يكن لدي شيء لأجيب فقد كنتُ أعرف أذواقه عن ظهر قلب فتابع:

- هل تعرف بأنه الآن فقط اكتُشِفَ كوكبٌ غامض حيث يعيش ملايين الموجودات العاقلة والذين يتجولون في كل مكان على ساقين اثنين ويراقبون الكوكب عبر عدساتٍ عينيَّة.

كان لا بد أن أعترف بأنني ما كنتُ سمعتُ عنه أبداً.

- وهذا الكوكب المتواضع مُخَدَّم بشبكة طرق معقدة حيث يركب دُهاةٌ صغار مركباتٍ بألوان متعددة.

- هذا صحيح؟

- *Yes,sir!* (نعم سيدي). وعلى هذا الكوكب دائماً بنى هؤلاء «الزواحف» المليئون بالأسرار بناياتٍ ضخمة بأكثر من مئة طابق. وتحت هذه العِمارات حفروا أنفاقاً طويلة يعبرونها بمركباتٍ كهربائيّة تنزلق على طول سككٍ حديديّة.

- هل أنتَ مُتأكد من ذلك؟ سألتُ.

- نعم، متأكد تماماً.

- ولكن... لماذا لم أسمع أبداً عن هذا الكوكب؟

- حسنٌ، قال والدي، السبب الأول هو أنه لم يُكتَشف منذ زمنٍ طويلٍ جداً والسبب الثاني هو أنني أخشى من أن أكون الوحيد الذي اكتَشفَه.

- وأين هو؟

ضغط والدي على دواسة الفرامل وركن السيّارة على جانب الشارع.

- *هنا*. قال وهو يضغط راحة كفه على تابلو السيّارة. ها هو ذا الكوكب الغامض الذي أتحدث عنه يا هانس- توماس. نحن هُم أولئك الدُّهاة الصغار الذين يجوبون الأرض في فياتٍ حمراء.

قطَّبتُ لبضعة لحظات مُغتاظاً لأن أكون غبياً جداً. ولكن التأمل يكشف أن هذا الكوكب غير مفهوم بذاته، وعذرته عن طيب خاطر لأنه جعلني ألعب هذا الدور.

- سيصبح الناس مجانين بالكامل لو اكتشف الفلكيون كوكباً مأهولاً *آخرَ*. المشكلة هي أنهم يجدون الحياة على هذا الكوكب أمرٌ طبيعيٌّ جداً. خَتَمَ.

صمتَ لحظاتٍ طويلةٍ فعُدتُ إلى القراءة السريّة *للكتاب*.

كان من الصعوبة لدي أن لا أخلط بين الفرّانين المتعددين الذين تعاقبوا على دورف. حاولتُ أن أستذكر: لودفيغ هو من كتب *الكتاب* وألبرت هو من روى له عن طفولته وعن لقائه الحاسم بهانس الفرّان.

ثمانية البستون

كزوبعةٍ قادمةٍ من أصقاعٍ بعيدة.....

رفع ألبرت كلاجيس الكأس إلى شفتيه وشرب جرعة نبيذ.

عندما تفحصتُ وجهه المُجَعَد وجدتُ صعوبةً في تخيله وهو ولدٌ صغير

متروك لنفسه بعد وفاة والدته. حاولتُ على الأخص أن أتمثل الصداقة التي ربطته بهانس الفرّان.

لقد كنتُ أنا نفسي وحيداً ومهجوراً عندما وصلتُ إلى دورف. إن هذا الذي استضافني كان قد مرَّ إذن بنفس المحن مثلي.

أعاد ألبرت وضع الكأس على الطاولة وأجج النار قليلاً قبل أن يستطرد:

- كل أهالي القرية كانوا يعرفون أن هانس الفرّان كان يعيش في كوخ صغير في أعلى دورف. فانطلقت الإشاعات على قدم وساق، ولكن أحداً لم يدخل إليه أبداً. إذاً ليس هناك ما يُذهل إذا ما كانت معدتي متشنجة قليلاً عندما طلب مني زيارته في ذلك المساء الشتائيّ. كنتُ أول من يحصل على ميزة دخول منزل هذا الفرّان الغريب.

في أعالي الجبال في الشرق كان البدر المكتمل قد طلع والنجوم الأولى كانت تتلألأ حينها في السماء.

تذكرتُ وأنا أرتقي المرتفع الأخير كلماتٍ لهانس قالها لي حينما وَعَدَ أن يُذيقني في يومٍ ما ليمونادة «بطعمٍ لا مثيل له» وهي مختلفة تماماً، كما ادّعى، عن تلك التي قدَّمها لي بعد المشاجرة في الشارع. هل يا تُرى لها علاقة بسره الكبير؟

لمحتُ البيت الذي تجد نفسك فيه اليوم يا لودفيغ.

أذعنتُ فاستطرد الفرّان العجوز:

- مررتُ من أمام عين الماء، اجتزت الساحة المغطاة بالثلج وطرقتُ الباب. سمعتُ هانس الفرّان يناديني: «ادخلْ يا ولدي».

لا تنسَ أن عمري لم يكن يزيد عن اثنتي أو ثلاث عشرة سنة في ذلك الزمن. كنتُ أسكن دائماً مع والدي في المزرعة ومن الغريب أن أُنادى « يا ولدي» من قِبَلِ شخصٍ آخر.

دخلتُ فوجدتُ نفسي غارقاً في عالَمٍ آخر. كان هانس الفرّان يتأرجح في كرسيٍّ هزازٍ ضخم وكانت الحجرة مليئة بمجموعة كاملة من الأوعية الزجاجية بأسماك حمراء. جعل الضوء ألوان قوس قزح تتراقص في كل خبايا الحجرة.

ومع ذلك فقد كان ثمة أشياء أُخرى كثيرة غير الأسماك الحمراء، فبقيتُ مأخوذاً أمام هذا القدر من الأشياء غير المعروفة. كنتُ مُحتاجاً إلى سنوات حتى أوفق في إطلاق اسم على كل ما رأيت: سفنٌ صغيرة في قوارير، أصداف، تماثيل لبوذا، أحجارٌ كريمة، أسلحة خشبية صغيرة كان يستخدمها الاستراليون الأصليون، دمى إفريقيّة، خناجر قديمة، سيوف، سكاكين، مُسدسات، نمارق فارسيّة، سُجَادات هنديّة من صوف اللامه... وكان أشد ما لفت انتباهي تمثالٌ صغيرٌ غريبٌ من الزجاج ذو رأس صغير مُستَدِق وستة أرجل. كان ذلك كله كزوبعةٍ قادمةٍ من أصقاعٍ بعيدة. ربما كنتُ قد سمعتُ عن كل هذه الأشياء ولكن كل ذلك كان قد حدث قبل رؤية الصور الأولى بوقتٍ طويل. لم يكن للجو المحيط بهذا الكوخ علاقة أبداً بما كنتُ قد تخيلته. لم أعد عند هانس الفرّان بل عند ذئب بحرٍ عجوز. في أماكن متعددة من الغرفة كانت تشتعل مصابيح زيتيّة كانت تشبه قليلاً المصابيح البتروليّة التي كنتُ قد عرفتها. لا بد أنها كانت كذلك تذكارات من حياته كبحار.

دعاني الرجل العجوز لآخذ مكاناً على كرسي قريب من النار. أنتَ تجلسُ على الكرسي نفسه اليوم يا لودفيغ.

كنتُ قد تجولتُ قبل هذا في الحجرة الصغيرة وألقيتُ نظرة على كل تلك الأسماك الحمراء. بعضها كانت حمراء وصفراء وبرتقاليّة وأُخرى كانت خضراء وزرقاء وبنفسجيّة. لم أكن قد رأيتُ منها إلا واحدة من قبل، على طاولة صغيرة في خلفيّة المحل في المخبر وغالباً ما كنتُ أُراقبها وهي تلعب في الماء بينما كان هانس يضع الخبز في الفرن.

- إن كل السمكات الحمراء التي تملكها مُذهِلة! كيف أمسكتَ بها؟ قلتُ متعجباً.

انطلق بضحكة عالية وصافية ثم قال لي:

- كل شيء في وقته يا ولدي. قُل لي هل يناسبك أن تصبح في يومٍ ما فرّاناً في دورف بعدما أموتُ أنا.

رغم أنني كنتُ أحاول أن لا أكون طفلاً، إلا أنني غالباً ما كنتُ أفكر في ذلك إذ لم يبقَ لديَّ في العالَم غير هانس ومخبزه. أمي كانت قد ماتت ووالدي لم يعد يسألني أبداً من أين أتيتُ أو إلى أين ذهبتُ، وكل إخوتي وأخواتي كانوا قد هجروا دورف.

- لقد سبق لي أن قررتُ البقاء في هذه المهنة. أجبتُ بصوتٍ احتفالي.

- هذا هو ما توقعته. قال الرجل العجوز مُتَفكِراً. ولكن سيكون من الضروري أن تعتني جيداً بأسماكي، وهذا ليس كل شيء: سوف تصبح حارس سر الليمونادة الأرجوانيّة.

- الليمونادة الأرجوانيّة؟

- نعم، وكل ما يرافقها يا ولدي.

- ولكن ما هي بالضبط تلك الليمونادة الأرجوانيّة؟

رفع حاجبيه الأبيضين وهمس:

- يجب تذوقها يا ولدي.

- ولكن أي طعم لها؟

هزَّ رأسه متحسراً:

- لليمونادة عادةً طعم البرتقال أو الأجاص أو التوت الأحمر وهذا كل ما في الأمر، ولكن الليمونادة الأرجوانيّة ليس لها علاقة البتة بهذا. بل لها كل الطُعُوم مُجتمعة، تلك التي تعرفها سابقاً فضلاً عن طعوم الفاكهة التي لم تذقها في حياتك.

- لا بد أنها رائعة بشكلٍ غريب. قلتُ.

- أوه، هذا شيء آخر تماماً غير الجودة. غالباً ما يكون طَعمْ الليمونادة في الفم، وعلى اللسان أو على الحنك ثم فإنه ينزل إلى الحلق. أما في حالة الليمونادة الأرجوانيّة فإن المذاق يصعد إلى الأنف ويأخذ بالرأس كله قبل أن ينتشر في الساقين والذراعين.

- أظن أنك تحاول أن تخدعني. قلتُ.

- آه. هل تظن هذا؟

كانت علامات المفاجأة باديةً على وجه الرجل العجوز. اخترتُ عندها سؤالاً بدت لي الإجابة عنه أسهل.

- ولكن ما هو ذلك اللون الأرجواني بالضبط؟

بدا لهانس أن السؤال مضحكٌ جداً.

- أأنتَ تسأل عن هذا؟! ولكن ربما هكذا أفضل، على الرغم من أنه ليس من السهل الإجابة دائماً. سوف *أريك* الليمونادة وسوف تعرف لماذا؟

نهض هانس الفرّان وفتح باباً يقود إلى غرفة نوم صغيرة. في هذه الحجرة أيضاً كان يوجد وعاءٌ كبير فيه سمكة حمراء. سحب الرجل العجوز سُلّماً من أعلى السرير وضغطه على الجدار. لمحتُ عندها باباً قلاباً كان مغلقاً بقفلٍ غليظ.

تسلق الفرّان السُّلَم وفتح باب السقيفة القلاب بالمفتاح المدسوس في جيب قميصه.

- تعال من هنا يا ولدي. قال لي. منذ خمسين سنة كاملة لم يصعد أحدٌ غيري إلى السقيفة.

لحقتُ به إليها.

من فتحةٍ صغيرةٍ في السقف كان ضياء القمر يتخلل عائماً فوق صناديق قديمة وساعات سفنٍ اختفت تحت طبقةٍ سميكةٍ من الغبار و خيوط العنكبوت. لم يكن القمر وحده من أضاء السقيفة بضوئه الضارب إلى الزُرقة فبريقٌ من ألوان قوس قزح كان يتلألأ أيضاً.

توقف هانس في أقصى السقيفة وأشار لي بإصبعه إلى زاوية مُعتمة. هناك في تلك الزاوية منحنية السقف كان يوجد قنينة قديمة موضوعة على الأرض. انبعث منها ضوءٌ خاطف اضطرني أن أضع يدي أمام عينيَّ. كان زجاج القنينة شفافاً ولكن السائل في الداخل كان أحمر وأصفر وأخضر وبنفسجي معاً!

رفع هانس الفرّان القنينة فتلألأ محتواها كالألماس السّائل.

- ما هذا؟ همستُ مُرتبكاً.

ألقى العجوز عليَّ نظرة قاسيَّة:

- ها هي ذي الليمونادة الأرجوانيَّة يا ولدي. هذه هي القطرات الأخيرة التي لا تزال موجودة في العالَم.

- وما هي هذه؟ سألتُ مُشيراً إلى علبة تحتوي أوراق لعب قديمة مُتسخة تماماً.

كانت الأوراق باليةً تقريباً. تلك التي في الأعلى كانت ثمانية البستون والتي وجدتُ صعوبةً في أن أُميز أرقامها التي كان يصعب تمييزها.

وضع إصبعاً أمام فمه وهمس:

- هذه أوراق لعب فرود يا ألبرت.

- فرود؟

- نعم فرود. سأُحدثكَ عنه في أُمسيةٍ أُخرى. تعال لننزل مصحوبين بهذه القنينة.

اجتاز الرجل العجوز السقيفة حاملاً القنينة بإحدى يديه والتي كان يبدو معها مثل العفريت والمصباح السحري. الفارق الوحيد هو أن هذا المصباح كان ينشر أضواء حمراء وخضراء وزرقاء. كان ينثر هنا وهناك بقعاً من الألوان كوهج مستنقعاتٍ صغير.

في الصالون وضع هانس الزجاجة أمام النار فاصطبغت كل الأشياء بأحد ألوان الليمونادة الأرجوانية. أصبح تمثال بوذا أخضرَ، مسدس قديم صار أزرقَ، أحد الأسلحة الخشبية الصغيرة غدت حمراء قانية.

- هذه هي إذن الليمونادة الأرجوانيّة الشهيرّة؟ سألتُ مرّة أُخرى.

- نعم، القطرات الأخيرة. وهو مشروب لذيذ جداً أيضاً. بمقدار ما هو جيد بمقدار ما يصبح خطيراً لو أنه عُرِضَ للبيع.

نهض ليحضر كأساً صغيراً حيث سكب فيه بعض القطرات والتي بقيت تتلألأ في القعر كبلوراتٍ من الثلج.

- سيكون هذا كافياً. قال.

- ألن أحصل منه على المزيد؟ سألتُ وأنا شديد الاندهاش.

هزَّ الرجل العجوز رأسه.

- قد يكون عليك على الأقل أن تعرف طعمه فمذاق قطرة واحدة من هذه الليمونادة يدوم لساعات.

- إذن أستطيع أن أشرب قطرة واحدة الآن وأُخرى غداً صباحاً. اقترحتُ.

هزَّ هانس الفرَّان رأسه.

- لا، لا. قطرة واحدة الآن ولن يكون غيرها إلى الأبد. فهي جيدة حتى أنك سترغب في سرقة الباقي ولهذا سيتوجب عليَّ أن أُخفيَّ الزجاجة في السقيفة من جديد حالما تغادر من هنا. وعندما سأُروي لك قصة فرود ولعبته عن الصبر ستشكرني لأنني لم أمنحك كل الزجاجة.

- وأنتَ، هل سبق وتذوقتَ هذه الليمونادة؟

- نعم. مرَّة واحدة، ولكن كان هذا من خمسين سنة.

نهض هانس الفرَّان حاملاً القنينة النفيسة إلى غرفة النوم الصغيرة.

عندما رجع وضع يده على كتفي وقال:

- اشرب الآن يا ولدي. هذه هي اللحظة الأعظم في حياتك سوف تتذكرها دائماً، ولكن اعلمْ أن هذه اللحظة لن تتكرر أبداً.

رفعتُ كأسي وشربتُ القطرة المُتلألئة. غمرني سرورٌ غامض في الحال. تعرفتُ أولاً على كل المذاقات المألوفة ثم سرت آلاف المذاقات الأُخرى في جسدي.

لقد قال هانس الحقيقة. لقد ابتدأ ذلك عند نهاية اللسان بمذاق الفريز، بالتوت الأحمر، بالتفاح، بالموز. ثم سرت المذاقات في الساعدين وفي

القدمين. في نهاية إصبعي الصغير كان هناك مذاق العسل، أحد إبهاميَّ قدميَّ كان فيه طعم مربى الأجاص، في أسفل الظَهر كان هناك طعم الكريما الإنجليزيَّة. جسدي بكامله كان مُجتاحاً برائحة عبير والدتي. كانت رائحة قد نسيتها ولكنني كنتُ مُشتاقاً إليها غاية الشوق.

مع أول عاصفة مذاقاتٍ مرَّت كان لدي الانطباع بأنني أُخبئ الكون كله في جسدي. نعم كنتُ أنا وحدي جسد هذا العالَم بكامله. الغابات والبحيرات والجبال والحقول كانت تُمثِلُ جزءاً من جسدي أنا، وحتى أمي الميتة كانت توجد في مكانٍ ما فيَّ...

نظرتُ إلى تمثال بوذا فظننتُ أنه كان يضحك، عندها أدرتُ عينيَّ نحو السَّيفين المُعلقين على الجدار فرأيتهما يتبارزان. فوق الخزانة كان ثمة قارورة في داخلها سفينة، كنتُ قد لمحتها مباشرةً عند دخولي الكوخ: حسنٌ، لقد كان عندي الانطباع بأنني على ظهر هذا المركب العتيق على أُهبة الإبحار إلى جزيرةٍ غنَّاء فيما وراء الأفق.

- إذن كانت جيدة؟ قال صوتٌ ما.

انحنى هانس الفرَّان نحوي ومرَّر يده في شعري.

- هممم. وفقتُ بأن أقول.

ماذا كان يُمكن أن أُجيب بغير ذلك؟

أظل غير قادرٍ على وصف طعم الليمونادة الأرجوانيَّة بدقةٍ أكبر أو يجبُ إذن أن أقول أن فيها كل الطعوم في العالَم. كل ما أعرفه هو أنني كلما فكرتُ فيها تمتلئُ عيناي بالدموع.

تسعة البستون

كان يرى دائماً أشياءَ غريبة بحيث أن أحداً آخر ما كان يراها .....

بينما كنتُ أقرأ قصة الليمونادة الأرجوانيَّة حاول والدي عبثاً ، وعلى عدة مرّاتٍ متتالية ، أن يفتتح الحديث . ولكن كيف كان يمكن أن أُقطَع قراءة بهذا القدر من التأثير؟ ومن باب التأدب كنتُ ألقي نظرة عبر النافذة من وقتٍ لآخر عندما كان يُعَلِّق على مناظر الطبيعة .

- أخاذ! كنتُ أقول .

أو أيضاً :

- رائع!

عندما كنتُ في طريقي لاكتشاف سقيفة هانس الفرَّان أخطرني والدي أن كل اللافتات والأسماء المُسايرة للطريق مكتوبة بالإيطاليّة . كنا قد وصلنا بالفعل إلى الجزء الإيطاليّ من سويسرا . ليست الأسماء هي وحدها التي كان عليها أن تتغير فالوادي الذي كنا نقطعه أهدى لأنظارنا وروداً وأشجاراً من أجناس متوسطيّة .

كان والدي الذي سافر كثيراً يريد أن يُقدِّم ملاحظاته الصغيرة حول أنواع النباتات هاتفاً :

- غَار ،سنط ، أضاليا ، مغنوليا كرزيات يابانيَّة .

كما أننا رأينا عدة أشجار نخيل وكان هذا قبل اجتياز الحدود الإيطاليَّة بكثير .

- نحن نقترب من لوغانو ، قال والدي في اللحظة التي وضعتُ فيها *الكتاب* جانباً .

اقترحتُ عليه أن نمضي الليلة هنا ولكنه رفض.

- لقد اتفقنا على أن نجتاز الحدود أولاً، لم يعد ذلك بعيداً وسيكون أمامنا بعد الظهر كله.

وبدلاً من ذلك قمنا باستراحة طويلة في لوغانو. تسكّعنا في البداية في شوارع المدينة وفي حدائقها الكثيرة ومتنزهاتها العامة. كنتُ قد أحضرتُ معي عدستي المُكَبرة ولعبتُ دور عالِم النباتات المُبتدئ بينما كان والدي يشتري لنفسه صحيفة انجليزيّة ويدخن سيجارة.

عثرتُ على شجرتين كانتا مختلفتين كثيراً: فللواحدة أزهار حمراء كبيرة وللأُخرى أزهار صفراء صغيرة جداً. ورغم الشكل المُختلف لأزهارهما كان لابد أن تُمثِّل الشجرتان نفس العائلة، فبدراسة أوراقهما بالعدسة المُكبرة اكتشفتُ أن العروق والألياف كانت شبه مُتطابقة.

فاجأنا غناء عندليب كان شجيّاً جداً ورقيقاً جداً لدرجة أن كاد يتملكني البكاء. كان والدي مُتأثراً أيضاً ولكن هذا جعله يضحك.

كان الجو حاراً جداً وإذن فمن حقي الحصول على قطعتي بوظة بدون حتى جعل والدي يتفلسف لأحصل عليهما.

حاولتُ أن أُجبر صرصوراً ضخماً أن يتسلق على امتداد عود البوظة من أجل أن أتمكن من تأمله بالعدسة بشكلٍ أفضل، ولكن كان من الواضح أن خوفاً رهيباً تملكه من مُراقبتي له.

- الصراصير تخرج من كل مكان ما أن يتجاوز ميزان الحرارة الثلاثين درجة، قال والدي.

- ولكنها تفر ما أن ترى عود بوظة، قلت.

قبل أن نستكمل الطريق اشترى والدي عُلبة ورق لعب. هو يشتريها كما يشتري آخرون المجلات. هو ليس مولعاً بلعب الورق ولا يلعب ألعاب الصبر كذلك، على العكس مني.

ولكن لوالدي أسبابه في ذلك. فهو يعمل مُشَحِّماً في ترسانة ارندل الضخمة لصناعة السفن الحربيَّة. في حياته من جهةٍ عمله ومن جهةٍ أُخرى اهتماماته بالأنساق الميتافيزيقيَّة. رفوف المنزل مُغطاة بالكتب المهترئة التي طالما أُعيد ترميمها والتي تُعالِجُ مسائل فلسفيَّة متعددة مما يعني أن لوالدي اهتمامات عاديَّة تماماً خارج أوقات العمل. أوف، عاديَّة!؟ هذا يتوقف على ما نعنيه بهذا.

هناك أناس يجمعون أحجاراً، أوراقاً نقديَّة، طوابعَ، فراشات، والدي أيضاً هاوٍ لمجموعات على طريقته، فهو مهتمٌ بتجميع الجواكر. لقد بدأ يهتم بهذا قبل ميلادي بزمنٍ طويل في الفترة التي كان يعمل فيها في البحر على ما أظُن وهو يمتلك منها دُرجاً مليئاً.

وفي معظم الأوقات كان يحصل على جواكره بترجي الناس الذين يراهم وهم يلعبون الورق أن يتفضلوا بإعطائه أحد الجواكر. كان يتجاسر على التوجه إلى أشخاص مجهولين تماماً مُتحلقين على رصيف مقهى أو عند شاطئ بحر. كان يقول لهم بأنه مشغوف بالجواكر التي جمعها وأنه سيكون مسروراً جداً لو تنازلوا عن أحدها خاصة وأنهم لا ينتفعون منها بشيء. بشكلٍ عام كان يحصل على أحدها مباشرةً، ولكن في أحيان أُخرى كان البعض يظنه مخبولاً وآخرون كانوا يرفضون بأدب أو يتملصون منه. كنت أشعر إذن أنني غجريٌّ صغير يرافق والده للتسول.

كنتُ أتساءل بشكلٍ طبيعي: أية فائدة يمكن له أن يجنيها من مجموعة كهذه؟ لقد كان يتباهى بحصوله على جوكر من كل لعبة ورق صادفها في طريقه تقريباً.

مثل صعوبة تجميع بطاقات بريديَّة من كل مدن العالَم كان من الواضح أنه من المتعذر على والدي تجميع ورقة أُخرى غير الجوكر، تسعة البستون أو شيخ السبات مثلاً، إذ تخيلوا أنفسكم وانتم تطلبون من اللاعبين في (عِز) جولة لعب أن يعطوكم شيخ السبات أو تسعة البستون!

الحِنكة هي أنه في الغالب الأعم يوجد جوكران في لعبة الورق وحتى ثلاثة أحياناً أو أربعة، ولكن القاعدة هي اثنان. بالإضافة إلى ذلك لا توجد ألعاب كثيرة تستلزم وجود جوكر أما إذا كانت تستدعي ذلك فإن جوكراً واحداً كان يفي جيداً بالمطلوب. ولكني أعتقد أن لوالدي سبباً آخر أعمق لكي يهتم بالجواكر.

في الحقيقة لقد كان هو نفسه جوكراً. كان من النادر أن يعترف بالأمر بهذا القدر من الوضوح، ولكنني كنتُ أعرف أنها الورقة التي طابق نفسه دائماً معها.

فالجوكر هو مهرج لا يشبه أحداً. هو ليس بستون ولا كُبة ولا سبات ولا ديناري. هو ليس بثمانية ولا بتسعة ولا بشيخ ولا بشب. هو لا ينتمي إلى أية فئة. هو يُدَسُّ بين أوراق اللعب.ولكنها ليست عائلته الحقيقيَّة ولهذا يمكن انتزاعه دون أن يعني غيابه كثيراً. اعتقد أن والدي بحكم نشأته في ارندل بوصفه طفلاً لألمانيّ ولكن كفيلسوفٍ أيضاً يكون قد ماهى نفسه مع الجوكر. كان يقول إنه كان يرى دائماً أشياء غريبة بحيث أن أحداً آخر ما كان يراها.

عندما اشترى والدي لعبة الورق هذه من لوغانو لم يكن ذلك ليلعب بها ولكن كان يدفعه الفضول لمعرفة أي رأس كان يحمله جوكر هذه المجموعة. فتح العلبة على الفور وأخرج الجواكر منها وقال:

- هذا ما اعتقدته تماماً، لم أرَ هذا الجوكر من قبل.

دسَّه في جيب قميصه .كانت هي تلك اللحظة المناسبة لأتدخل:

- هل أستطيع الاحتفاظ بورق اللعب؟

عندئذ مدَّ لي بقية الأوراق. لقد كان هذا قانوناً ضمنياً: في كل مرّة كان يشتري فيها والدي علبة ورق لعب ويحتفظ منها بالجوكر يكون من حقي أن أحصل على بقية الأوراق شريطة أن أطلبها قبل أن يتخلص منها. ولذلك فقد كنت أمتلك حوالي مئة مجموعة من لعبة الورق وبما أني كنتُ ولداً وحيداً ولم يكن لدي أم في المنزل فقد كنتُ أُحب كثيراً أن ألعب ألعاب الصبر. ومعنى ذلك أنه لم تكن لي علاقة بهواية المجموعات على الرغم من أنه قد أصبح لديَّ من مجموعات ورق اللعب أكثر مما ينبغي. كان والدي أيضاً قد تعود أن يأخذ الجوكر ويرمي بقية الأوراق. كان ذلك طبيعياً مثل تقشير موزة ورمي قشرتها.

- إلى القمامة. هذا ما كان يقوله عندما يفصل الغث من السمين ويرمي بباقي اللعبة في سلة الأوراق.

أحياناً كان يتخلص من الأوراق بأسلوب أذكى قليلاً عندما لا يكون لدي رغبة بها: كأن يجد أولاداً يُسعدهم أن يحصلوا عليها فيعطيهم إياها بدون تعليق. كان يدفع بهذا الفعل ضريبته نحو البشريَّة في مقابل اللاعبين الذين التقاهم في يوم ما والذين كان كثيراً ما انتزع منهم أحد الجواكر. اكتشفتُ أخيراً أن البشرية لا تخسر شيئاً بهذا التبادل.

وفي لحظة الانطلاق مُجدداً أسَرَّ لي والدي أن الطبيعة في هذه النواحي بغاية الجمال وأن لديه رغبة في أن يُجري جولة صغيرة. وهكذا بدلاً من مُتابعة طريق لوغانو الرئيسي حتى كوم فقد حاذينا بحيرة لوغانو واجتزنا الحدود الإيطاليَّة إلى منتصف البحيرة.

ما لبثتُ أن فهمتُ لماذا اختار والدي هذا الطريق: إذ بتركنا بحيرة لوغانو وجدنا بحيرة أكبر بكثير فيها تدفق بحري كثيف. كانت تلك بحيرة كوم.

كانت أول مدينة نصادفها تدعى ميناغيو. ويغانيم، (عكستُها)، ثم حاذينا البحيرة لعدة عشرات الكيلومترات قبل أن نصل كوم في المساء.

لم يتوقف والدي عن ذكر أسماء كل الأشجار التي رآها:

- صنوبر، سرو، زيتون، تين....

سألتُ نفسي أين تعلم كل هذا! كنتُ أعرف بعضها ولكن لم أكن أعلم شيئاً عن بعضها الآخر، من المحتمل جداً أنه كان ينطق بأي أسماء.

في خضمّ استعراضه لمعارفه استغرقتُ في *الكتاب* من جديد. كنتُ متحرقاً لمعرفة كيف استطاع هانس الفرّان أن يحصل على الليمونادة الأرجوانيَّة ومن أين جاءت هذه السمكات الحمراء أيضاً!

قبل أن أواصل قراءتي حرصتُ على أن أبدأ إحدى ألعاب الصبر لأُبرِّر صمتي بشكلٍ ما، فقد وعدتُ فرَّان دورف المُسِن أن يبقَ *الكتاب* سراً بيننا.

عشرة البستون

كجُزُرٍ لا يمكن بلوغها وشراع هذا الزورق لا يُمَكِّنُني من الوصول.....

عندما عدتُ إلى البيت في تلك الليلة كان جسدي لا يزالُ مُشبعاً بالليمونادة الأرجوانيَّة. رائحة كرز في شحمة أذني، عطرُ خُزامى يداعب مرفقي، بالإضافة إلى نقرات حمض الراوند على إحدى ركبتيَّ.

كان القمر قد اختفى ولكن عشرات آلاف النجوم بقيتْ تتلألأ فوق الجبال في السماء كذرَّاتٍ صغيرة ساقطة من ساعةٍ رمليةٍ سحريّة.

كنتُ أعتقد أنني موجودٌ صغيرٌ جداً على الأرض، ولكن من حينها وبفضل الليمونادة الأرجوانيَّة شعرتُ في كل أنحاء جسدي أن هذا الكوكب كان منزلي.

بدأتُ أتفهم لماذا كانت الليمونادة الأرجوانيَّة مشروباً خطيراً: لقد كانت توقظ عطشاً لا يمكن إرواؤه فضلاً عن رغبتي أن آخذ منها المزيد.

لمحتُ والدي في شارع ڤالديمارستراس. كان قد خرج مُترنحاً من *Schöner Waldemar*، مَثَلتُ أمامه ورويتُ له أنني قد كنتُ في منزل الفرَّان، الأمر الذي جعله غاضباً جداً حيثُ وجه إليّ صفعتين قويتين.

وعلى خلاف تلك السهرة السعيدة جداً فإن هذه الصفعة جعلتني أكثر ألماً من قَبل فأجهشتُ بالبكاء. عندها انفجر والدي مُنتحباً أيضاً والتمس مني العُذر. لم أُجب وعدتُ معه إلى المنزل.

كانت كلمات والدي الأخيرة، قبل أن يفقده الكحول صفاء ذهنه بالكامل، هي أن أمي كانت ملاكاً وأن الكحول لعنة من الشيطان.

باكراً في صباح اليوم التالي مررتُ بالمخبز من جديد. لا أنا ولا هانس لَمَّحنا إلى الليمونادة الأرجوانيَّة. لم تكن تبدو في مكانها هنا في القرية، لقد كانت تنتمي إلى عالَم آخر تماماً، ولكن من وقتها تقاسمنا نحن الاثنين سراً كبيراً.

كان يمكن أن أرتبك بقوة لو أن الفرَّان العجوز طلب مني أن أحفظ السِّر، ولكنه عرف أنه لم يكن بحاجة لأن يطرح المسألة.

ذهب هانس إلى خلفية المحل ووضع عجينة البرتزل في الفرن وجلستُ أنا على طبليَّة لأتأمل سمكته الحمراء. لم أسأم من النظر إلى ألوانها الجميلة جداً. كانت تدور في وعائها في كل الاتجاهات وتقوم ببعض القفزات خارج الماء كما لو كانت تتحرك بقوةٍ داخليَّة. كان قد علق على جسدها أصداف حيَّة صغيرة وكانت عيناها تُشبهان نقطتين سوداوين برَّاقتين لا تُغمضان أبداً. فقط فمها كان يفتح ويُغلق بدون توقف.

أي حيوان مهما صغر شأنه هو موجود فريد. فكَّرتُ. هذه السمكة الحمراء في وعائها الزجاجيّ ليس لها الحق إلا بحياةٍ واحدة وهذه الحياة سوف تنتهي في يومٍ من الأيام ولن تعود من جديد أبداً.

كنتُ أستعد للذهاب- كما كنتُ أفعل بعدما أقوم بزيارتي الطقسيَّة الصباحيَّة الصغيرة لهانس الفرَّان- عندما التفت الرجل العجوز إليّ وقال:

- هل ستأتي هذا المساء يا ألبرت؟

أجبتُ نعم برأسي دون أن أقول شيئاً. ثم أضاف:

- لم أُحدثك بعد عن الجزيرة... ولا أعرف عدد الأيام التي يمكن أن أحياها.

استدرتُ وارتميتُ على عنقه وصرختُ:

- ليس لك الحق في أن تموت. سوف لن يكون لك الحق أبداً في أن تموت.

- كل المُسنين لهم الحق في الموت يوماً ما. أجاب شاداً بقوة على كتفيَّ الغضين. ولكن من الجميل معرفة أن أحداً ما سيواصل من حيث توقف السابق و يحل محله.

في ذلك المساء كان هانس ينتظرني أمام منزله الخشبي عند نبع الماء.

- لقد وضعتها في مكانٍ آمِن. قال.

ففهمتُ أنه كان يقصدُ الليمونادة الأرجوانيَّة بكلامه.

- هل سأتمكن أن آخذ منها في يومٍ آخر؟

عقد الرجل العجوز حاجبيه:

- أبداً لا، أبداً.

كان صوته حازماً وصارماً في تلك اللحظة ولكني عرفتُ أنه كان على حق. لقد فهمتُ أنني لن ألمس أبداً ذلك المشروب الغريب مرَّةً أخرى.

- سوف تبقى الزجاجة في السقيفة، تابعَ. ويجب انتظار خمسين سنة كاملة قبل أن تُنزَل من جديد. في ذلك اليوم سيأتي رجلٌ ليطرق بابك وسيتذوق بدوره هذا الرحيق الذهبيّ. لقد بقي منها ما يكفي لعدة أجيالٍ أُخرى. وفي يوم ما، نعم في يوم ما سيسيل النهر العجيب مباشرةً في بلاد المشرق. هل تفهم يا ولدي؟ أو هل أشرحُ أنا بمصطلحاتٍ كبيرةٍ جداً عليك؟

أجبتُ أنني قد فهمت ثم دخلنا إلى الكوخ متكتمين على كل كنوزه المجموعة من كل جهات الأرض.

كالعجوز المُسِنّة، أخذنا مكاناً حول النار. كان هناك كأسان موضوعان على الطاولة فسكب لنا هانس الفرَّان عصير الريحان من دورقٍ قديم.

- لقد ولدتُ في لوبك في إحدى ليالي الشتاء الباردة من عام ١٨١١، بدأ بالقول. كان ذلك أثناء الحروب النابليونيَّة. كان والدي فرَّاناً أيضاً، ولكنني أردتُ أن أصبح بحاراً أولاً لأرى البلاد. في الحقيقة كنتُ مُجبراً على ذلك إذ كنا ثمانية أطفال والمخبز المتواضع الذي كان لوالدي بالكاد كان يكفي لإطعام هذا العدد من الأفواه. كان عمري بالضبط ست عشرة سنة في عام ١٨٢٧ عندما

شددتُ الرِّحال إلى هامبورغ على ظَهرِ سَفينةٍ ضخمة ثلاثية الصواري لمدينة ارندل النرويجيَّة تدعى *ماريا* .

أصبحتْ *ماريا* مسكني وحياتي لمدة أكثر من خمس عشرة سنة، وفي أحد أيام خريف ١٨٤٢ غادرنا روتردام باتجاه نيويورك . كان طاقم السفينة كفءً ، ولكن البوصلة والمنقلة قد خانتانا في تلك المرَّة إذ ابتعدنا جنوباً أكثر من اللازم عن مخرج المانش. لا بد أننا قد دخلنا في خليج المكسيك.أما كيف أمكن لكل هذا أن يحدث فإنه يظل لغزاً بالنسبة لي .

بعد ستة- سبعة أسابيع من الإبحار في أعالي البحر كان لا بد أن نصل منطقياً إلى ميناءٍ ما بسلام، ولكن اليابسة لم تكن مرئية. ربما كنا قد وجدنا أنفسنا إذن في مكانٍ ما داخل مثلث برمودا . في إحدى الصباحات اشتدت الريح وكانت العاصفة تستعد للهبوب ثم أخذتْ تزداد عنفاً شيئاً فشيئاً متحولةً إلى عاصفة هوجاء حقيقية .

قد لا أعرف أن أصف ما حصل تماماً إذ لم يبقَ لي سوى بعض الذكريات غير الواضحة عن غرق السفينة لأن كل شيء حدث بسرعة كبيرة . أتذكر فقط أن السفينة مالت على جانبها ودخل الماء إليها . سقط أحد زملائي فوق جنب السفينة ثم اختفى في البحر وكان ذلك كل شيء . عندما استعدتُ وعيي كنتُ في قارب نجاة و كان المحيط هادئاً . لم أعرف أبداً كم من الوقت بقيتُ وأنا مُغمى عليّ، ربما بضع ساعات أو بضعة أيام . في داخل هذا القارب عثرتُ مجدداً على فكرة الزمن . فهمت في النهاية أن السفينة قد غرقت عن بكرة أبيها فلم يُعثر لا على حطام السفينة ولا على الطاقم، كنتُ أنا الناجي الوحيد من الغرق .

كان للقارب ساريةٌ صغيرة، وقد وجدتُ في مقدمته تحت الأخشاب قماش شراع قديم. رفعتُ الشراع وحاولتُ الإبحار مُستهدياً بالشمس والقمر. اعتقدتُ أنني موجود في مكان ما على طول الساحل الأميركي فحاولتُ أن أُبقي مقدمة القارب نحو الغرب تماماً.

هكذا بقيتُ أنجرف لمدة أسبوع في المحيط بدون رؤية أي أثر لسارية سفينةٍ وبغذاءٍ وحيد هو بعض البسكويت والماء.

أتذكر جيداً بشكلٍ خاص الليلة الأخيرة: كانت النجوم تلمع في السماء كجُزُرٍ لا يمكن بلوغها وشراع هذا الزورق لا يُمكّنني من الوصول. كان من الغريب أن أُفكر أنني كوالدي ووالدتي اللذين بقيا في لوبك، نجد أنفسنا جميعاً تحت نفس النجوم .و على الرغم من أننا نراها معاً إلا أننا كنا على بعد سنواتٍ ضوئيةٍ، والنجوم لا يعنيها كثيراً أن تعرف كيف نعيش على سطح الأرض.

عما قريب سوف يُفجع والدي ووالدتي عندما يعرفان بأن *ماريا* قد غرقت بقضِّها وقضيضها.

باكراً في صباح اليوم التالي كان الليل قد انسحب وكان الشفق قد بزغ في أعلى الأُفق، لمحتُ عن بعيد بقعةً صغيرة. في البداية ظننتُ أنه قذىً بعيني. ولكنني فركتُ عيني عبثاً ودمَّعْتُ، ولكن شيئاً لم يتغير فيها. بقيتْ البقعة السوداء الصغيرة قارَّةً في مكانها ففهمتُ أنها لا بدّ أن تكون جزيرة.

حاولتُ توجيه الزورق لأقترب منها ولكنني واجهتُ تياراً عنيفاً مطوِّقاً لهذه الجزيرة الصغيرة غير المرئية. أرخيتُ الشراع وأخرجتُ مجذافين سميكين ثم ركّزتهما في شعابهما مديراً ظهري نحو الهدف. جذّفتُ دون انقطاع مع

إحساسي أنني كنتُ أراوحُ في مكاني. كان المحيط اللامنتهي يمتد أمامي والذي كان سيكون قبري لو لم أنجح في بلوغ الجزيرة.

استغرق ذلك مني حوالي أربع وعشرين ساعة عندما شربتُ حصتي الأخيرة من الماء. لقد تابعتُ جهودي لعدة ساعات وكانت راحتا يدي مخضبتين تماماً بالدماء، إذ كان يجب أن أرسو حتماً على شاطئ تلك الجزيرة.

وبالتفاتي بعد عدة ساعات من الجهد المُضني رأيتُ أن للجزيرة حدوداً أكثر وضوحاً بكثير. لمحتُ هوراً فيه شجر نخيل، ولكنني كنتُ أبعد من أن أصل إليه، وكان الأصعب هو ما لم يُفعل بعد.

كوفئتُ في النهاية على جهودي، فقد حلَّ المساء واستطعتُ أن أبلغ الهور وأسمع ضجيج القارب الناعم وهو يرسو على الشاطئ.

نزلتُ وسحبتُ الزورق على الساحل الرمليّ. كان أمراً رائعاً الشعور بالأرض الصلبة تحت القدمين بعد كل تلك الأيام التي مرَّت في البحر.

أكلتُ آخر ما تبقى من البسكويت قبل أن أسحب القارب إلى ما بين أشجار النخيل. كنتُ أريد أن أجد الماء بشكلٍ خاص.

بالرسو على هذه الجزيرة من بحار الجنوب تكون حياتي قد أُنقِذتْ بشكلٍ أكيد، ولكنني لم أكن مُتفائلاً بهذا إذ قد لا تكون الجزيرة مأهولة فقد كانت تبدو شديدة الصغر. هنا وقفتُ فاستطعتُ أن ألمح انحناء الساحل. كنت أظن أنني أرى الجزيرة من كل جهاتها.

كانت الأشجار نادرةً في حين أنني سمعتُ طائراً يغرد على أحدى أشجار النخيل. لم أسمع أبداً من قبل شيئاً شبيهاً بهذا. بعد العديد من السنوات التي مضت في الإبحار كان باستطاعتي أن أقسم بأنه لم يكن طائراً بحرياً. مع ذلك كنتُ سعيداً جداً، ربما كان ذلك لشعوري أنني لستُ وحيداً على تلك الجزيرة.

تركتُ الزورق وأردتُ في البداية أن أقترب من الطائر متتبعاً ممراً صغيراً، عندها بدت لي الجزيرة تكبر شيئاً فشيئاً كلما تقدمتُ. اكتشفتُ أشجاراً أخرى وطيوراً مغردة أخرى داخل الجزيرة أكثر من قبل. كانت النباتات والشجيرات مختلفة عن كل ما استطعتُ رؤيته حتى الآن.

ومن الشاطئ لم ألمح إلا ست أو سبع شجرات نخيل، ولكن الممر الذي اتبعته كان يتعرج بين شجيرات وردٍ عالية فجذبني أكثر إلى داخل الجزيرة نحو أكمة نخلٍ صغيرة.

حثثتُ الخُطى لأصل إليها بالسرعة الممكنة من أجل أن أعرف بالضبط اتساع الجزيرة. عند أقدام شجيرات النخيل تلك فهمتُ أنها تُشكل مدخلاً لغابةٍ كثيفة. بالتفاتي كان لا يزال بإمكاني رؤية الهور حيث رسوتُ وعلى اليمين والشمال كان المحيط الأطلنطي يلمع تحت قوة كثافة الضوء.

وبدون مزيدٍ من التفكير تغلغلتُ بين الأشجار المورقة: كان عليَّ أن أعرف حتماً أين تنتهي تلك الجزيرة، فصادفتُ من الجهة الأُخرى منحدراتٍ شاقوليَّة كثيرة على اليمين و اليسار، ثم اختفى البحر نهائياً.

شب البستون

كقشور كستناء ملساء .....

قرأتُ كثيراً في الكتاب إلى أن أُصيبت عيناي بالحول فوضعته تحت المجلات، ثم تأملتُ بحيرة كوم.

حاولتُ أن أجد الرابط القائم بين العدسة والكتاب الصغير جداً الذي أخفاه فرّان دورف في فطيرة حلوى. أليس سرّاً بذاته التمكن من كتابة كتابٍ بخطٍ صغيرٍ جداً؟

بدأ الليل يحل عندما وصلنا إلى كوم عند ضفاف البحيرة، ولكن هذا لا يعني أن الوقت كان قد تقدَّم حينها في المساء لأن الشمس، في ذلك الوقت من السنة، تغرب أبكر بكثير في إيطاليا منها في النرويج. كلما كنا ننزل نحو الجنوب كان يحلّ الليل أسرع حيث تغرب الشمس أبكر بساعة في كل يوم تقريباً.

اجتزنا تلك المدينة الحيَوية جداً عندما أُنيرت الطُرقات، ممّا سمح لنا برؤية حديقةٍ عامة تُقام فيها عروضٌ مُنوَّعة. لابد أنها كانت المرَّة الوحيدة التي ناضلتُ فيها فعلياً لأفرض إرادتي فابتدأتُ بالقول:

- لندخل إلى هذه الحديقة.
- سوف نرى، قال والدي الذي كان يبحث عن مكانٍ لقضاء الليلة. فقلتُ:
- سوف لن نرَ شيئاً. سوف *ندخل* إلى هذه الحديقة.

انتهى بأن سلَّم بشرط أن نجد فندقاً أولاً لقضاء الليلة كما اشترط كأس بيرة قَبْل أن نُتابع التفاوض. إذن حُسِمَ الأمر فذهبنا إلى حديقة العروض بالسيَّارة.

من حُسن الحظ عقدنا العزم على النزول في فندقٍ يبعد خطوتين عن الحديقة العامة كان اسمه: ميني هوتيل باراديلو.

- وليداراب ليتوه ينيم، قلتُ.

سألني والدي لماذا أخذت أتكلم بالعبريَّة. أشرتُ له إلى عنوان الفُندق الأمر الذي جعله يضحك.

أُصعِدَتْ أغراضُنا وشرب أبي بيرته فتوجهنا نحو الحديقة.

وعلى الطريق اختفى والدي داخل محلٍ ليشتري لنفسه زجاجتين صغيرتين من الكحول.

لم تكن الحديقة مُخيِّبة كثيراً للآمل، ولكن العروض الوحيدة التي نجحتُ بجرِّ والدي إليها كانت: قطار- الرعب والدولاب الدَّوار الضخم. وقد سبق لي وأن استمتعتُ بحركات الشقلبة في الجبال الروسيَّة.

من أعلى الدولاب الدَّوار رأينا كل المدينة وجزءاً لا بأس به من بحيرة كوم. في إحدى المرَّات وفي الأعلى تماماً ثبتَ الدولاب الضخم من أجل أن يأخذ راكبين جُدُد، لقد تأرجحنا من الأمام إلى الخلف. كنا مُعلقين بين السماء والأرض عندما لمحتُ رجلاً صغيراً جداً رفع عينيه نحونا. وقفتُ مُشيراً إلى الرجل بإصبعي وصرختُ:

- إنه هو من جديد.
- من هذا؟ سأل والدي.
- القزم. قلتُ. ذاك الذي أعطاني العدسة في محطة الوقود.
- أي كلام هذا! قال والدي ناظراً أيضاً إلى الأسفل.
- إنه هو. أصررتُ. يلبس بالضبط نفس القُبَّعة ويمكن أن تلاحظ جيداً بأنه قزم.
- يوجد أقزام في كل أوروبا يا هانس- توماس وقبعاتٍ أيضاً، هيَّا اجلس من جديد.

كان بإمكاني أن أُقسم بأنه القزم نفسه، بالإضافة إلى أنه نظر إلينا نحن. عندما عاود الدولاب النزول ركض إلى خلف إحدى المنصات واختفى.

فقدتُ كل رغبةٍ في أن أتسلى. سألني والدي ما إن كنتُ أرغب بركوب السيّارات المُتحركة ولكني رفضتُ عرضه بأدب.

- كان عندي رغبة في أن أتنزه وأشاهد فقط. قلتُ.

وما لم أُسِرُّ له به هو أنني كنتُ أبحث عن القزم. ولكن ربما كان لوالدي بعض الشكوك لأنه لم يتوقف عن أن يعرض عليَّ ركوب كل أنواع الدوّارات والآلات.

وبينما كنا نتجول جيئةً وذهاباً بين كل أنواع العروض استدار والدي بسرعة وشرب بأكثر ما استطاع من السريّة بعض الجُرعات من إحدى زجاجتيه الصغيرتين. أظن أنه كان قد فضَّل فعل ذلك بينما كنتُ في قطار- الرعب أو على إحدى الدواليب الأُخرى.

في وسط الحديقة تماماً كانت تنهض خيمة مكتوبٌ عليها: سيبيلا، قرأتُها معكوسةً:

- اليبيس.
- ماذا تقول؟ سأل والدي.
- هناك. قلتُ مُشيراً له بإصبعي إلى الاسم.
- سيبيلا. قرأ والدي. هذا يعني قارئة البخت. من يعرف، ربما لديك الرغبة أن تعرف بختك؟

من أجل هذا نعم وبدون تردد. أسرعتُ إلى داخل الخيمة.

أمام المدخل كان ثمّة فتاةٌ جميلةٌ جداً بعمري. لها شعرٌ أسود طويل وعينان سوداوان. ربما كانت غجريّة. لقد كانت على جَمَالٍ جعل معدتي تتشنج.

اهتمتْ الفتاة بأبي أكثر من اهتمامها بي، رفعت عينيها باتجاهه وسألته بالإنجليزيَّة واضحة بعض الشيء:

- *Will you see your future, sir ? Only five thousand lire.*
(هل سترى طالعك يا سيدي؟ خمسة آلاف لير فقط).

ملَّسَ والدي ورقة نقديَّة وأشار إليَّ بإصبعه ثم أعطى المال للفتاة. في هذه اللحظة أخرجت سيِّدة عجوزٌ رأسها من الخيمة، كانت هي قارئة البخت. كنتُ خائب الأمل قليلاً لأنها لم تكن الفتاة.

دفعتني برفقٍ إلى داخل الخيمة حيث تدلى من السقف مصباح أحمر. جلست العرَّافة أمام طاولةٍ مُستديرة حيث وُضِعَتْ كرةٌ من الكريستال بجانب وعاءٍ زجاجيٍّ فيه سمكة فضيَّة صغيرة، كما كان ثمة علبة ورق لعب على الطاولة. أشارت إلى طبليَّة جلستُ عليها. ما كنتُ لأضطرب لو لم أكن واثقاً من أن أبي ينتظرني عند مدخل الخيمة وبيده زجاجة صغيرة.

- *Do you speak English, my dear?* (هل تتكلم الإنجليزية، يا عزيزي؟)، سألتْ لتبدأ.

- *Of course* (بالطبع)، قلتُ.

أخذتْ عُلبة الورق وسحبَتْ ورقة منها. كانت الورقة هي شب البستون. وضعته على الطاولة ثم طلبتْ مني أن أسحب عشرين ورقة أُخرى، احتفظتْ بها ودسَّتْ شب البستون بينها. قلبتْ الأوراق الواحدة والعشرين واحدة فواحدة ناظرةً في عيني مباشرةً.

وضعت الأوراق في ثلاثة صفوف في كل واحد سبع أوراق. أشارت بإصبعها إلى الصف الأعلى قائلةً لي أنه يُمثّل الماضي وهذا الذي في الوسط يُمثلُ الحاضر وذاك الذي في الأسفل يُمثّلُ المستقبل.

ظهر شب البستون من جديد في الصف الذي في الوسط مُتموضعاً بجانب أحد الجواكر.

- *Amazing,* (مُذهِل)، تمتمتْ. *A very special spread.* (توزُّعٌ مميزٌ جداً).

وكان ذلك كل شيء تقريباً الأمر الذي جعلني أسألُ نفسي حينها ما إن كانت هذه الأوراق مميَّزة جداً بحيث نومتها مغناطيسيَّاً، ولكنها استعادتْ عادة الكلام بعد لحظة.

أشارتْ بإصبعها إلى شب البستون في صف الوسط وتفحصت بتمعن الأوراق من حوله.

- *I see a growing boy,* (أرى ولداً يافعاً). قالت. *he is far away from home* (هو بعيدٌ عن موطنه).

حتى الآن لا شيء يثير الدهشة فلا حاجة لأن يكون المرء قارئ بخت ليعرف أنني لستُ من كوم. ثم أضافت:

- *Are you not happy, my dear?* (هل أنت غير سعيد، يا عزيزي؟).

لم أُجب والتفتتْ السيدة من جديد نحو أوراقها.

أشارت إلى صف الأوراق الذي كان يُمثل الماضي حيث كان شيخ البستون يتوسط أوراق بستون أُخرى.

- *Many sorrows and obstacles in the past.* (العديد من المحن والعقبات في الماضي). قالت.

أخذتْ شيخ البستون وصرّحت بأنه كان يمثل والدي. كانت طفولته صعبة، تابعتْ. ثم قالت حشداً من الأشياء لم أفهم إلا نصفها. استخدمت لعدة مرّات كلمة: «*grandfather*». (الجدّ).

- *But where is your mother, dear son ?* (ولكن أين أُمك، يا ولدي العزيز؟).

قلتُ لها أنها كانت في أثينا، ولكني ندمتُ فوراً على أقوالي، لأنني ساعدتُها، وهكذا فإنها تستطيعُ بسهولةٍ أكبر بكثير أن تخدعني.

- *She has been away for a very long time*، (لقد رحلتْ منذ زمن بعيدٍ جداً)، تابعتْ المرأة بالإشارة إلى صف الأوراق أسفل الجميع. كانت آس الكُبة في أقصى اليمين بعيداً عن شب البستون.

- *I think this is your mother ,* (أظن أن هذه هي أُمك)، قالتْ. . *She is very attractive woman...wearing beautiful clothes...in a foreign country far away from the land in the North.* (هي امرأة جذابة جداً... ترتدي ثياباً جميلة...في بلدٍ أجنبي بعيداً عن بلاد الشمال.)

استمرت هكذا تقرأ لي الأوراق، ولكنني لم أفهم إلا نصف ما روته لي.

عندما شرعتْ بالحديث عن مستقبلي أخذتْ عيناها الغجريتان باللمعان كقشور كستناء ملساء.

- *I have never seen a spread like this...* (لم أرَ أبداً توزُعاً كهذا...)، كرَّرتْ من جديد.

أشارت بإصبعها إلى الجوكر الذي كان يتموضع بجانب شب البستون وقالت:

- *Many great surprises. Many hidden things, my boy.* (العديد من المفاجآت العظيمة. العديد من الأشياء المخفيَّة، يا ولدي.)

هنا نهضتْ ورمت برأسها بعصبيةٍ إلى الوراء. كانت كلماتها الأخيرة هي:

- *And it is so close...* (وهذا قريبٌ جداً...).

انتهت الجلسة فاصطحبتني العرّافة حتى مدخل الخيمة ثم توجهتْ نحو أبي وهمسَتْ في أُذنه ببعض الكلمات كاشفةً عن حقيقةٍ عميقةٍ دون شك. لحقتُ بها وهنا وضعَتْ يدها على رأسي قائلةً:

- *This is a very special boy, sir...Many secrets. God knows what he will bring.* (إنه ولدٌ مميزٌ جداً، يا سيدي... العديد من الأسرار، والله يعلم ما سيفعل).

أظن أن والدي حبس ضحكةً مجنونةً، وربما من أجل أن يتمالك نفسه بشكلٍ أفضل قام بدس ورقةٍ نقديةٍ أُخرى للعرّافة؟

عندما ابتعدنا كفايةً عن الخيمة رأيتُ أن عينيها لم تفارقانا.

- لقد تنبأتْ بالورق. قلتُ.

- حقاً؟ آمل أنك طلبتَ الجوكر منها؟

- هل أنتَ بكامل قواك العقليَّة، ها؟ أجبتُ بلهجةٍ جافّة – فقد وجدتُ أن طرح سؤالٍ كهذا هو كالحلفان في قلب الكنيسة – من هُم الغجر نحن أم هُم؟

وجد أبي هذا مضحكاً. عرفتُ من ضحكته أنه كان قد أفرغ الزجاجتين الصغيرتين.

عند العودة إلى الفندق دفعتُه إلى الحديث فروى لي مغامرات من أقاصي العالَم.

لقد أبحر على مدى سنوات على ظهر ناقلة نفط بين بلدان أميركا اللاتينيَّة وأوروبا حتى صار يعرف خليج المكسيك ومدن مثل روتردام، هامبورغ، لوبك كما يعرف راحة يده. ولكن الناقلة كانت تُسافر فارغة أيضاً إلى أحواض البحار فاستطاع أبي بهذا اكتشاف موانئ من كل جهات الأرض. كنا نحن قد مررنا بهامبورغ ومشينا نصف نهارٍ كامل في منطقةٍ في حرم الميناء. و في صباح اليوم التالي كان علينا أن نصل إلى ميناء البندقية الذي قد ذهب إليه والدي عندما كان لا يزال ولداً صغيراً كما أنه قد أعد نفسه من قبل لزيارة ميناء بيري بمجرد وصولنا إلى أثينا.

قبل الإقدام على هذه السفرة الطويلة أتذكر أنني سألتُه لماذا لا نأخذ الطائرة إذ سيكون لدينا وقتٌ أطول للبحث عن ماما في أثينا. ولكنه شرح لي بأن الهدف من هذه السفرة هو بالضبط العودة معها وسيكون دفعها إلى الفيات واقتيادها أسهل من الذهاب إلى شركة طيران واشتراء بطاقة لها.

شككتُ في أن يكون غير واثقٍ من العثور عليها وليس لديه الرغبة في إفساد تلك العطلة. كان والدي يحلم دائماً بزيارة أثينا، ولكنه عندما رسا في البيري (عندما كان بحّاراً) لم يكن لديه ترخيص من القبطان لزيارة المدينة القديمة والقائمة مع ذلك على بضعة كيلومترات فقط من الميناء. برأيي كان يجب أن تُخَفَّض رتبة القبطان إلى مُجرد تلميذ بَحَّار.

يذهب الكثير من الناس إلى أثينا لرؤية المعابد الإغريقيَّة أما بالنسبة لوالدي فإن رؤية أرض الفلاسفة العِظام كانت رغبته الأولى.

أن تتخلى ماما عنَّا أنا ووالدي فهذا شيء، ولكن أن تزيد الأمر باختيار أثينا لتفرّ إليها فإن هذا ما لا يُحتمل؛ لأنه إذا كان عليها أن تأتي إلى أثينا لتجد نفسها فإنه كان من الممكن أن يقوما معاً بهذه الرحلة فعلياً.

بعد بعض القصص المؤنسة عن حياته كبحَّار غفى والدي وبقيتُ أنا في سريري مفتوح العينين أُفكِّر مُجدداً في *الكتاب* وفي الفرّانين الغريبين في دورف.

غضبتُ من نفسي تلك الليلة لأنني أخفيتُ الكتاب في السيَّارة وبهذا لم يكن باستطاعتي أن أعرف المزيد في عن مغامرات هانس الفرّان بعد غرق السفينة.

وقبل أن أنام فكرتُ في لودفيغ وألبرت وهانس الفرّان جميعهم كانت طفولتهم صعبة قبل أن يصبحوا فرّانين في دورف. كان الأمر الذي جمعهم مع بعضهم هو سر الليمونادة الأرجوانيَّة وجميع السمكات الحمراء.

كان هانس قد ذكر شخصاً ما يمتلك لعبة ورقٍ غامضة يُدعى فرود...

ربما كنتُ مُخطئاً، ولكنني كنتُ أشعر أن كل ذلك كان مُرتبطاً بغرق سفينة هانس الفرّان.

بنت البستون

تلك الفراشات كانت تغني كطيور.....

أيقظني والدي باكراً في صباح اليوم التالي الأمر الذي لم يكن من عادته. لا بد أن الزجاجتين اللتين اشتراهما في الطريق إلى حديقة العروض كانتا صغيرتين جداً في نهاية الأمر.

- نحن ذاهبان إلى البندقيَّة اليوم. قال. سوف نغادر مع طلوع الشمس.

في اللحظة التي قفزتُ فيها من السرير تذكرتُ حلم الليلة. كنتُ قد حلمتُ بالقزم وبالعرَّافة: لم يكن القزم إلا مجرد تمثال صغير من الشمع في نفق قطار الرعب. قامتْ العرَّافة ذات العينين السوداوين بتثبيته بإحكام في ذلك القطار حيث أصبح حيًّاً فجأة ونجح بالفرار في الدياجير وظلمات الليل من نفق هذا القطار الشهير ومن يومها ما زال هائماً على وجهه في أوروبا مُحتملاً الخوف من أن يتعرف عليه أحدٌ ما ويقتاده إلى نفق قطار- الرعب حيث سيرجع مجرد شخصيَّة من الشمع.

كان والدي جاهزاً للرحيل حتى قبل أن أتمكن من اصطياد هذا الحلم الغريب من ذاكرتي وألبس سروالي. كان لديَّ رغبة عارمة في التعرف على البندقيَّة لأننا كنا سنرى من هناك ولأول مرَّة البحر الأبيض المتوسط. إنه بحرٌ لم أكن أعرفه كما أن والدي لم يكن قد رجع إليه منذ أن كان بحَّاراً. ثم كان علينا بعدها أن نمر بيوغسلافيا للوصول إلى أثينا.

نزلنا إلى صالة الطعام حيث ازدردنا فطوراً لا طعم له يُقدَّم في كل مكان جنوب الألب.

كنا في السيّارة قبل الساعة السابعة وكانت الشمس قد بزغت في تمام الأفق عندما انطلقنا. وضع والدي نظارته الشمسيَّة وقال:

- لا شك أن هذا النجم الساطع سوف يظل أمامنا طيلة النهار.

يمر الطريق إلى البندقية عبر أحد وديان نهر البو الشهير والفيَّاض. أن ذلك الوادي هو أحد أكثر الوديان خصوبة في العالَم بفضل مياه الألب التي لها عذوبة لا مثيل لها.

كنا نرى في بعض الأحيان بساتين عامرة بأشجار البرتقال والليمون ثم كنا نُحاط في اللحظة التالية بأشجار السرو والزيتون أو بأشجار النخيل، وفي بعض المناطق الأكثر رطوبة كنا نسير بالسيارة بمحاذاة حقول الرز بين معابر من الحور. على جانب الطريق كانت قد نبتت أزهار بنفسج حمراء بريَّة، كان لونها ساطعاً جداً لدرجة أنني كنتُ أُضطر أحياناً لفرك عينيَّ.

كنا لا نزال في بداية الصباح عندما مررنا فوق السيول ولمحنا وادياً ألوانه شديدة التعبير بحيث يتوجب على الرسام استعمال كل درجات الألوان معاً في لوحته لإعادة تشكيل تنوع لونيّ كهذا.

ركن والدي السيارة على جانب الطريق وخرج يدخن سيجارة حاشداً أفكاره لخطابه الصغير المُعتاد:

- إن هذا كله ينبت كل سنةٍ من جديد يا هانس- توماس: الطماطم والليمون والأرضي شوكي والبندق بصرف النظر عن النباتات البريَّة. هل تستطيع أن تفهم فقط من أين تستمد الأرض السمراء قوةً كهذه لتستنبت كل هذا؟

استمر في تأمل الطبيعة ثم قال:

- إن أكثر ما يُذهلني هو أن كل شيء قد خرج في الأصل من نفس الخليَّة الوحيدة. منذ عدة مليارات السنين من الآن ظهرتْ بذرة ثم أخذت بالانقسام عبر السنوات فتحولت إلى فيلة، إلى أشجار تفّاح، إلى أشجار توت أحمر، إلى إنسان الغاب... هل تستطيع أن تفهم ذلك يا هانس- توماس؟

أشرتُ بلا برأسي. ثم ها هو يبدأ من جديد.

كان عليَّ أن أحتمل عرضاً عن أصل الأنواع النباتيَّة والحيوانيَّة، ولينتهي أشار لي بإصبعه إلى فراشةٍ طارت للتو عن وردةٍ زرقاء وشرح لي أن هذه

الفراشة تستطيع أن تعيش في وادي بو هذا لأن الرسم الموجود على أجنحتها يشبه عيون حيواناتٍ متوحشة.

في المرات القليلة التي كان يكتفي فيها والدي بالتدخين بدل أن يرهقني بدروسه الفلسفيَّة كنتُ استثمرها بإخراج عدستي وكتابي لإجراء بعض التجارب البيولوجيَّة، كما أنني كنتُ مُحتاجاً إليهما أيضاً من أجل أن أتقدم في قراءة *الكتاب* عندما أكون في السيارة من الخلف. فالطبيعة و*الكتاب* يخفيان العديد من الأسرار أحدهما بقدر الآخر على حدٍ سواء.

بقي والدي صامتاً خلف المقود لعدَّة كيلومترات. كنتُ أعرف انه يستطيع في أية لحظة أن يُقدِّم ليَ واحداً أو اثنين من أحكامه عن كوكبنا أو عن ماما التي تركتنا فجأة ذات يوم، ولكن في تلك اللحظة لا شيء كان يبدو لي أكثر أهمية من متابعة قراءتي.

كنتُ أشعرُ بالعزاء لأنني لم أرسُ في النهاية على جزيرةٍ صغيرةٍ جداً وضائعة وسط المحيط، ولكن لم يكن هذا كل شيء. إذ يبدو أن تلك الجزيرة كانتْ تُخفي سراً لا يُسبر له غور فكنتُ أجد باستمرار أنها كانت تكبر شيئاً فشيئاً كلما تقدَّمتُ كما لو كانت أصغر خطوة أخطوها تنتشر في كل الجهات. كانت تتمدد من كل النواحي كما لو أنها تستمد مساحتها الخاصة من ذاتها.

تغلغلتُ في الجزيرة، ولكن بعد قليل انقسم الدرب إلى اثنين فكان عليَّ أن أختار أي طريقٍ آخُذ. أخذتُ ذاك الذي على اليسار والذي ما لبث أن انقسم بدوره إلى اثنين فبقيتُ دائماً على اليسار.

كـان الطريـق يتعـرج حينهـا في شـعب بـين الأدغـال حيـث كانـت تـدب سلاحف ضخمة يبلغ طول بعضها مترين . كنتُ قد سمعتُ من قبل أن منها ما هو بهذا الحجم، ولكن كانت تلك هي المرّة الأولى التي أراها بعينيّ هاتين. أخرجتْ إحداهن رأسها من قوقعتها ونظرتْ إليّ كما لو أنها أرادت أن تتمنى لي قدوماً ميموناً إلى الجزيرة.

تابعتُ استكشافي كل النهار فاكتشفتُ غابات ووديان أُخرى وهضاباً عاليةً أيضاً، ولكنني لم أعد أرى البحر أبداً بعد ذلك. وجدتُ نفسي في بيئةٍ مسحورةٍ، متاهةٌ في كل الاتجاهات إذ لم يكن ثمة نهايةٌ لأي طريق.

بعد الظهر وفي وقتٍ مُتأخرٍ وصلتُ إلى سهلٍ فيه بحيرة كبيرة تتلألأ تحت الشمس. أسرعتُ نحو ضفة البحيرة وشربتُ حتى ارتويتُ من العطش، كانت تلك هي المرّة الأولى منذ عدّة أسابيع أشرب فيها شيئاً ما غير ذاك الماء الذي كان في قارب النجاة.

كما أنني لم أكن قد اغتسلتُ منذ مدة طويلة. نزعتُ بسرعة سترة البّحار ورميتُ نفسي في الماء، أي انتعاشٍ جميل هذا بعد ذلك المشي طوال بعد الظهر في الحرّ المداريّ الخانق! انتبهتُ فجأةً إلى أن وجهي كان مُحترقاً من تأثير الشمس بعد كل تلك النهارات التي مرت في التجذيف حاسر الرأس في قارب النجاة.

غطستُ عدة مرّات عميقاً جداً فاتحاً عينيّ تحت الماء فرأيتُ عشرات الآلاف من الأسماك الصغيرة بكل ألوان قوس قزح. كان بعضها أخضر مثل نباتات الماء وبعضها الآخر أزرق مثل الأحجار الثمينة و أُخرى كان لها انعكاس أحمر وأصفر وبرتقالي. ولجميعها حروز متعددة الألوان.

عاودتُ الصعود إلى الضفة وجففتُ نفسي بشمس المساء. كان الجوع يعذبني فلمحتُ شجرة مزينة بنوعٍ من أنواع العنب أصفر وسمين مثل الفريز. لم أكن قد رأيتُ من قبل شيئاً يشبهه أبداً ولكنني افترضتُ أنه يؤكل. كان طعمه يتردد بين البندق والموز. أكلتُ منه حتى امتلأتُ ثم لبستُ سترتي البحرية وانتهيتُ بأن نمتُ منهكاً على ضفة تلك البحيرة الكبيرة.

استيقظتُ باكراً قبل الفجر في صباح اليوم التالي وأخذتُ أستعيد الوعي بالأحداث.

لقد أُنقذتُ من الغرق! فكرتُ. في تلك اللحظة أدركتُ كم كان حظي سعيداً بكل المقاييس، كان ذلك مثل ولادة ثانية.

كانت ترتفع على يسار البحيرة تلال مغطاة بأشجار الصنوبر وكانتِ التربة مفروشة بعشب أصفر وبأزهار نرجس تتمايد على نسيم الصباح الخفيف.

اكتشفتُ نبعاً قبل أن تُشرق الشمس، ولكن حتى منه تعذرتْ عليَّ رؤية البحر. كانت عيناي تحتضنان منطقة واسعة مثل قارّة. كنتُ قد ذهبتُ من قبل إلى أميركا الشمالية والجنوبية ولكنني لم أكن على أية واحدة من هاتين القارتين. لم يكن يوجد هناك أي أثر لموجود بشري.

بقيتُ على قمة التلة حتى بزغت الشمس من الشرق حمراء مثل حبة طماطم ولكنها متلألئة مثل تحلل ألوان قوس قزح في الهواء، ثم صعدتْ فوق سهبٍ بعيدٍ هناك. كان الأفق منخفضاً جداً حتى أن الشمس بدت لي أكبر وأكثر احمراراً من أي وقتٍ مضى، حتى عندما تكون فوق المحيط. هل كانت هي الشمس نفسها التي تتوهج فوق بيت والديَّ في وطني في لوبك؟

قضيتُ النهار كله أتنقلُ من منظرٍ إلى آخر إلى أن ارتقتِ الشمس عالياً في السماء فنزلتُ إلى وادٍ مغطى بشجيراتٍ وردٍ صفراء. وهناك كانت فراشاتٌ هائلة الحجم تتنقل من وردةٍ إلى أُخرى. كانت ضخامة أجنحة بعضها تقارن بتلك التي للغربان ولكنها أجمل منها بما لا يُقارن. كان لكل الفراشات ألوانٌ زرقاء غامقة جميلة وعلى أجنحتها نجمتان حمراوان قانيتان كبيرتان بحيث يمكن وصفها بأنها ورودٌ حيّة. كانت كما لو أن بعض زهور الجزيرة قد تحرَّرتْ من الرابية وتعلمت فن الطيران. والغريب في الأمر أن تلك الفراشات كانت تغني كالطيور. كانت تُصدر أنغاماً ناعمة تعيد إلى الذهن لحظة تجريب آلات النفخ الخشبيَّة في أوركسترا عظيمة قبل بدأ الحفلة الموسيقيَّة. كانت تلمسني من وقتٍ إلى آخر بأجنحتها بمداعبةٍ لطيفة من مخملٍ ناعم وبعطرٍ حلوٍ آسر.

كان الوادي يُقطع بنهرٍ ذي منسوب مياهٍ عالٍ فقرَّرتُ أن أتبعه حتى لا أظل أدور في دائرة داخل الجزيرة. فكَّرتُ أنني سأنتهي بالوصول إلى البحر بسلام في أية لحظة، ولكن ذلك لم يكن بسيطاً جداً لأنه ومع نهاية بعد الظهر وجدتُ بأن الوادي العريض كان يضيق لينتهي أسفل كتلةٍ جبلية.

لم أكن أفهم شيئاً من هذا لأن النهر لا يمكن له، نظرياً، أن ينعكس ويلتقي بنفسه من الاتجاه المعاكس. بالنزول إلى عمق الشعب لاحظتُ أن مجرى النهر كان يتبع ممراً تحت الأرض محفوراً في الصخر. بلغتُ مدخل تلك المغارة وألقيتُ عليها نظرة. كان الماء يتجمع فيها قبل أن يشكل قناةٍ تجري تحت الأرض.

في أسفل الجبل وعلى ضفة الماء كانت تتقافز ضفادع مائيَّة ضخمة. كان لها حجم الأرانب وكانت تُحدث ضجةً جهنميَّة عندما كانت تنق كلها

مجتمعة. لم أكن قد تصورتُ أبداً من قبل أن الطبيعة قادرةٌ على خلق ضفادع بهذا الحجم.

بعض العضاءات السمينة جداً وحيواناتٍ أكثر منها ضخامة كانت تزحف على العشب الرطب كنتُ قد رأيتُ منها من قبل ولكن ليس أبداً بهذا الطول. كانت ألوانها على وجه الخصوص خارقة فعلياً. كانت الزواحف على تلك الجزيرة حمراء وصفراء وزرقاء معاً.

انتبهتُ إلى إمكان النزول إلى المغارة بشكلٍ جيد جداً إذ كان يكفي التدلي من الأعلى لرؤية إلى أين يقود هذا.

في داخل الجبل كان يسود ضوءٌ أزرق- أخضر غامق وكان سطح الماء بالكاد يرتعش. لاحظتُ أيضاً هناك في الماء بعض أسراب الأسماك الحمراء التي كانت صافية مثل الكريستال.

وعندما توغّلتُ داخل النفق سمعتُ "بقبقة" ماء ضعيفة. كلما كنتُ أتقدّم كلما كان الصوتُ يتضخم إلى أن أصبح يشبه دوي الطبل فعرفتُ أنني قد اقتربتُ من شلالٍ تحت الأرض.

كان الوقت قد حان عندها بالنسبة لي للقيام بنصف دورة، ولكن وفي لحظة اكتشاف الشلال فإن ضوءاً عنيفاً اجتاح الدهليز. رفعتُ عينيَّ فاكتشفتُ فتحةً في تجويف الصخر فباشرتُ بالتسلق نحو ذلك الثقب الصغير ولمحتُ منظراً باهراً قطع عليَّ أنفاسي.

بالكاد نجحتُ في سحل نفسي إلى الخارج فرأيتُ عند نهوضي وادياً كثيفاً جداً حتى أنني لم أعد أتحسر على المحيط. وعلى الدرب الذي كان ينزل

إلى الوادي ميَّزتُ أشجاراً مثمرة متنوعة : تفاح ، برتقال ، ... رأيتُ فيه ثماراً وعنبيات لم أكن أعرفها . كانت الأشجار الأضخم تحمل ثماراً متطاولة لها شكل الخوخ وأشجاراً أخرى تحمل ثماراً خضراء بحجم الطماطم .

كانت التربة مغطاة بأزهار أجمل من بعضها البعض : منها اللبلاب والقناب .... شجيرات ورد صغيرة مُخضَّرة بتيجان ، زهور قزميَّة بألوان أرجوانيَّة نابتة في كل مكان . وفوق هذه الجنبات كانت تطن نحلات بحجم عصافير الدوري التي عندنا . كان لأجنحتها لمعان الزجاج وشفافيته في ذلك الضوء العنيف لشمس ما بعد الظهيرة . ثم شممتُ رائحة عسلٍ قويّة .

واصلتُ النزول في الوادي و هناك رأيتُ « المولوك » .

لقد جحظت عيناي لرؤية الفراشات والنحلات ولكنها لم تكن أكثر من كونها أكبر وأجمل من تلك الأنواع المعروفة في ألمانيا .فهي تبقى على أي حال فراشات ونحلات ، والشيء نفسه يقال بالنسبة للضفادع المائيَّة والزواحف . ولكني رأيتُ هنا حيوانات ضخمة بيضاء لا تشبه شيئاً مما عرفته من قَبل فوجدتني مُضطراً إلى فرك عينيَّ مراراً لأتأكد من أنني لم أكن أحلم .

كان قطيعاً يتألف من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة بهيمة كبيرة بقدر الخيول والأبقار ، ولكن بشعرٍ كثيفٍ أبيض يُذكّرُ بالخراف ، ولكن خراف بستة قوائم ... كان رأسها أصغر ومستدق أكثر من رؤوس الأحصنة أو من رؤوس الأبقار . كانت ترفع رأسها من وقتٍ لآخر نحو السماء وتنادي : « براخ ، براخ » .

لم أكن خائفاً إذ كان يبدو على هذه الحيوانات أنها وديعة وغبيَّة كأبقارنا الحلوب الطيبة . كان من الواضح أنني وجدتُ نفسي في منطقةٍ غير موجودة على أية خارطة ، وكان ذلك أمراً مرعباً كالالتقاء برجل دون وجه ...

كان من الطبيعي أن تستغرق مني قراءة هذه الحروف الصغيرة جداً وقتاً أطول بكثير من قراءة كتابٍ مطبوع بشكلٍ عادي. كان يجب بذل مجهودٍ عظيم في كل مرَّة لفك رموز كل حرف قبل وصله مع الحروف الأُخرى لتشكيل كلمة. كان الوقتُ قد تقدَّم كثيراً بعد الظهر عندما وصلتُ إلى عند الحيوانات ذات القوائم الست على الجزيرة المسحورة حينما ترك والدي للتو الأوتستراد.

- سوف نأكل في ڤيرون، قال.

- نوريڤ، عدَّلتُها بقراءة اللافتة.

عندما كنا نقترب من مركز المدينة روى لي والدي القصة المُحزنة لروميو وجولييت اللذين لم يستطيعا أن يحبا بعضهما بحريَّة لأنهما كانا ينتسبان إلى أُسرتين متعاديتين. كان العاشقان الشابان، اللذان كان عليهما دفع حياتهما ثمناً لحبهما الممنوع، قد عاشا هنا في ڤيرون منذ عدة قرون.

- هذا يُذكِّر قليلاً بالجد والجدة، قلتُ.

أخذ والدي يضحك إذ لم يخطر هذا على باله أبداً من قبل.

أكلنا في ڤيرون/*نتيباستي* وبيتزا على رصيف أحد المطاعم. تسكعنا قليلاً في الشوارع قبل أن نستكمل الطريق حين اشترى والدي من أحد أكشاك الجرائد علبة ورق لعب فيها اثنتان وخمسون صورة لامرأة عارية. لم يستغرق وقتاً طويلا ليجد الجوكر، ولكنه احتفظ هذه المرَّة ببقية الأوراق.

أظن أنه تخيل أن تكون النساء، مع ذلك، أكثر حشمة فقد كان بالأحرى مُتضايقاً. وعلى أي حال فقد وضع بسرعة هذه المرَّة بقية الأوراق في جيب قميصه.

- لا يُعقل أن يكون هناك نساء بهذا المقدار! قال كما لو أنه كان يحدث نفسه.

كان عليه أن يجد شيئاً ليقوله.

كان من تحصيل الحاصل معرفة أن نصف سكان العالَم مكوَّنٌ من النساء، وربما كان يريد أن يقول: « نساءٌ *عاريات* بهذا المقدار» لأن الرقم في الحقيقة سيكون أكثر تحديداً في هذه الحالة.

إذا كان ذلك جوهر تفكيره فإنني اتفق معه تماماً. وجدتُ أن الأمر فيه بعض الجرأة بجمع اثنتين وخمسين امرأة عارية في لعبة ورقٍ واحدة. من جهةٍ أُخرى كانت تلك فكرة سيئة لأننا لا نستطيع أن نلعب لعبة لا يوجد فيها سوى *بنات*. بالتأكيد كان مُشاراً إلى شيخ البستون وأربعة السبات في الأعلى على اليسار ولكن قد نخاطر في لعبة ورق كهذه أن نمتع نظرنا بدلاً من التركيز على اللعب بشكل جيد.

كان الجوكر هو الرجل الوحيد في علبة الورق تلك. كان تمثالاً يونانياً أو رومانياً يمثل ساتير♠ بقرون تيس. هو أيضاً كان عارياً كما هي حال معظم التماثيل القديمة.

وبعد أن صعدنا إلى السيارة بقيتُ أفكر بأوراق اللعب الغريبة تلك.

- ألم تسأل نفسك أبداً ما إن كان من الأفضل لك أن تتزوج امرأة جديدة بدلاً من أن تُمضي نصف حياتك في محاولة العثور على تلك التي لا تعرف من هي؟ سألتُ بغتة.

♠ ساتير: شخصية خرافية عند اليونان نصفها الأعلى بشر والأسفل ماعز. المترجم.

انطلق أولاً بضحكة كبيرة، ثم انتهى إلى القول:

- اعترف بأن هذا ليس أقل من سرّ كبير. خمسة مليارات شخص يعيشون على سطح هذا الكوكب ولكن عندما نختار واحداً منهم لا تكون لدينا الرغبة بتبديله مقابل أي شيء آخر في العالَم.

لم نتطرق بعد ذلك إلى لعبة الورق تلك. رغم أن النساء العاريات حاولن لفت الانتباه إلا أنهن كن يفتقدن، برأي والدي، إلى ورقةٍ أساسيَّة. تلك الورقة هي ما كنا ذاهبين لنبحث عنها في أثينا.

شيخ البستون

لقاء من النمط الرابع

عند وصولنا إلى البندقيَّة مع نهاية بعد الظهر تركنا السيَّارة في كراج فسيح قبل أن نتمكن من دخول المدينة بالمعنى الدقيق للكلمة. إذ ليس في البندقيَّة شارع حقيقي واحد. وبالمقابل فإن تلك المدينة كانت تَعُدُ مئة وثمانين قناة وأكثر من أربعمئة وخمسين جسراً وعدة آلاف من المراكب المُجَهَزة بمحرك ومن زوارق الجندول.

أخذنا من أمام الكراج قارب- تكسي لغاية الفندق على *القناة الكبيرة* وهي، كما يشير اسمها، قناة البندقية الأكبر. كان والدي قد حجز الغرفة من قبل، منذ أن كنا في كوم.

تخلصنا من أمتعتنا بوضعها في غرفة الفندق والتي كانت الأصغر والأشنع من كل الغرف التي شغلناها عبر تلك الرحلة. خرجنا بعدها لنتنزه بمحاذاة القنوات مارّين ببعض الجسور اللامعدودة لتلك المدينة العائمة فوق الماء.

كان علينا أن نبقى فيها لمدة يومين. كنتُ أعلم أن ذلك يُمثل إغراءً كبيراً لوالدي ليكتشف ما يمكن أن تقدمه البندقية له من المشروبات القوية...

بعد أن تعشينا في ساحة سانت- مارك نجحتُ في إقناع والدي أن يُهدي لنا جولة ولو صغيرةً في الجندول. ما أن أشار والدي على الخريطة إلى المكان الذي يرغب بالذهاب إليه حتى أبحر نوتي الجندول بزورقه. لم يخب ظني إلا بخصوص شيء واحد: لم يُغَنِّ (نوتي الجندول) مقطعاً غنائياً واحداً. لم يكن لذلك أهمية كبيرة لأنني كنتُ أجدُ أن أغاني سائقي الجندول تلك كانت تُذكّر بشكلٍ خاص بمواء القطة...

وبينما كنا على وشك العبور من تحت أحد الجسور منسابين فوق الماء ميّزتُ جيداً وجهاً غريباً ألقى علينا نظرة من أعلى درابزين الجسر. كنتُ مُستعداً لأن أُقسم أنه كان قزم محطة الوقود، ولكن هذه المرَّة كنتُ مُغتاظاً جداً لرؤيته من جديد على حين غرَّة لأنني أدركتُ أننا كنا مُلاحقين بشكلٍ محسوبٍ ودقيقٍ.

- القزم، صرختُ وأنا أقف بغتةً مُشيراً إليه بإصبعي.

أتفهم اليوم بشكلٍ أفضل كيف أن والدي استشاط غضباً إذ أن الجندول كان قاب قوسين أو أدنى من الانقلاب.

- اجلس! أمرني والدي.

ومع هذا فقد التفتَ عندما أصبحنا على الجهة الأُخرى من الجسر ورفع رأسه هو أيضاً، ولكن القزم كان قد اختفى كما لو أنه السحر- تماماً مثلما فعل في حديقة المروض في كوم.

- لقد رأيتُ جيداً أنه كان هو، قلتُ وقد أخذتُ بالنشيج.

أنا أيضاً كنتُ خائفاً من أن أسقط في الماء، بالإضافة إلى أنني كنتُ واثقاً من أن والدي لم يُصدِّقني.

- لقد قلتُ لكَ سابقاً أن لديك مُخيلة واسعة جداً يا هانس- توماس. قال.

- ولكنه كان قزماً أؤكد لك. أصررتُ.

- ولم لا، ولكنه ليس نفسه. اعترضَ في حين لم يكن لديه الوقت ليرى حتى أرنبة أنف القزم.

- ربما تعتقد أن أوروبا كلها مليئة بالأقزام؟

لم يكن مُنزعجاً من العبارة بل ارتسمت على وجهه ملامح ابتسامة رضا صغيرة.

- تعرف أن هذا ممكن. نحن جميعاً في الحقيقة أقزام غريبة. نحن أيضاً مخلوقات صغيرة عجيبة تنبثق على حين غرَّة على جسور البندقيَّة.

أوصلنا سائق الجندول- والذي بقي غير مُتأثر أبداً- إلى مكانٍ فيه مطاعم صغيرة كانت تُقدِّم وجباتها على الرصيف. قدَّم لي والدي بوظة وليمونادة وطلب هو قهوة مع ما سماه « Vecchia omagna » . لم اندهش لرؤية أن ما قُدِّم مع القهوة كان مشروباً أسمر مُقدماً في كأسٍ أنيقة يمكن أن تُذكِّر بوعاء سمكةٍ حمراء.

بعد كأسين أو ثلاثة من هذا النوع نظر والدي في عينيَّ مُباشرةً حتى اعتقدتُ أنه قد قرَّر أن يودعني أعظم سرٍ في حياته كلها فبدأ قائلاً:

- هل لازلت تتذكر حديقتنا في هيسوي؟

ترفَّعتُ عن الإجابة عن سؤالٍ بهذه البلاهة والذي لم ينتظر هو له أي جواب حيث تابع:

- حسنٌ، هذا يعني أن تُتابعني الآن بشكلٍ جيد يا هانس- توماس. لنتخيل أنك ذاهب إلى الحديقة في صباح يوم جميلٍ فتصادف أحد سكان المريخ وجهاً لوجه بين أشجار التفّاح. لنقُل بأنه كان أقصر منك قليلاً ولكَ أن تختار ما إن كان الصحن الطائر أصفر أو أخضر.

شعرتُ أنني مُجبرٌ على هزِّ رأسي إشارةً على الموافقة. لم يكن عندي أي شيء لأقوله على أية حال عندما يضع موضوعاً ما في رأسه.

- وقد أخذ هذا المخلوق اللاأرضي يُراقبكَ بانتباه- كما تُراقب سكان كوكب أُخر- تابع والدي. إن السؤال كله هو معرفة ماذا يمكن أن تكون ردَّة فعلك.

كنتُ سأقول له أنني سأدعوه إلى أول فطورٍ له على كوكبنا الأرضيّ، ولكن بدلاً من هذا أجبتُ

أنني قد أُطلق صرخةً حربيّةً مثل قبائل الأباش.

وافق والدي وكان على ما يبدو راضياً عن إجابتي، ولكن ذلك لم يكن إلا البداية.

- ألا تعتقد أن الرغبة كانت ستتملكك لمعرفة من أين جاء هذا الصحن الطائر وذاك الرجل الصغير؟

- بالطبع. قلت.

رفع رأسه وألقى نظرة على كل الأشخاص المحيطين بنا في المكان، ثم سألني:

- هل وضعتَ في الحسبان يوماً أنك أنت نفسك أحد سكان المريخ؟

كنتُ أتوقع منه أي نوع من الهذيانات، ولكن هذا ما لم أحسب له حساباً.

- أو من أهل الأرض إذا كنتَ تُفضل ذلك، واصلَ الكلام. ليس مهماً الاسم الذي نعطيه للكوكب الذي نعيش عليه. المهم هو أنك أنتَ أيضاً شخص يمشي على قائمتين ويمضي وقته وهو يدب على كوكبٍ في الفضاء.

- تماماً مثل ساكن المريخ. أجبتُ.

أشار لي والدي بالإيجاب وأضاف:

- حتى ولو لم يسعفكَ الحظ بمصادفة أحد سكان المريخ في حديقتكَ يمكن أن يحصل لكَ في يومٍ ما أن تُصادف نفسك. في ذلك اليوم الذي سيحصل لكَ فيه هذا ربما ستطلق صرخة هنديٍّ أيضاً. سيكون ذلك أقل ما يمكن أن تفعله لأنه لا يحصل لنا دائماً أن نكون على وعيٍ أننا سكانٌ من لحمٍ ودمٍ لأحد الكواكب والذي هو جزيرةٌ صغيرةٌ ضائعةٌ في الكون.

فهمتُ ما كان يقصده بذلك ولكنني لم أجد شيئاً لأُضيفه.

- هل تتذكر فيلم *المقابلة* الذي رأيناه معاً؟

هززتُ رأسي. كان فيلماً مجنوناً قليلاً يروي قصة جماعة اكتشفوا في أحد الأيام صحناً طائراً.

- إن رؤية سفينة فضائيَّة لكوكبٍ آخر يُدعى لقاءً من النمط الأول. أما إذا رأينا موجودات على قائمتين تخرج من السفينة (الفضائيَّة) فإنه لقاء من النمط الثاني. في السنة التاليَّة شاهدنا فيلماً آخر...

- ويُدعى *لقاء من النمط الثالث*.

- بالضبط. لأنهم *اقتربوا* من مخلوقات غريبة تشبه الإنسان قادمة من نظامٍ شمسيٍّ آخر. إن ذلك اللقاء المباشر مع مجهول هو ما يُدعى لقاءً من النمط الثالث. هل نحن مُتفقان؟

- مُتفقان، قلتُ.

نظر مطولاً إلى المكان بكل ما فيه من أشخاص يشربون القهوة ثم تابع:

- ولكن أنتَ يا هانس- توماس فقد عشت تجربة لقاء من النمط الرابع.

كان لا بُد أنني بدوتُ كإشارة استفهامٍ حيَّة.

- لأنك أنتَ موجودٌ غامض يعيش على كوكب، قال والدي ضاغطاً على كل كلمة من كلماته.

وضع فنجان القهوة على الطاولة بشكلٍ قويٍ مثيراً ضجةً جافةً جداً جعلتنا أنا وهو مُتفاجئَين بأنه قد قاوم الصدمة.

- *أنت هو* ذلك المخلوق الغامض وقد عرفتَهُ من الداخل (عندما قابلت نفسك).

كنتُ مذهولاً تماماً، ولكنني كنتُ أعرف بأن والدي كان على حق.

- يجب أن تدفع لك الدولة بحق راتباً كفيلسوف، قلتُ ببساطة وهذه الكلمات خرجت من أعماق قلبي.

بالعودة إلى الفندق ذلك المساء لفتَ انتباهنا صرصورٌ أسودُ ضخمٌ على أرض الغرفة. كان من الضخامة بحيث أنه كان يثير ضجةً بدرعه وهو يتقدم.

انحنى والدي فوقه وقال:

- *Sorry* (آسف)، يا زميلي ولكنك لن تستطيع أن تُمضي الليلة هنا. لقد حجزنا غرفة لشخصين ولا يوجد مكان لشخصٍ ثالث. من جهةٍ أُخرى فنحن من سيدفع أجرة الغرفة.

اعتقدتُ أن والدي قد أصبح مجنوناً تماماً، ولكنه تفرَّس في وجهي وأضاف:

- هو أضخم من أن نقوى على قتله. إنه ضخمٌ جداً بحيث أنه يستحق لقب شخص ولا يُمكن قتل الأشخاص بضربة قدمٍ واحدة حتى ولو كان منظرهم لا يسُرُّنا.

- هل سنتركه إذن يتجول في الغرفة بينما نحن نيام؟

- ولكن لا، سوف ندله بلطف على طريق الخروج.

وهذا ما فعلناه. تكلَّف والدي بطرد الصرصور خارج الغرفة. قام في البداية بوضع كل الحقائب والأكياس بأُسلوب تشكيل ممرٍ طويلٍ على أرضية الغرفة، ثم أخذ يدغدغه على ظهره بواسطة عود ثقاب ليجعله يتقدم. بعد نصف ساعة خرج الصرصور إلى قرص الدرج. وجد والدي أنه تعب بما يكفي ولم يُرافق ضيفه غير المرغوب فيه حتى صالة الاستقبال.

- إيه، وهكذا نكون قد ضحكنا عليه، قال وهو يُغلق الباب خلفه.

تمدد على السرير ونام على الفور.

تركتُ الضوء مُناراً فوق السرير وتابعتُ قراءتي *للكتاب* ما أن أمَّنتُ على أن والدي قد بلغ بلاد الأحلام.

السباتي ♣

آس السباتي

كتلك الشخصيات التي نجدها على أوراق اللعب .....

بقيتُ بعد الظهر كله في تلك الحديقة الغنَّاء إلى أن لمحتُ في البعيد طيف موجودين بشريين فشعرتُ أن قلبي يخفق بشدة حتى يكاد يخرج من أضلعي.

لقد أُنقذتُ، إذ ربما أكون قد وصلتُ إلى أميركا مع ذلك. فكرتُ.

خطر على بالي وأنا اقترب منهما أننا وبدون شك قد لا نستطيع التفاهم مُطلقاً، إذ أنني لم أكن أتكلم إلا الألمانيَّة وبعض الكلمات الإنجليزيَّة كما أنني تعلمتُ النرويجيَّة بعد أربع سنواتٍ أمضيتها على ظهر السفينة *ماريا*، ولكن من المؤكد أن سكان هذه الجزيرة يتكلمون لغةً أُخرى.

استطعتُ أن أتبين، وأنا أتقدم نحوهما شيئاً فشيئاً، أنهما كانا مشغولين في حقلٍ مزروعٍ كما اكتشفتُ أيضاً بأنهما كانا أقصر مني. هل كانا طفلين يا ترى؟

عندما أصبحتُ أكثر قُرباً رأيتُ أنهما كانا يلتقطان جذوراً ذات ألوانٍ زاهية ويضعانها في سلَّة. التفتا فجأة وحدَّقا بي. كانا رَجُلين مربوعين تماماً، لم يصل أي منهما إلى أعلى من صدري. كان لكليهما شعرٌ أسمر وبشرة لامعة

داكنة وكانا يرتديان بذلتين زرقاوين غامقتين متطابقتين تماماً. كان الفارق الوحيد بينهما هو أنه كان لأحدهما ثلاثة أزرارٍ ضخمة سوداء على سترة بذلته بينما لم يكن لدى الآخر سوى زرين.

- *Good afternoon* (مساء الخير) بدأتُ القول بالإنجليزيَّة.

وضع الرجلان الصغيران أدواتهما التي كانا يحملانها بأيديهما على الأرض ونظرا في عينيَّ مباشرةً.

- *Do you speak English ?* (هل تتكلمان الإنجليزيَّة؟)، حاولتُ مرَّةً ثانيةً.

اكتفى الرَّجُلان بهز رأسيهما وبتلويح أذرعهما.

مثل شخصٍ أخرس وبشكلٍ لا إرادي قمتُ بالتسليم عليهما بلغتي الأُم، وهنا أجابني ذاك الذي كان على سترته ثلاثة أزرار بألمانيَّة طليقة:

- إذا كان عندك أكثر من ثلاث إشارات فإنك تكسبنا، ولكننا نرجوك بإلحاح أن تعفو عنا.

كنتُ مندهشاً تماماً حتى أنني لم أعرف ماذا أُجيب فها أنا ذا أسمع جواباً بلغتي الأُم في أقصى عُمق جزيرة مهجورة ضائعة في المحيط الأطلنطي! ولكن ماذا قصد بثلاث إشارات؟

- لا أُريدُ إلا خيراً، قلتُ بالصدفة.

- سيكون هذا أفضل لك وإلا فإن *الشيخ* سيعاقبك.

الشيخ! فكَّرت، لم أكن إذن في أميركا الشماليَّة.

- أحب كثيراً أن أتحدث مع شيخكم، أجبت.

جاء الرجل الذي على سترته زرين ليشرك نفسه في حديثنا.

- مع أي شيخ تُحبُ أن تتكلم؟
- أولم يقل صديقك إن الشيخ كان سيعاقبني؟

التفتَ الرجل ذو الزرين نحو ذلك الذي لديه ثلاثة أزرار وقال له: «هذا هو ما اعتقدتُه، هو لا يعرف قوانين اللعُبة.»

رفع الرجل ذو الثلاثة أزرار رأسه نحوي وقال:

- ليس شيخاً واحداً فقط.
- حقيقي! وكم شيخ يوجد إذن؟

ضحك الرجلان هازئين ففهمتُ أنهما قد حكما على أن أسئلتي بلهاء فعلاً.

- يوجد واحد لكل لون، تمتم الرجل ذو الزرين بصوتٍ مستسلم قليلاً.

كنتُ مصدوماً مُجدداً بطولهما الذي كان بالفعل صغيراً جداً! لم يكونا في الحقيقة أكبر من الأقزام بالكثير، ولكن جسميهما كانا متناسقين في الوقت الذي كان يراودني فيه الإحساس أن هذه الأقزام لا بد وأن تكون مُتخلفة عقلياً قليلاً.

كنتُ سأسأل عن عدد الألوان لأستنتج من ذلك عدد الشيوخ على الجزيرة، ولكنني تخليتُ عن هذا السؤال لأطرح واحداً آخر:

- ما اسم الشيخ الأعظم؟

تبادلا النظرات من جديد وهزَّا رأسيهما.

- هل تعتقد أنه يسخر منا؟ سأل الرجل ذو الزرين.
- لا أعرف، أجاب ذاك ذو الثلاثة أزرار، ولكننا مجبران على إجابته.

اصطاد ذو الزرين ذبابة كانت قد حطت على خده المُمتلئ وقال:

- القاعدة هي أن شيخاً أسود يضرب شيخاً أحمر، ولكن يحصل أيضاً أن يكون لشيخ أحمر الحق في طعن شيخ أسود.

- ولكن كل هذا وحشيّ!
- وماذا تريد ، هذه هي القواعد .

سمعنا فجأةً من بعيد صوت أشياء تتكسر : كان يُمكن القول أنه صوت تشظي زجاج .

التفتَ القزمان باتجاه الصوت ، وقال ذو الزرين :

- أي غباء ، لقد حطّموا أكثر من نصف ما صنعوه!

كان عندي الوقت لأقوم باكتشافٍ مُقلِق بينما كانا يديران لي ظهريهما : كان هناك إشارتا سبات مرسومتين على ظهر ذاك الذي لديه زران على سترته ، بينما كان على ظهر الآخر ثلاثة منها . لقد كانا بالضبط كتلك الشخصيات التي نجدها على أوراق اللعب! وجدتُ في الوقت نفسه أن كل تلك المحادثة التي أجريتها معهما للتو لم تكن خالية من كل معنى .

وعندما واجهاني من جديد قررتُ أن أبدأ معهما تكتيكاً جديداً فسألت :

- هل أنتم كُثُر هنا على الجزيرة؟

لكن بدا أن هذا السؤال قد أغرقهما في حيص بيص .

- ما الذي يجعله يطرح علينا كل هذه الأسئلة؟ سأل أحدهما .
- نعم هو لا تنقصه الوقاحة ، أجاب الآخر .

وجدتُ أن تلك المُحادثة كانت أسوء مما لو لم نفهم بعضنا بعضاً أبداً ، فعلى الرغم من أنني فهمتُ كل كلمة قيلت فقد كان من المستحيل عليَّ أن أفهم المعنى ، ربما كان من الأفضل لنا لو أننا تحدثنا بالإشارات .

ولأن صبري بدأ ينفد فقد جازفتُ بالسؤال مرَّة أُخرى :

- كم عددُكم؟

- أنتَ ترى جيداً أننا *اثنان وثلاثة* وإذا كان يلزمك نظّارات فما عليك إلا أن تتحدث في ذلك إلى فرود لأنه الوحيد الذي يجيد فن صقل الزجاج. أجاب ذلك الذي لديه ثلاث إشارات سبات على ظهره.

- ولكن كم أنتَ في حقيقة الأمر؟ سأل الآخر.

- ها!؟ ولكنني واحدٌ فقط! قلتُ.

- *الآس*! قال مُتعجباً.

- لقد خسرنا إذن فهو يمكن له أن يصارع حتى *الشيخ*، أجاب الآخر وهو في غاية الارتباك.

أخرج قارورةً من جيبه الداخلي وشرب دهقةً طويلةً من مشروب متلألئ قبل أن يمررها إلى الآخر الذي شرب منها هو أيضاً.

- ولكن أليست *الآس* بنت؟ هتف ذاك الذي لديه ثلاثة أزرار.

- ليس من الضروري. لا توجد إلا *البنت* والتي هي دائماً بنت، ربما جاء من لعبة ورقٍ أُخرى، أجاب الآخر.

- مُحال. لا يوجد شيء من هذا *والآس* هي بنت.

- ربما يكون الحق معك، ولكن يجب أن يكون لديه أربعة أزرار حتى يكسبنا.

- نحن نعم، ولكن ليس *شيخنا*. هذا واضح. إنه يريد أن يجعل منا حمقاوين!

استمرا بإفراغ القارورة الصغيرة وأخذت عيناهما تضطربان وتفرغان شيئاً فشيئاً وفي لحظة اجتاح اهتزاز عنيف جسد ذو الزرين فنظر في عينيَّ بثباتٍ وقال:

- ليست السمكة الحمراء مَن سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى.

ثم استلقيا كليهما على الأرض وتمتما كلٌ لوحده بطريقة عشوائيَّة: « راوند... منغا... عنب للاستشفاء... بَلح... ليمون... هونيا... شوكا... جوز الهند... موز...»

ذكرا أيضاً المزيد من أسماء الفواكه الأُخرى ومن أنواع العنب والتي كان معظمها غير معروف بالنسبة لي وانتهيا بأن استراحا على ظهريهما وناما على الفور.

حاولت تحريكهما بركلي إياهما بعض الركلات ولكنهما لم يتحركا قيد أنملة.

أتذكر أنني قلتُ لنفسي وأنا متروكٌ لحالي من جديد إن الجزيرة لا بد وأن تكون مُقتصِرة على المُعاقين عقلياً والذين لا أمل من شفائهم ولا بد أن الرجلين قد شربا نوعاً من المُهدئات، وإن كان الحال كذلك فلن أتأخر عن رؤية أحد المُمرِّضين الذي سيلومني لإثارتي المرضى.

عُدتُ أدراجي فرأيتُ رجلاً صغيراً يمشي مسرعاً في اتجاهي، هو أيضاً كانت بَشَرَةُ وجهه لامعة وداكنة كما كان يرتدي هو كذلك نفس البذلة الزرقاء الغامقة إلا أن سترته كانت تحتوي على صفين من الأزرار بحيث يكون فيهما مجموع عدد الأزرار هو عشرة.

ألقى عليَّ نظرةً عابرة وصاح وهو يلوِّح بكامل ذراعيه:

- عندما ينام السِّيد يحيا الأقزام حياتهم الخاصة.

مجنونٌ آخر. فكرتُ.

أشرتُ له بإصبعي إلى الشخصين الآخرين اللذين ناما على مسافةٍ قريبةٍ وقلت:

- بوسعنا القول: لقد ناما أخيراً. جَعَلَتْهُ هذه الكلمات القليلة يفُرُّ هارباً.

كان يركض بالسرعة التي كانت تسمح له بها رجلاه الصغيرتان، ولكنه لم يكن بالكاد يتقدم إذ لم يتوقف عن السقوط، كان رأسه يهبط أولاً ثم ينهض من جديد. كان لدي متسعٌ من الوقت لأعُدَّ إشارات السبات العشر المُكررة على ظهره.

ثم وجدتُ ممراً ضيقاً وسالكاً ما أن وصلتُ بالكاد إلى آخره حتى سمعتُ ورائي هديراً رهيباً يشبه هزيم الرعد كان يمكن القول إن خيولاً تعدو ستظهر بين فينةٍ وأُخرى. قمتُ بالارتداد إلى الخلف بشكلٍ مُفاجئ وقفزتُ على جنبي.

لقد كانت تلك الحيوانات ذوات القوائم الست والتي كنتُ قد رأيتها من قبل. كان هناك فارسان صغيران يمتطيان صهوة اثنين منها وخلفهم كان يجري قزمٌ صغيرٌ ملوحاً بعصا طويلة. كان الثلاثة يرتدون البذلة الزرقاء الغامقة نفسها بأزرار سوداء عددها على التوالي: أربعة، ستة، ثمانية.

- توقفوا. صرختُ بهم عندما أصبحوا قريبين مني.

وحده القزم الذي كان راجلاً خفف سرعته واستدار، لقد كان صاحب الثمانية أزرار على سترته، ثم قال وهو بغاية الاستثارة:

- بعد اثنتين وخمسين سنة يصل حفيد الغريق إلى القرية.

في اللحظة التالية كان القزمان الآخران والحيوانات ذوات القوائم الست قد اختفوا كما السحر. كان لدي الوقت فقط لألاحظ أن عدد الأزرار على سترات الأقزام يساوي تماماً عدد إشارات السبات على ظهورهم.

كانت شجرات النخيل النابتة على جانبي الطريق تحملُ في أعاليها عناقيد سمينة من فواكه صفراء بحجم التُّفاح. في أسفل إحدى الشجرات كانت تنتظر عربة مملوءة إلى نصفها بتلك الفاكهة الصفراء.

ذكَّرَتني تلك العربة بعربة والدي ذات الدولابين والتي كان يستخدمها لنقل خبزه إلى لوبك. الفارق الوحيد بينهما هو أن هذه العربة ليست مربوطة إلى حصانٍ عادي ولكن إلى أحد تلك الحيوانات ذوات القوائم الست.

وعند اقترابي من تلك العربة لمحتُ قزماً يجلس تحت الشجرة. كان لدي متسعٌ من الوقت لأُقَدِّرَ، قبل أن يلاحظ حضوري، أن سترته تَعُدُ صفاً واحداً من خمسة أزرار ولولا هذا فلا شيء كان يُمَكِّنُ من تمييز بذلته عن تلك التي للأقزام الأُخرى. لكل الأقزام الذين صادفتهم حتى الآن جمجمةٌ تامة الاستدارة مغطاة بشعرٍ كثٍّ أسمر.

- صباح الخير يا خمسة السبات، ألقيتُ التحية.

- صبا...

توقف عن الكلام في منتصف العبارة تماماً وبقي هناك يحدق بي بصمت، ثم انتهى بالقول:

- استدر.

أذعنت لطلبه ولما واجهته من جديد كان يهرش رأسه بإصبعيه المُمتلئين.

- هذا مُعَقَد! تمتمَ وهو يباعد ما بين ذراعيه.

في اللحظة التالية رُميتْ ثمرتان من أعلى إحدى شجرات النخيل. هبطتِ الأولى على ركبة خمسة السبات وأخطأت الثانية رأسي.

لم أُدهش كثيراً لرؤية سبعة وتسعة السبات يهبطان* من الشجرة. لقد اكتمل العدد، فكّرتُ، بعد أن رأيتُ كل السبات واحداً واحداً من الزوج حتى العشرة.

- حاولنا جهدنا ضربه بالشوكا، هتف سبعة السبات.
- ولكنه تفادى الضربة في اللحظة الأخيرة، تابع الآخر.
- طيب حسنٌ، قلتُ. إنني سأعذركم جميعاً مقابل أن تجيبوا على سؤال بسيط جداً وإلا فإنني سأقصف رقابكم أنتم الثلاثة. هل هذا واضح؟

لقد جعلهم اقتراحي خائفين بما يكفي لأن يبقوا جالسين تحت الشجرة بصمت. نظرتُ في عيونهم واحداً واحداً ثم قلت:

- والآن، مَنْ أنتم؟

بهذه الكلمات نهضوا واحداً بعد الآخر ورتّل كل واحد منهم جملته البلهاء:

- يُخفي الفرّان كنوز الجزيرة المسحورة، ألقى خمسة السبات.
- الحقيقة موجودة في أوراق اللعب، قال سبعة السبات.
- جوكر واحد فقط في لعبة الورق سيفضح السرَّ يوماً، قال تسعة السبات في النهاية.

هززتُ رأسي أسفاً وقلت:

- شكراً على هذه التوضيحات، ولكن من أنتم؟

---

* التذكير والتأنيث بالنسبة لأوراق اللعب يتبع التذكير والتأنيث في الرواية وبما أن سبعة وتسعة سبات من الذكور فقد قلنا (يهبطان).

- سبات. أجاب خمسة السبات بشكلٍ جافٍ جداً إذ يبدو أنه قد حمل تهديدي على محمل الجد.

- هذا قد فهمته، شكراً. ولكن مِن أين أتيتُم أنتم؟ هل سقطتم من السماء أو أنكم خرجتم من الأرض مثل كل زهور النفل*؟

تبادلوا بعض النظرات القصيرة ثم بدأ تسعة السبات بالكلام:

- نحن قادمون من القرية.

- حقاً! وكم عدد كم أيها الصغار.. هل تسكن السنافر هناك؟

- لا أحد، أقصد إلا نحن، ولكن لا أحد يشبه الآخر تماماً، أجاب سبعة السبات.

- بالتأكيد بل إن العكس هو ما قد يُفاجئ، ولكن حسناً كم عدد جميع مَن يسكن هذه الجزيرة؟

نظروا إلى بعضهم البعض من جديد ثم قال تسعة السبات:

- هيا، فلنكسب.

- ولكن هل لنا الحق في أن نكسبه؟ سأل سبعة السبات.

- قصدتُ فلنكسب أنفسنا ونولي الأدبار.

بهذه الكلمات قفزوا إلى العربة وضرب أحدهم ظَهر الحيوان الأبيض الذي أخذ يعدو بالسرعة التي تمكنه منها قوائمه الست.

لم أكن قد شعرتُ من قبل بمثل مشاعر العجز تلك. كان بإمكاني بالتأكيد إيقافهم كما كان بإمكاني أن أقصف رقابهم، ولكن ذلك ما كان ليغير شيئاً.

* في بعض اللغات الأجنبية يعني السبات زهر النفل وهو عشبة مؤلفة من ثلاث ورقات هي شكل ورقات السبات. المترجم.

زوج السبات

لوَّحَ فجأة بتذكرتي سَفَر.....

كانت أول فكرة راودتني عندما استيقظتُ في الغرفة الصغيرة في ذلك الفندق في البندقية تخصُ هانس الفرَّان الذي قابل أولئك الأقزام العجيبين على الجزيرة المسحورة. أخرجتُ العدسة و*كتاب* فطيرة الحلوى من سروالي الملقى أسفل سريري، ولكن وفي نفس اللحظة التي كنتُ أتهيأ فيها لإشعال الضوء من أجل القراءة أطلق والدي زمجرةً تشبه زئير الأسد واستيقظ فجأة مثلما نام فجأة.

- نهارٌ كاملٌ في البندقيّة، قال وهو يتثاءب.

وفي اللحظة التالية كان ينتصب واقفاً.

كنتُ مُجبراً على إخفاء *الكتاب* تحت اللحاف إذ لم أكن قد نسيتُ الوعد المقطوع : بأن تظل كل القصة المُسَجَلة في طياته سِراً بيني وبين فرَّان دورف العجوز.

- هل تلعبُ لعبة الاختباء؟ سألني والدي حين كنتُ قد وضعتُ للتو مباشرةً *كتاب* الفطيرة في جيب سروالي ورفعتُ رأسي من تحت اللحاف. فأجبت :

- إنني أنظر ما إن كان هناك صراصير.
- وهل تحتاج إلى عدسة مُكبرة من أجل هذا؟
- من الممكن جداً أن يكون لديهم أطفال، قلتُ.

كان هذا جواباً أحمق ولكن مع تلك العجالة فإن هذا هو كل ما خطر على بالي. أضفتُ من أجل السلامة :

- من جهةٍ أُخرى، من يدري ما إن كان هناك صراصير أقزام في الأسفل؟
- لا أحد يعرف؟ قال والدي قبل أن يختفي في الحمَّام.

كان الفندق الذي نزلنا فيه عادياً جداً حتى فطور الصباح لم يكن يُقَدَم فيه، ولكن لم يكن لهذا أية أهمية فذلك المقهى الصغير اللطيف الذي عرفناه قبلاً في المدينة كان يُقدِّم فطوراً ما بين الثامنة والحادية عشرة.

كان يوجد قلةٌ من الناس على *القناة الكبيرة* وعلى الأرصفة العريضة التي تحاذيها.

طلبنا عصير البرتقال والعجة وخبزاً مُحَمَصاً ومربى البرتقال. لقد كان هذا الفطور هو الوحيد عبر كل تلك الرحلة الذي خرق القاعدة التي تقول: إن لا شيء يعادل فطور المنزل.

بعد منتصف الوجبة كان لدى والدي مُجدداً واحدة من لمعاته العبقريَّة. أصبحتْ نظرته ثابتة فظننتُ أنه قد شاهد للتو انبثاق القزم الشهير من جديد، ولكنه اكتفى بالقول:

- ابقَ جالساً يا هانس- توماس سأعود خلال خمس دقائق.

لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما كان سيفعل ولكنني كنتُ أعرف أن هذا كان يحدث له من وقتٍ لآخر. عندما يكون لدى والدي فكرة فلا شيء يمكن له أن يمنعه.

اختفى خلف بابٍ زجاجي في الجهة الأُخرى من الساحة وعندما ظهر من جديد أنهى عجته بهدوء من دون أن يقول كلمة واحدة ثم أشار بإصبعه إلى المحل الذي جاء منه وسألني:

- ماذا تقرأ على اللافتة هناك يا هانس- توماس؟
- سارتاب- انوكنا، قرأتُ بالمقلوب.

- انكونا- باتراس، نعم.

بلل قطعة من الخبز المحمص ودسها في فمه. من جهةٍ أخرى كان يجد الكثير من الصعوبةً لإدخال كل ذلك الطعام في فمه لأنه كان يبتسم ابتسامةً عريضة من الأذن إلى الأذن.

- نعم. وماذا في ذلك؟ سألته.

كان هذان الاسمان بالنسبة لي كما لو أنهما باللغة العبريَّة بحيثُ يستوي لديَّ قراءتهما بشكلٍ سويٍ أو معكوس.

نظر إليَّ مباشرةً وقال:

- من الواضح أنك لم تركب البحر أبداً. أنتَ لم تبحر أبداً عبر العالَم.

لوَّحَ فجأةً بتذكرتي سَفَر أمام عينيَّ وتابع:

- أنتَ لا تستطيع أن تطلب من بَحَّار قديم أن *يلتف بالسَّيارة* على البحر الأدرياتيكي. لقد طفح بنا الكيل من الزحف مثل السرطانات على سطح القارّة الأوروبيَّة. سنضع سيارة الفيات على ظهر مركبٍ كبيرٍ ونمضي إلى ميناء باتراس على الشاطئ الغربي لبيلوبونيز ومن هناك لن يبقَ لنا سوى بضعة عشرات الكيلومترات حتى أثينا.

- هل أنتَ مُتأكد؟ سألته.

- قسماً أقول لك هذا!

لا بد انه كان سعيداً جداً لأن يجد البحر من جديد حتى يحلف بهذا الشكل.

وهكذا لم نقضِ حتى نهاراً كاملاً في البندقية لأن العَبّارة المُتجهة إلى اليونان كانت ستغادر من انكون في المساء نفسه وهذا يُمَثّلُ أيضاً ثلاثمئة كيلومتر تقريباً.

الشيء الوحيد الذي رغب والدي في رؤيته، قبل أن يعود إلى خلف مقود السيّارة، هو فن نفخ الزجاج المشهور جداً في البندقية.

يتطلب تمييع الزجاج أفراناً مفتوحةً كما يجب الأخذ بالحسبان خطر النار المُلتهبة، لذلك فقد كان لدى أهالي البندقية ومنذ بداية العصور الوسطى فكرة نقل صناعة الزجاج إلى الجُزر التي تقع خارج المدينة، وفي أيامنا هذه فإن هذه الصناعة تتركز في جزيرة مورانو. أصرَّ والدي على المرور بتلك الجزيرة قبل الرجوع إلى الكراج فكان علينا فقط أن نأخذ الأمتعة من الفندق.

في مورانو ذهبنا أولاً إلى المُتحف الذي يعرض تطور العمل في صناعة الزجاج عبر العصور فرأينا هناك صناعة الزجاج القديمة بكل الأشكال والأنواع، ثم قمنا بزيارة منفخ تُصنع فيه الدوارق والأكواب على مرأى من السُّياح. كانت الأشياء التي تم الانتهاء منها معروضة للبيع، ولكن والدي قدَّر، ولأسباب ماليَّة، أن نترك هذا الجزء لزيارة الأميركيين الأغنياء.

من جزيرة نافخي الزجاج أخذنا مركباً بخارياً حتى الكراج وما أن أصبحت الساعة الواحدة من بعد الظُهر حتى كنا من جديد على الأوتوروت المؤدي إلى انكون والتي تقع على مسافة ثلاثمئة كيلومتر جنوب البندقيَّة.

كان الطريق يمتدُ بمحاذاة الشاطئ الأدرياتيكي فكان والدي يُصَفِّر فرحاً إذ بلغتْ سعادته الحد الأقصى لتمكنه من تأمل بحره المعشوق.

في بعض الأحيان كان الطريق يصعد مُتسلقاً حيث كنا نحصل على إطلالات رائعة فتوقف أبي وأخذ يُعلق على كل المراكب الشراعيَّة وسفن الشحن التي تمكن من رؤيتها.

حدثني في السيارة من جديد عن ماضي ارندل البحريّ الذي كنتُ أجهله وذكر لي خليطاً من أسماء المراكب الشراعية الكبيرة وأزمنتها كذلك. هكذا شرح لي الفارق بين سفينة الصيد وبين السفينة ذات الصاريتين وتلك ذات الثلاث صواري والأُخرى ذات الأربعة صواري. سمعتُ ولأول مرَّة عن المراكب الأولى التي غادرت إلى أميركا وإلى خليج المكسيك. أخبرني أن أول مركب بخاري زار النرويج كان قد رسا في ارندل. لقد كان مركباً شراعياً قديماً مُجهزاً بمحركٍ بخاري وبدولابٍ لتحريك المياه وقد كان يدعى *سافانا*.

كان والدي قد أبحر على متن سفينة بترولية مصنوعة في هامبورغ تعود إلى المُصَنِّع كوهنل من بيرغن.

- إن مركباً بوزنٍ إجمالي يزيد عن ثمانين ألف طن يستلزم طاقماً من أربعين رجُلاً وفي أيامنا هذه فإن المراكب البتروليَّة هي أضخم بكثير، ولكن عدد الطاقم يتضاءل غالباً ليصل من ثمانية إلى عشرة رجال. وهذه كله ليس إلا بفعل الآلات والتقنية، لقد فقدتِ الحياة في البحر شيئاً من أسطورتها. أُحبُ التحدث عن *الحياة* الحقيقيَّة في البحر. في القرن القادم لن يكون هناك أكثر من شريط ممغنط الكتروني للبلهاء الذين سيفعلون كل الأشياء عبر جهاز تحكم من البر.

إذا كنتُ قد تابعتُ جيداً حُجج والدي فإنه ومع نهاية عهد القوارب الشراعيَّة منذ مئة وخمسين سنة فإن الحياة الحقيقيَّة في البحر لم تعد إلا مجرد حُلم.

بينما كان والدي يروي لي عن حياته أخرجتُ لعبة الورق التي لديَّ وأخذتُ منها كل أوراق السبات من الزوج حتى العشرة ووضعتها إلى جانبي على المقعد الخلفي.

لماذا كان لكل الأقزام على الجزيرة المسحورة إشارات سبات على ظهورهم؟ من كانوا ومن أين جاؤوا؟ هل سينتهي هانس الفرّان بإيجاد أحدٍ ما يستطيع التحدث معه فعلياً عن تلك الجزيرة التي رسا عليها؟ كانت روحي تغلي بسبب كل تلك الأسئلة التي لا جواب لها.

لكن زوج السبات قد قال شيئاً ما بقي في رأسي: «*ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى.*» هل كان يريد الحديث عن سمكة فرّان دورف الحمراء؟ وفطيرة الحلوى هل كانت هي تلك التي حصلتُ عليها في دورف؟ لقد قال خمسة السبات: «*إن الفرّان يُخفي كنوز الجزيرة المسحورة.*» ولكن كيف كان للأقزام الذين قابلهم هانس الفرّان في منتصف القرن الماضي أن يكونوا على علمٍ بالأمر؟

على امتداد عشرات الكيلومترات الكاملة كان والدي يدندن أغانٍ مُكرَّرة كان قد تعلمها في الزمن الذي كان فيه بَحّاراً. استفدتُ من هذا بأن أخرجتُ بحذر كتاب فطيرة الحلوى وواصلتُ قراءتي.

ثلاثة السبات

ليس كمثل أي سبات....

بقيتُ أسير في الاتجاه الذي فرَّ منه الرجال الصغار الثلاثة على العربة. كان الدرب يتعرج بين أشجار عالية مورقة وكان الضوء القوي لشمس ما بعد الظهيرة يجعل الأوراق تلمع.

في فُرجةٍ مُضيئةٍ اكتشفتُ منزلاً خشبياً كبيراً ودخاناً أسود يتصاعد من مدخنتين. تبيَّنتُ من بعيد شيئاً كالطيفِ الزهريّ كان يتنقل في المنزل.

كان ينقص ذلك المنزل الخشبيّ جدارٌ خارجيّ وكان ما رأيته في المنزل قد أذهلني تماماً حتى أنه توجب عليَّ أن استند إلى شجرة لكي لا أفقد توازني: حُجرةٌ ضخمةٌ بدون أي قاطع كانت تحجب شيئاً يشبه المعمل. لم يكن يلزمني وقتٌ طويلٌ لأفهم بأن ذلك يعني مصنعاً للزجاج.

كان السقف يستند إلى جسورٍ عريضة. فوق ثلاثة أو أربعة مواقد حطبية كانت تقوم أحواضٌ ضخمة مصنوعة من الحجارة البيضاء ينفذ منها بخار كثيف وتنشط حولها ثلاث نساءٍ صغيراتٍ يلبسن ملابس زهريَّة كان لهن جميعاً نفس طول الرجال الصغار الآخرين. كن يغطسن قصبة طويلة في السائل المنصهر داخل الأحواض ويصنعن بالنفخ فيه أشكالاً لا حصر لها. في إحدى زوايا الحجرة كانت توجد كومة كبيرة من الرمل وفي زاوية أُخرى كانت تنتظم كل الأواني الزُجاجيَّة الجاهزة في رفوف على طول الحائط. في مُنتصف الحجرة تماماً كان ينهض هرمٌ بارتفاع متر مُكوَّن من حُطام قناني وكؤوس وأكواب.

سألتُ نفسي مُجدداً: في أي بلدٍ غريبٍ وقعتُ، إذ عدى عن ارتدائهم البدلات العجيبة فقد كان من الممكن أيضاً أن يكون هؤلاء الناس الصغار يعيشون في العصر الحجريّ وهذا ما يتجلى في إتقانهم لفن نفخ الزجاج.

كانت النساء اللواتي يشتغلن في مصنع الزجاج الخشبيّ يرتدين فساتين زهريَّة فاتحة. كن ذوات بشرةٌ بيضاء تقريباً وشعرٌ طويل فضيّ ومُشعث.

ما أرعبني كثيراً هو أن كل الفساتين كانت تحمل إشارات ديناري عند الصدر تماماً كإشارات الديناري التي نجدها على أوراق اللعب. كانت لدى إحداهن ثلاث إشارات ولدى الثانية سبع ولدى الثالثة تسع. الفارق الوحيد مع الديناري في ورق اللعب هو أن لإشاراتها انعكاساً فضياً.

كانت النساء الثلاث مُنهمكاتٍ جداً بنفخ الزجاج فلم يلحظن حضوري مع أنني كنتُ أقف أمام الجدار الناقص. كُنَّ يُحرِّكن أذرعهن جيئةً وذهاباً بتلك الأريحيَّة التي يبدينها والخفيفة خفة الهواء. وما كان لي أن أُدهش أبداً لو رأيتُ إحداهن وقد طارت حتى السقف.

وفجأةً انتبهت إحداهن لوجودي كانت تلك التي على صدرها سبعة ديناري. ترددتُ لثانية في الهرب ولكنها أسقطتْ كوب الزجاج الذي كانت تحمله بيدها إذ أنها كانت مُضطربة جداً لرؤيتي. كان الأوان قد فات لأفكر بالانسحاب إذ أن الاثنتين الأخريين هرعتا على صوت تحطم الزجاج ونظرتا إليَّ بثبات.

دخلتُ وأنا أنحني باحترام وسلمتُ عليهن بالألمانيَّة. نظرن إلى بعضهن البعض نظرة تفاهم وافترن عن ابتسامة عريضة كاشفاتٍ بذلك عن أسنانٍ بيضاء أخذت تلمع على سنا الأفران المتقدة. تقدمتُ نحوهن وتحلقن هُن في دائرةٍ حولي.

- أتمنى أنني لا أضايقكن.

تبادلن من جديد نظرات وابتسامات أكثر جمالاً. كانت عيونهن زرقاء غامقة وقد كان يبدو أنهن ينتمين بشكلٍ قاطع إلى العائلة نفسها، ومن يعلم إذا ما كُنَّ شقيقات؟

- هل تفهمن عندما أتكلم؟

- نحن نفهم كل الكلمات العاديَّة، صاحت ثلاثة الديناري بصوتٍ يشبه صوت اللُعبة.

ثم انطلقن جميعاً يتحدثن في الوقت نفسه حتى أن اثنتين منهن انحنيتا لي وانتهت تسعة الديناري إلى أن أخذتْ بيدي. انتبهتُ إلى أن تلك اليد الصغيرة جداً كانت مُتجلِّدة، في حين كان يمكن للطقس أن يكون أي شيء إلا بارداً في مصنع الزجاج ذاك.

- أنتن تنفخن الزجاج بشكلٍ جيدٍ جداً! قلتُ.

فانفجرن ثلاثتهن بالضحك.

من دون أدنى شك كانت نافخات الزجاج أولئك أكثر لطفاً بما لا يُقاس من أولئك الرجال الصغار النزقين لكن التفاهم معهن بقي عصياً.

- ولكن من علمكن فن نفخ الزجاج إذن؟ واصلتُ.

كان يبدو لي في الحقيقة أنه من غير الممكن التصور أنهن قد اكتشفنه بأنفسهن. لم تجبني ولا واحدة منهن ولكن سبعة الديناري ذهبتْ لتأخذ قصعة كبيرة من الرمل من على أحد الرفوف وأعطتني إياها قائلةً:

- أرجوك.

وهنا انطلقن بضحكة عالية من جديد.

ليس من السهل في سياق أحداث كتلك أن أحقق تقدماً في المسائل التي كانت تشغلني، ولكنني شعرتُ أنني إذا لم أدرك مباشرةً الصلة التي تربطهن بأولئك الأقزام فإنني سأغدو مجنوناً. فتابعتُ:

- لقد رسوتُ على الجزيرة منذ قليل، ولكن ليس لديَّ أدنى فكرة عن المكان الذي أجد نفسي فيه. هل تستطعن أن تنورنني قليلاً حول هذا الموضوع؟

- نحن لا نستطيع التكلم....قالت سبعة الديناري.

- وهل يمنعكن أحدٌ ما من الكلام؟

هززن رؤوسهن هن الثلاثة جاعلاتٍ شعرهن الفضيّ يلمع على وهج الأفران. ثم قالت تسعة الديناري:

- نحن نعرف جيداً فن نفخ الزجاج، ولكننا لا نجيد فن التفكير بالقدر نفسه كما أننا لا نعرف أن نتكلم بشكلٍ جيد.

- لستن في هذه الحالة إذن كمثل أي سبات، قلتُ. الأمر الذي جعلهن ينفجرن ضاحكاتٍ من جديد.

- نحن لسنا سبات، ألا ترى بأننا ديناري؟! احتجَّت سبعة الديناري مظهرةً ثوبها.

- أيتها الـ....، أفلتت مني هذه الكلمات مثيرةً حالةً عامةً من الذهول فقالت ثلاثة الديناري:

- ليس لك أن تغضب، إذ أن أدنى شيء يجعلنا حزينات وبائسات.

لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ تصديقهن أم لا. ثم أظهرن ابتسامة جذابة جداً في حين أنني ظننت أنه يتوجب عليَّ أن أفعل أكثر من ذلك لكي أغيظهن، ولكنني لم أكن قد نسيت بعد كلامهن فسألت:

- أليس ثمة شيءٌ في أذهانكن حقاً كما تدَّعين؟

وافقن على ذلك بشكل جد احتفاليّ، ثم بدأت تسعة الديناري بالقول:

- أتمنى كثيراً لو....

ولكنها وضعت يدها سريعاً أمام فمها وخرست.

- إذن؟ سألتُ بصوتٍ وديٍ.

- لكم تمنيتُ لو ...استطعتُ أن أُفكر في فكرة واحدة صعبة جداً أصعب من أن أفكر فيها، ولكنني لا أستطيع أن أنجح في هذا...

بقيتُ للحظة أُفكر فبدا لي أنها ليست وحدها من لديه هذا النوع من الصعوبة. فجأةً انفجرتْ إحداهن مُنتحبة، لقد كانت ثلاثة الديناري. كانت تجهش قائلةً:

- أتمنى.....

لفّتْ تسعة الديناري ذراعها حولها بينما تابعتْ هي:

- أتمنى كثيراً لو أنني أستيقظ.....، ولكنني مُستيقظة.

لقد عبَّرتْ لتوها عما كنتُ أشعر به تماماً أنا نفسي.

رفعتْ سبعة الديناري عينيها نحوي وتلفظت كما لو كانت غائبة بأكثر ما تكون عليه الجديَّة:

- *الحقيقة هي أن ابن معلم صناعة الزجاج لم يشأ أن يؤمن بقوة مُخيلته.*

ثم من دون أن يكون هناك مزيد من الوقت أخذن بالنشيج ثلاثتهن.

حملتْ إحداهن دورقاً زجاجياً وكسرته طوعاً ألف كسرة ونتفت أُخرى خصلاتٍ من شعرها الفضيِّ ...ففهمتُ أن موعد زيارتي كان قد انتهى.

- العذر مرة أُخرى على إزعاجكن. إلى اللقاء، اكتفيتُ بالقول.

من حينها صار عندي قناعة ثابتة أنني قد وقعتُ على نوعٍ من المصحات لمراقبة أصحاب الضعف العقليّ وكنتُ أنتظر في كل لحظة رؤية ممرضين يظهرون بقمصان بيضاء ليسألونني عما جئت أفعل على تلك الجزيرة فأشعتُ الرعب في قلوب مرضاهم.

هذا يعني أن هناك عدة أسئلة كانت تحيرني وأولها كان طول سكان تلك الجزيرة. لقد تَرَحَّلتُ كثيراً بوصفي بَحَّاراً وكنتُ أعرف أنه لا يوجد أُناس بهذا الصِّغر في أي بلدٍ في العالَم، فضلاً عن لون البشرة للأقزام الصغار ونافخات الزجاج كان مختلفاً تماماً... وبالنتيجة فلا يمكن لأيٍ منهما أن ينتسب للآخر.

هل كان هذا مؤشراً على أن وباءً قد اجتاح البشريَّة فجعل الناس أصغر حجماً وأشدَّ غباءً في الوقت نفسه وأنه قد تم نفي الناس الذين أُصيبوا إلى هذه الجزيرة لتلافي العدوى؟ إذا كان الأمر كذلك فإنني سأصبح قريباً بدوري بمثل قِصَرِهم وغبائهم.

شيءٌ آخر لم أفهمه، وهو ذلك التقسيم إلى سبات وديناري كما هو الحال في أوراق اللعب. أكان ذلك مجرد اختراع قام به الأطباء والمُمرضون ليسهل عليهم مراقبة مرضاهم؟

إذن سلكتُ من جديد ذلك الطريق الذي أخذ يتعرج حينها عبر أكمةٍ عالية. كانت التربة مغطاة بسجادةٍ من الطحلب الأخضر الفاتح ومنثورةً بأزهار زرقاء صغيرة تُذكِّر بزهور أُذن الفأر. لم تكن الشمس تصل إلا إلى أعلى القمم وكانت الأغصان تشكل في أعلى المشهد شيئاً يشبه عرشاً ذهبياً.

لمحتُ في إحدى اللحظات طيف شعرٍ أشقر يتجول ما بين الأشجار. لقد كانت امرأة نحيلة بشعرٍ طويلٍ صافٍ. كانت ترتدي ثوباً أصفر ولم تكن أطول

من أقزام الجزيرة الآخرين بالكثير. كانت تنحني من وقتٍ لآخر لتقطف بعض الأزهار الزرقاء، فتبينتُ أن لديها قلباً كبيراً أحمر قانياً على ظهرها. وعند اقترابي منها سمعتها تُدندن بصوتٍ كئيب.

همستُ لما أصبحتُ قريباً منها بما يكفي:

- صباح الخير.

- صباح النور، ردتْ التحية وهي تنهض بشكلٍ طبيعي كما لو أننا كنا صديقين عتيقين.

كانت في غاية الفتنة حتى أنني لم أعرف أين أودع عيني، ولكنني نجحتُ بالقول:

- أنتِ تُغنين بشكلٍ جميلٍ جداً.

- شكراً...

مرَّرتُ يدي في شعري. فمنذ وصولي إلى الجزيرة كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أسأل فيها نفسي كيف كان يمكن أن أبدو فمنذ أكثر من أسبوع لم أحلق ذقني، ولكنها قالت:

- أظن أنني ضائعة.

ثم رمت رأسها الصغير إلى الخلف وبدتْ مُضطربة تماماً. سألتُها:

- ما اسمكِ؟

ترددتْ للحظة وبابتسامة صغيرة على شفاهها قالت:

- ألا ترى أنني آس الكُبة؟!

- بلى، ولكن...

توقفتُ هنيهةً قبل أن أتابع :

- هذا هو بالضبط ما أراه غريباً بعض الشيء .

- ولماذا؟

انحنتْ وقطفتْ وردة أُخرى وسألتْ :

- ولكن من أنتَ في الحقيقة؟

- اسمي هانس .

سكتتْ للحظة ثم قالت :

- هل تجد أن كوني آس الكُبة أكثر غرابة من كونك هانس؟!

لم أعرف بماذا أُجيب هذه المرأة .

- هانس؟ ردَّدتْ . أنا على يقينٍ أنني سمعتُ بهذا الاسم من قبل في مكانٍ ما، أو ربما حلمتُ به فقط ... إن كل هذا هو بعيدٌ جداً ....

قطفتْ وردة زرقاء وفجأةً أخذت شفتاها بالارتعاش كما في نوبات الصرع وتفوهت بـ :

- ***تحتوي العلبة الداخليَّة على العلبة الخارجيَّة كما تحتوي العلبة الخارجيَّة على العلبة الداخليَّة .***

عبارةٌ لا تعني شيئاً وبدا لي أنها لم تكن قد تلفظتْ بها بنفسها فقد كانت الكلمات تخرج من فمها بدون أن تفهم معناها . بعد أن استردتْ نفسها مباشرةً أشارت بإصبعها إلى سترتي البحريَّة وصاحت مُتعجبة :

- ولكنك لا تحمل أي إشـارةٍ تنم عنك؟

- هل تريدين القول إنني لا أحمل أي إشارةٍ خاصة على ظهري؟

أشارت بنعم برأسها قبل أن ترفعه بفخر وقالت :

- هل تعرف أنه ليس لك الحق في مقاتلتي؟
- أنا لا أقاتل بنتاً أبداً، قالت.
- هل تمزح؟ أنا لستُ بنت!

ابتسمتْ فرأيتُ غمازتين صغيرتين لطيفتين. كان جمالها ملائكياً يفوق الخيال. عندما ابتسمتْ لمعتْ عيناها كزمردتين فلم أستطع أن أرفع نظري عنها.

فجأةً أظلم وجهها وقالت بصوتٍ عالٍ وهي منفعلة:

- قل لي: أولا تنتمي أنتَ إلى لون مثلنا؟
- لا. لستُ إلا بَحَّاراً.

بهذه الكلمات اختفت خلف جذع شجرة حاولتُ جاهداً أن ألحق بها ولكن كانت كما لو أن الأرض ابتلعتها.

أربعة السبات

يانصيبٌ عملاق حيث وحدها الأرقام الرابحة هي المرئية.....

وضعتُ كتاب الفطيرة وأخذتُ أتأمل البحر.

إن الصفحات التي قرأتُها قد أثارت العديد من الأسئلة التي لم أعد أستطيع أن أرتبها في أفكاري.

كنتُ كلما تقدمتُ في قراءتي كلما أصبح أقزام الجزيرة أكثر غموضاً. لقد تعرَّفَ هانس الفرَّان حتى الآن على أقزام السبات والديناري كما قد قابل آس الكُبة ولكنها تبخرت سريعاً في الطبيعة.

من هؤلاء الأقزام؟ من كان سبب وجودهم؟ كيف ظهروا؟

كنتُ على يقين أن *كتاب* الفطيرة يحتوي الجواب على كل تساؤلاتي، غير أن إحدى التفصيلات كانت تحيرني على وجه الخصوص: لقد كانت قزمات الديناري موجوداتٍ في ذلك المصنع حيث كن ينفخن الزجاج، ولكن أولم أزُر أنا أيضاً منذ وقتٍ قصير أحد هذه المصانع لمعلمي صناعة الزجاج؟!

كنتُ أحدس أن هناك رابطاً بين رحلتي عبر أوروبا والقصة المرويَّة في *الكتاب*، ولكن ما قرأته كان ما رواه هانس الفرَّان لألبرت منذ وقتٍ طويلٍ جداً. أكان يمكن أن يكون هناك، رغم كل شيء، تصادفٌ غريب ما بين وجودي الشخصي على الأرض وبين ذلك السِّر العظيم الذي تقاسمه هانس الفرَّان وألبرت ولودفيغ؟

من كان ذلك الفرَّان العجوز الذي قابلته في دورف؟ من كان ذلك القزم الذي أعطاني العدسة المُكبرة والذي لم يتوقف عن رصد رحلتنا في أوروبا بدقة بظهوره المتكرر؟

كنتُ مقتنعاً بوجود صلةٍ بين الفرّان والقزم حتى ولو كانا يجهلان ذلك بأنفسهما. لم يكن باستطاعتي الحديث مع والدي عن *الكتاب* وعلى أي حال ليس قبل إنهائه. على الرغم من كل هذا فإن السفر مع فيلسوف لم يكن بالأمر المزعج.

كنا قد اجتزنا لتونا راقين عندما سألتُ:

- هل تؤمن بالتصادف يا أبي؟

نظر إليّ عبر المرآة العاكسة.

- ما إن كنتُ أومن بالتصادف؟

- نعم.

- ولكن التصادف بالتعريف شيء عارِض أو صدفة. عندما ربحتُ عشرة آلاف كورن في اليانصيب خرج رقمي من بين عشرات آلاف الأرقام الأُخرى. كنتُ فرحاً بالتأكيد لكوني رابحاً ولكن ذلك لم يكن إلا ضربة حظ لا أكثر ولا أقل.

- هل أنتَ مُتأكد من ذلك؟ هل حدثَ أن نسيتَ بأننا قد وجدنا في صباح ذلك اليوم نفسه زهرة نفل (trèfle*) ذات ورقاتٍ أربع؟ لو أننا لم نربح هذا المال ربما لم يكن من الميسور لنا السفر إلى أثينا.

صدر عنه شيء من التذمر، ولكنني واصلت:

- هل كان سفر عمتك إلى كريت واكتشافها صورة أُمي في مجلةٍ للموضة مجرد اتفاقٍ محض أو أن هذا هو بالضبط ما كان يجب أن يقع؟

- أنتَ تريد أن تعرف في الحقيقة ما إذا كنتُ أومن بالقدَر. أجابَ وهو راضٍ على ما اعتقدُ أن ابنه قد أخذ يهتم أخيراً بأسئلة ذات نسقٍ فلسفيّ. حسنٌ، جوابي هو لا.

فكّرتُ، بعد كل هذا الكلام، بنافخات الزجاج وبالمصنع الذي زرتُه مباشرةً قبل أن أقرأ ذلك المقطع عن المنزل الخشبي لصناعة الزجاج في *الكتاب*. فكّرتُ أيضاً بالقزم الذي أعطاني العدسة المُكبرة مباشرةً قبل حصولي على الكتاب ذي الحروف المجهريّة. كما قد تذكرتُ أيضاً ما كان قد حدث عندما انفجرتْ عَجَلَةُ دراجة جدتي في فرولاند وكل ما تبع ذلك، فقلتُ:

- لا أعتقد أن ميلادي كان ثمرة الصدفة.

---

* أذكّر بأن كلمة trèfle في الفرنسيّة تعني زهر النفل وورق السباتي بنفس الوقت. (المترجم).

- استراحة تدخين. أعلن والدي.

لا بُد أنني قلتُ شيئاً حرَّض السِّر الكامن في هذه العروض الصغيرة على الظهور مثلما نُخرج مُستنداً من عُمق الدُّرج.

ركن والدي السيارة على علوٍ أهدى لنا منظراً شاملاً خلاباً للبحر الأدرياتيكي.

- اجلس. أمرني ما أن خرجتُ مشيراً إلى حَجَرٍ كبيرٍ.

- ١٣٤٩. بدأ.

- الطاعون الأسود. قلتُ.

كنتُ أُسَلِّكُ نفسي بشكلٍ مقبولٍ في التاريخ، ولكنني لم أرَ أبداً العلاقة التي كان يمكن له أن يراها بين الطاعون والصدفة.

استمر في اندفاعه:

- حسنٌ. أنتَ تعرف بأن الطاعون الأسود قد أباد نصف سكان النرويج، ولكنني أريدُ أن أُخبركَ شيئاً ما حول هذا الموضوع لم أتكلم عنه أبداً من قبل.

مع مقدمةٍ كهذه عرفتُ بأنه يتوجبُ عليَّ الاستماع إلى محاضرةٍ طويلة.

تابَعَ:

- هل فكَّرتَ من قبل أن لديك آلاف الجدود؟

هززتُ رأسي إشارةً على العجز، إذ كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؟

- لدينا أبوان وأربعة جدود وثمانية جدود قبلهم وستة عشر قبلهم الخ.. وإذا رجعتَ إلى عام ١٣٤٩ سيكون لديك منهم رقمٌ هائل.

قبلتُ بهذا فواصَلَ:

- إذن فقد تفشى الطاعون فجأة وانتشر الموت من قرية إلى أُخرى وأصاب الأطفال على وجه الخصوص. في بعض العائلات لم ينجُ أحد وفي بعضها الآخر نجا واحد أو اثنان. أنتَ نفسك كان لديك العديد من الجدود في تلك الحقبة يا هانس- توماس، ولكن أحداً منهم لم يمت.

- وكيف يمكن لك أن تكون واثقاً جداً؟ سألته متحيراً.

سحب من سيجارته وقال:

- لأنك تجلس هنا وتراقب البحر الأدرياتيكي.

لقد نجح مرَّةً أُخرى في إفحامي. كنتُ أعرف أن لديه الحق إذ لو مات أحدُ أجدادي وهو طفل لما كان له أبداً أن يكون جدي.

- أن احتمال أن لا يموت أحد أجدادك خلال نموه هو واحد على مليارات ومليارات الاحتمالات، تابعَ.

بعد تلك اللحظة انساب أبي بكلامٍ متواصل:

- أنتَ ترى أن هذا لا يعني فقط الطاعون الأسود. الحقيقة هي أن كل جدودك قد كبروا وأنجبوا أولاداً رُغم مرور أسوء الكوارث الطبيعية. رغم فتراتٍ كانت فيها وفيات الأطفال عالية جداً. لاشك أن العديد منهم كان مريضاً لكنهم نجحوا دوماً أن ينجوا بأنفسهم. نظرةٌ من هذه الزاوية قد تمكننا من القول إنك قد قاربت الموت مئات آلاف المرَّات يا هانس- توماس. حياتك على هذا الكوكب كانت مُهَددة من قِبَل: الحشرات والحيوانات المتوحشة والنيازك والصواعق والأمراض والحروب والفيضانات والحرائق والسموم ومحاولات القتل. في حرب ستيكليستاد الشهيرة ربما قد تكون جُرِحتَ مئات

المرآت لأنه لا بد وأن كان لك أجداد لدى كلا الطرفين... نعم يجب تخيل أنك حاربتَ ضد نفسك، وأقصدُ بهذا ضد احتمالات ولادتك قبل ثلاثة قرون. كان هذا هو نفس السيناريو خلال الحرب العالميّة الأخيرة. لو قُتِل جدك على يد الوطنيين النرويجيين الصالحين خلال الاحتلال لا أنتَ ولا أنا كُنا قد وُجِدْنا. الشيء الخارق للعادة هو أن هذا قد تكرَّر مليارات المرّات عبر التاريخ. في كل مرَّة كانت السهام تتقاتل في مكانٍ ما كانت فرص ولادتكَ تتضاءل إلى أقصى الاحتمالات. ومع ذلك فها أنتَ هنا فعلياً تتحدث إليَّ يا هانس- توماس. هل تفهم ما أقول؟

- أظن ذلك.

ظننتُ على الأقل أنني أدركتُ أهمية انفجار عَجَلة دراجة جدتي في فرولاند بالنسبة لي. ثم تابع والدي:

- إنني أتحدث عن سلسلة طويلة من المصادفات. في الحقيقة ترجع هذه السلسلة إلى أول انقسام خلوي والذي كان الأصل لكل ما يظهر وينمو على الكوكب اليوم. مع إن احتمال أن تظل سلسلتي بعيدة عن أن تُقطع بين لحظةٍ أو أُخرى على مدى الثلاث مليارات أو الأربع مليارات سنة كان ضئيلاً إلا أنني قد نجحتُ في الواقع في أن أكون هُنا. أما كيف حصل هذا! فأنني آخذ بالحسبان حظي المجنون حتى أكون حياً على الأرض معكَ. كما أنني أعرف في الوقت نفسه الحظ الذي كان لأحقر حشرة صغيرة هنا على هذا الكوكب.

- وماذا عن أولئكَ الذين لم يكن لديهم حظ؟ سألتُ.

فقال بصوتٍ عالٍ:

- إنهم لا يوجدون، إنهم لم يروا الحياة يوماً. إن الحياة هي يانصيبٌ عملاق حيث وحدها الأرقام الرابحة هي المرئية.

صمتَ تاركاً نظره يسرح على البحر الأدرياتيكي.

- هل ننطلق؟ سألتُ بعد عدة لحظات.

- لا مجال لهذا! سوف تبقى جالساً بلطف يا هانس- توماس لأن الأكثر إدهاشاً هو ما سيأتي.

قال هذه الكلمات كما لو أن صوتاً داخلياً قد أملى عليه الأمر بالكلام. ربما قد شعر أنه جهاز إرسال يردد الموجات التي كان باستطاعته تلقيها. كان ذلك بلا شك هو ما يُدعى بالإلهام. بينما كان ينتظر إلهامه أخرجتُ العدسة من جيب سروالي وتفحصتُ بقّةً حمراء تذهب وتأتي على حجر. برؤيتها بالعدسة بدت مسخاً حقيقياً.

- هكذا تكون كل الصُدف في الوجود، أعلن والدي.

أعدتُ العدسة ونظرتُ إليه. عندما يحشد أفكاره هكذا فإن هذا يعني أنه سيحدثني عن شيء مهم أعرفه جيداً.

- لنأخذ مثالاً بسيطاً: أفكر في أحد الزملاء تماماً قبل أن يتصل بي هاتفياً أو ينبثق فجأةً على الدَّرَج. يعتقد الكثيرون أن مثل هذه المصادفة ناجمة عن شيء ما فوق طبيعي. ولكن يحدث لي غالباً أن أفكر في هذا الزميل بدون حتى أن يرن جرس الباب. وبالطريقة نفسها يتصل بي غالباً بالهاتف بدون أن أفكر فيه. *You see ?* (هل ترى؟)

أشرتُ بنعم برأسي.

- المشكلة هي أن الناس لا تتذكر إلا المرّات التي يكون فيها هناك تصادف فعليّ، فإذا وجدوا قطعة نقديّة من فئة العشرة كورونات تماماً في

اللحظة التي يكونون هُم بحاجةٍ إليها فإنهم يرون فيها دلالة على شيء ما «فائق للطبيعة» حتى ولو كانوا مفلسين طيلة العام. من أجل هذا فأن لكلٍ نصيبه من القصص «الفائقة للطبيعة» ليرويها سواء وقعتْ له شخصياً أم مع غيره. إن الناس مولعة بهذا النوع من الأحداث التي لا ينتهي الحديث عنها، ولكن هنا أيضاً وحدها الأرقام الرابحة هي المرئيَّة. على سبيل المثال: إذا كنتُ أقوم بتجميع الجواكر فلا شيء يذهل إن كان لدي دُرج مليء بها.

أكدَّ على نهاية عبارته بتنهد. فسألته:

- أولم تحاول أبداً أن تدفع بترشحك؟
- ماذا تقول؟ أجاب بلهجةٍ شبه عدوانيَّة.
- لكي تحصل على مُرَتَّب من الدولة بوصفك فيلسوفاً، قلت.

انطلق بضحكة عالية قبل أن يُتابع بصوتٍ لطيف:

- عندما يهتم الناس بالظواهر «الفائقة للطبيعة» فإنهم يهتمون بها بشكلٍ أعمى. إنهم يمرُّون من جانب الأشياء الأكثر إدهاشاً وهي معرفة أن العالم موجود. إنهم مولعون بالمريخيين وبالأجسام الطائرة أكثر من الخلق العجيب الذي يمتد أمام ناظرينا. لا أعتقدُ أن العالم ثمرة الصدفة.

وليختم انحنى نحوي وقال:

- اعتقد أن للكون غاية. سوف ترى في يومٍ من الأيام بأن هناك قصديَّة وراء عشرات آلاف النجوم والمجرات.

وجدتُ أن كل ما قاله للتو كان مُسجَّلاً بدقة في تسلسل توقفات استراحة- التدخين ذات الطابع التربويّ جداً. ولكنني لم أكن مقتنعاً أبداً أن كل ما كان مرتبطاً بكتاب فطيرة الحلوى كان ثمرة الصدفة. نستطيع بالتأكيد

اعتبار حقيقة وجودي ووالدي في مورانو مباشرةً قبل أن أقرأ المقطع عن أقزام الديناري أو أن توضع كذلك بين يديَّ عدسة مكبرة مباشرةً قبل أن أتلقى هذا الكتاب ذي الحروف المجهريَّة قد كان مصادفةً محضة، ولكن لماذا كنتُ *أنا* بالتحديد من تلقى *الكتاب*؟ لا بد أن يكون في هذا قصديَّةٌ محتجبة.

خمسة السباتي

اللعب بالورق لم يعد بتلك السهولة.....

عند وصولنا إلى أنكون في المساء كان والدي ذا مزاج رائق جدا مما جعلني قلقاً قليلاً. وبينما بقينا في السيارة بانتظار الصعود إلى سطح السفينة اكتفى هو بمراقبة العبَّارة بصمت.

كانت تلك العبَّارة سفينة صفراء ضخمة تُدعى *Mediterranean sea* (البحر الأبيض المتوسط). كان السفر إلى اليونان يحتاج إلى يوم وليلتين وكان الرحيلُ مُقرراً في الساعة التاسعة مساءً. بعد الليلة الأولى أمضينا يوم الأحد كله في البحر وقد كان علينا أن نطأ أرض اليونان في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين في حال لم يعترض القراصنة طريقنا.

كان والدي قد تزوَّد قبلاً بكُتيب عن السفينة، لذلك قال لي:

- هل تعلم يا هانس- توماس أنها تتسع لثمانية عشر ألف طن، أي أنها ليست بالسفينة الصغيرة. إنها تتحرك بسرعة سبع عشرة عُقدة وتستطيع أن تأخذ أكثر من ألف راكب وثلاثمائة سيارة. فيها محلات ومطاعم وحانات وأماكن للبرونزاج وديسكو وكازينو. انتظر فهذا ليس كل شيء: هل تعرف

أن ثمة مسبح على السطح العلوي؟ لا أقول هذا لأن له أهمية خاصة ولكنني سألتُ نفسي فقط إذا كنتَ تعرف هذا. حسنٌ، أجبني الآن بنزاهة: هل تحقد عليَّ كثيراً لأنني لم أعبر يوغسلافيا بالسيارة؟

- مسبح على السطح العلوي؟ كرَّرتُ.

شعرنا أنا وأبي أن كل شيء قد قيل بهذه الكلمات، ولكنه مع ذلك فقد شعر بالحاجة لأن يضيف:

- أنتَ تعرف أنه قد كان عليَّ أيضاً أن أحجز قُمرة وكان لديَّ الحق في الاختيار بين واحدة بدون نوافذ تطل على السفينة من الداخل أو قُمرة أُخرى بكوى تطل على البحر. ماذا اخترتُ برأيك؟

كنتُ أعرفُ حق المعرفة أنه قد اختار القُمرة بإطلالة على البحر وكان من الواضح أنه على علم بمعرفتي بذلك. اكتفيتُ أيضاً بالقول:

- هل كان هنالك فارقٌ كبيرٌ بالسعر؟

- نعم، بعض اللير، ولكنني لا أجُرُّ ولدي إلى البحر لأسجنه في صندوق مكانس.

لم يكن لديه الوقت ليقول المزيد إذ أُعطيتْ لنا لحظتها الإشارة بالصعود إلى ظهر السفينة.

بعد أن تم ركن السيارة وجدنا قُمرتنا بسرعة. كانت تُطلُ على السطح العلوي للسفينة وكانت مُجهزة بشكلٍ مُترف بأسِرَّة كبيرة، بستائر، بمصابيح، بطاولة صالون، بمقاعد مُريحة. من أمام النافذة كان المسافرون لا ينقطعون عن السير في كل الاتجاهات على السطح العلوي للباخرة.

رُغم كون القُمرة بفتحاتٍ كبيرة ورغم أنها لم تكن سيئة أبداً إلا أننا كنا مُتفقين تماماً على ألا نقضي فيها الجزء الأعظم من وقتنا. كان هذا بديهي جداً حتى أننا، في تلك المرَّة بالتحديد، لم نتحدث في الأمر. قبل أن نترك القُمرة أخرج والدي قارورة مُفلطحة لكي يُرطب حنجرته، ثم قال:

- بصحتك. في حين لم يكن معي شيء لأُردَّ به.

فهمتُ أنه كان بحاجةٍ إلى مُنشِّط بعد كل ذلك الطريق الذي قطعناه قبل قليل من البندقية. أظن أن هذا قد جعله مُتحرِّقاً فعلياً ليستعيد عادات البَّحار بعد العديد من السنوات التي مرَّت على اليابسة. أما عني أنا فقد مرَّ زمنٌ طويل لم أشعر فيه بمثل هذه السعادة. ولكن- وربما بسبب هذا- لم أستطع أن ألجِمَ نفسي عن التعليق على حركاته هو والزجاجة.

- هل أنتَ مُجبر فعلاً على أن (تُمزمز) هكذا كل مساء؟

- *Yes, sir* (نعم يا سيدي) أجاب وهو يتجشأ.

توقفتْ المناقشة عندها، ولكن الفكرة أخذت طريقها وكنتُ أعرف أن الموضوع سيعاد طرحه من جديد.

عندما رنَّ جرس الانطلاق كنا قد عرفنا حينها السفينة عن بكرة أبيها. كنتُ مُحبطاً قليلاً عندما رأيتُ أن المسبح كان مُغلقاً، لكن والدي استعلم عن ذلك مُباشرةً وعلِم بأنه كان سيفتحُ باكراً من صباح اليوم التالي.

بقينا مُتكئين على درابزين السفينة في السطح العلوي إلى أننا لم نعد نستطيعُ تمييز الشاطئ فقال والدي:

- وهكذا نحن الآن *في البحر*.

بعد هذه الجملة المُجهزة منذ زمنٍ طويل ذهبنا للعشاء في المطعم. انتهت الوجبة وسُدِّدَتِ الفاتورة فاتفقنا على الذهاب إلى الحانة لنشارك في لعبة الورق التي تُسمى «الكازينو الصغير» قبل أن نذهب للنوم. كان لدى والدي عُلبة ورق في الجيب الداخلي لسترته وبالصدفة لم تكن تلك التي فيها صور النساء العاريات.

كانت السفينة تعجُ بأشخاصٍ قدموا من كل جهات الأرض. العديد من الناس بدوا لي صغاراً بشكلٍ مُذهل مع أنهم كانوا بالغين. شرح لي والدي أنهم كانوا يونانيين.

ما إن وُزِّعَتِ الأوراق حتى كان في يدي زوج البستون وعشرة الديناري. أي الورقتين الأساسيتين في هذه اللُعبة. برميي لعشرة الديناري بقي معي في يدي ورقتي ديناري.

- بنات الزجاج، صحتُ بصوتٍ عالٍ.

حملق أبي بعينيه.

- ماذا قلتَ يا هانس- توماس؟

- لا شيء.

- أولم تقل «بنات الزجاج»؟

- آه بلى، لقد أردتُ التحدث عن بنات الحانة. يمكن القول أنهن أمضين حياتهن يتناقشن والكؤوس في يدهن. أجبتُ عندها.

وجدتُ أنني قد خرجتُ منها بالأحرى بشكلٍ جيد، ولكن اللعب بالورق لم يعد بتلك السهولة. لقد سببن لي نفس تأثير أولئك اللواتي اشتراهن أبي من ڤيرون. في الحقيقة ما أن وَضعتُ خمسة السبات على الطاولة حتى فكرتُ

بأولئك الرجال الصغار العجيبين الذين قابلهم هانس الفرّان على جزيرته المسحورة، ولو كانت ورقة ديناري لتوقعتُ ظهور إحدى أولئك النسوة ذوات الشعر الفضي بثوبهن الوردي والظريفات جداً. وعندما رمى أبي آس الكُبة على الطاولة رابحاً بها ستة وثمانية البستون صرختُ:

- ها هي ذي تعود من جديد!

هزَّ والدي رأسه وقرَّر أن الوقت قد حان للذهاب إلى السرير. في حين بقي شيء آخر ليفعله قبل مغادرة الحانة: بما أننا لم نكن الوحيدين الذين يلعبان الورق فقد قام بدورة صغيرة على اللاعبين الآخرين ليضع في جيبه بعض الجواكر الأُخرى من أجل أن يُثري مجموعته. كان هذا دائماً هو الشيء الأخير الذي يفعله قبل أن يغادر مكاناً. وجدتُ من ناحيتي أن ذلك لم يكن عملاً شجاعاً على الأخص من ناحيته.

لقد مضى وقتٌ طويلٌ جداً لم نعد نلعب فيه الورق أنا ووالدي. عندما كنتُ صغيراً كنا نلعب غالباً، لكن عشقه للجواكر انتهى إلى القضاء على رغبة اللعب وإلا فإنه كان متميزاً في ألعاب الورق.

ولكن أكثر مرَّة أذهلني فيها كانت عندما أنجح بمرَّةٍ واحدة في لعبة صبر كانت تتطلب في أحسن الأحوال عدَّة أيام. كانت لعبة صبر لا تتطلب أن يكون المرء صبوراً جداً فحسب ولكنها تتطلب كذلك أن يكون هناك الكثير من الوقت أمامنا.

بالعودة إلى قُمرتنا بقينا لحظةً طويلةً عند النافذة لنتأمل البحر. لم نرَ شيئاً لأنها كانت ليلة مظلمة تماماً ولكننا كنا نعرف أن الظلمة التي كنا نحاول اختراقها كانت هي البحر.

عندما مرّت مجموعة من الأمريكيين الصاخبين على سطح السفينة من تحت نافذتنا أسدلنا الستائر وتمدد أبي على سريره. لا بد وقد شرب جرعةً كبيرةً لأنه نام على الفور.

بقيتُ ساهراً استشعرُ حركات السفينة وبعد لحظة أخرجتُ عدستي *والكتاب* لأتابع قراءتي للقصة المذهلة التي رواها هانس الفرّان لألبرت الذي أصيبت والدته بالمرض.

ستة السبات

كما لو أراد أن يُطمئِن نفسه أنني كنتُ موجوداً فعلاً من لحم ودم.....

بقيتُ أتقدم في الغابة الكثيفة حتى وصلتُ بعد قليل إلى فُسحةٍ مُضيئة. في أسفل رابية مغطاة بالزهور كانت تقوم قريةٌ بيوتها صغيرةٌ مُتراصّةٌ مع بعضها البعض يتغلغل بينها دربٌ يجتاحه حشدٌ من الشخصيات الصغيرة بحجم أولئك الذين كنتُ قد تعرفتُ عليهم سابقاً. أعلى قليلاً فوق الرابية كان ثمة بيتٌ صغيرٌ معزول.

بالتأكيد، ما كان يجبُ أن أتوقع أن أجد شرطياً هناك قد يستطيع أن يزودني بالمعلومات، ولكن كان عليَّ أن أكتشف أين كنت.

واحد من أوائل بيوت القرية كان مخبزاً. ولدى مروري به كان ثمة امرأة شقراء جاءت إلى عتبة الباب. كانت ترتدي ثوباً أحمر بثلاثة قلوب حمراء قانية على صدرها.

سألتني وهي مُحمرّةٌ قليلاً ومُهديةً إليَّ أحلى ابتساماتها:

- خبزٌ طازج؟

كانت رائحة الخبز الطازج التي فتحت منخريَّ لا تقاوم حينها فخطوتُ فوراً إلى داخل ذلك المخبر المتواضع. لقد انقضى أكثر من أُسبوع لم أذق فيه الخبز وهنا فوق أحد الرفوف الضخمة في مقابل الجدار كانت تتكوم أكداس الخبز الطازج وحلوى البرتزل اللذيذة.

كان يخرج من أحد الأفران شيءٌ من الدخان يخرج من الغرفة التي في العمق وهاهي امرأةٌ أُخرى تلبس الأحمر ولديها خمسة قلوب على صدرها تدخل بدورها إلى المحل.

ففكرتُ: كان السبات يعملون في الحقول ويرعون الحيوانات، وكان الديناري ينفخون الزجاج، آس الكُبة تتجول بثيابٍ جميلةٍ وتقطف الورود والأعناب أما بالنسبة لبقية الكُبة فقد كانوا يصنعون الخبز. لم يبق عليَّ غير أن أعرف ما يفعله البستون وربما سيكون لديَّ عندها تصور لمجموعة هذه اللعبة الغريبة.

أشرتُ بإصبعي إلى أحد أنواع الخبز وأنا أسأل:

- هل أستطيع أن أتذوقه؟

من فوق بسطة متواضعة، مصنوعة من جذوع رقيقة مضمومة ويتوجها وعاءٌ زجاجي كبير فيه سمكة حمراء وحيدة. انحنت خمسة الكُبة ونظرتْ في عينيّ بثبات قائلةً وهي تُكشر بشكلٍ غريب:

- لا بد أنني لم أتكلم معكَ منذ عدة أيام.

فأجبتُ:

- بالضبط تماماً، في الواقع لقد سقطتُ لتوي من القمر بالإضافة إلى أنني لم أكن أبداً مُتحدثاً بارعاً ومرد ذلك إلى أنني لستُ مُفكراً لامعاً وعندما لا نعرف أن نفكر جيداً فلا يكون للكلام معنى كبير.

لقد استطعتُ أن أُدرك من قبل أن التعبير بشكلٍ مفهوم مع هؤلاء الأقزام لا يجدي شيئاً وربما سأكون أكثر حظاً لو تحدثتُ بأُسلوبٍ مُلغز مثلهم.

- تقول من القمر؟

- إيه نعم.

- في هذه الحالة فأنتَ بحاجة إلى قطعة خبز. أجابت خمسة الكُبة باقتضاب كما لو أن السقوط من القمر هو بذاته شيء عادي مثل أن تكون خلف بسطة لتبيع الخبز.

كان هذا هو ما توقعته إذ كان يكفي أن أضع نفسي على طول الموجة نفسها لأستطيع التواصل معهم. وفجأةً أمسكتْ بها سورة عنيفة فجائية فانحنتْ فوق البسطة وتمتمت باضطرابٍ كبير:

- ***مكتوبٌ في أوراق اللعب ما يجب أن يحصل.***

عادت طبيعيَّة في اللحظة التالية وأخذتْ قطعة كبيرة من الخبز ودستها في يدي. قضمتُها مُباشرةً داخل المحل ثم خرجتُ إلى الزقاق. كان طعم الخبز أكثر حموضة قليلاً من المُعتاد، ولكن رائحته كانت جيدة وكان مُشبعاً جيداً مثل غيره من الخبز.

لمحتُ في الخارج أن كل الأقزام يحملون على صدورهم إشارة كُبة أو سبات أو ديناري أو بستون. كان لكل واحدة من هذه الإشارات الأربع بذلتها أو طقمها المُختلف: الكُبة بالأحمر، السبات بالأزرق، الديناري بالزهر، والبستون بالأسود.

كان بعضهم أطول قليلاً من الآخرين. لقد كان الأكثر طولاً هم أولئك الذين يلبسون أزياء *الشيوخ والبنات والشباب*. كان *الشيوخ والبنات* يضعون تيجاناً على رؤوسهم بينما يتمنطق *الشباب* بسيوفٍ في أحزمتهم.

هكذا كان بإمكاني التعرف عليهم فلم يكن يوجد من كلٍ منهم إلا واحداً ؛ وعلى هذا فإنني لم أرَ سوى شيخ كُبة واحد وستة سبات واحد وثمانية بستون واحد . لم يكن هناك لا أطفال ولا عجائز . لقد كانت تلك الشخصيات أقزاماً بالغين في مُقتبل العُمر .

في النهاية انتبهوا لحضوري أحدهم بعد الآخر فرفعوا عيونهم نحوي ولكنهم كانوا يستديرون بسرعة كما لو أن اقتحام أجنبي لقريتهم أمرٌ لا يعنيهم.

وحده ستة السبات- الذي رأيته من قبل في النهار يمتطي أحد تلك الحيوانات ذوات القوائم الست- اعترض طريقي ونطق إحدى تلك العبارات التي بلا معنى والتي تحضر بدون توقف على شفاههم، قبل أن يختفي في ركن أحد الشوارع :

- *تهتدي أميرة الشمس إلى طريق المحيط .*

شعرتُ بالدوار . لقد سقطتُ على ما يبدو في مُجتمع فئاته الاجتماعية منغلقة على نفسها و سفسطائية جداً . كان يبدو أن شخصيات تلك الجزيرة لا تعرف غير تلك القوانين التي تنظم ألعاب الورق .

وأنا أمشي في تلك القرية انتابني انطباعٌ سيءٌ جداً أنني قد وقعتُ في نهاية الأمر بين ورقتي لعبة صبر تتبع إحداهما الأُخرى إلى اللانهاية من غير أن تنجحا في ذلك.

كانت المنازل تتركز في عمقٍ منخفضٍ وكانت مصنوعة من جذوعٍ خشبية في حين كان يتدلى خارجها مصابيح زجاجيَّة تعمل بالزيت كنتُ قد رأيتها من قبل في مصنع الزجاج . لم تكن المصابيح مُضاءة وعلى الرُغم من أن الظلال قد بدأتْ تستطيل إلا أن القرية بكليتها بقيتْ تستحم بالضوء الذهبي للشمس الغاربة .

على مصاطب النوافذ وحوافها كان ثمة أحواض لا يمكن عُدها مليئة بالأسماك الحمراء . كما وقد رأيتُ عدداً مُذهلاً من القناني بحجوم متنوعة حتى أن بعضها كان ملقي بين المنازل وقد رأيتُ أكثر من قزم يمرُّ مُتأبطاً واحدة منها .

لاحظتُ أيضاً منزلاً أكبر بكثير من المنازل الأُخرى شيء كالمستودع سمعتُ منه أصوات ضرباتٍ جافة .

رأيتُ مع انفراج أحد تلك الأبواب أنها كانت منجرة يشتغل فيها أربعة أو خمسة أقزام لتكوين طاولة كبيرة . كانوا يلبسون جميعاً بدلات شبيهة بالبدلات الزرقاء للرجال الصغار مع فارق هو أن هذه البدلات كانت سوداء تماماً وكان لديهم إشارات بستون بدل من سبات على ظهورهم . كان شعرهم أسود ولكن بشرتهم أفتح بكثير من بشرة السبات . وهكذا حُلَّ اللغز : لقد كان البستون نجّارين .

كان شب الديناري يجلس على مقعد صغير أمامَ أحد تلك المنازل الخشبيَّة يراقب انعكاس الشمس الغاربة على سيفه . كان يلبس سترة جنود زهريَّة طويلة وسروال منفوخ أخضر .

ذهبتُ صوبه وانحنيتُ باحترام وقلتُ بصوتٍ حاولتُ أن يكون لطيفاً قدر الإمكان :

- مساء الخير يا شب الديناري . هل تستطيع أن تقول لي مَنْ هو الشيخ صاحب السُلطة في الوقت الحاضر؟ أغمد الشب سيفه ونظر إليّ بعينٍ مُتعبة و(برطم) :

- إنه شيخ البستون أما في الغد فسيكون الجوكر . ولكن من الممنوع تسمية الأوراق بأسمائها .

- خسارة ، إذ أنني مُجبر تقريباً على رجائك أن تقودني إلى أعلى سُلطة على الجزيرة .

فقال :

- اهئامسأب قاروألا يمسن نأ عونمملا نم هنأ تَعمس دقل .
- ماذا تقول؟

فقال مُكرراً :

- اهئامسأب قاروألا يمسن نأ عونمملا نم هنأ تَعمس دقل .
- جيد جداً . وهذا يعني؟
- نيناوقلل لثتمت نأ كيلع نأ .
- يا سلام!
- طبضلاب .
- في هذه الحالة.....

تفحصتُ وجهه الصغير كان لديه نفس الشَعر اللامع ونفس السُحنة الشاحبة لبنات الديناري في مصنع الزجاج فقلتُ له :

- اعذرني، ولكني لستُ مُعتاداً على هذا النمط من الحديث . أهو بالهولندي ربما؟

لمع بريق النصر في عيني *الشب* الصغير . لقد شعر بأنه يمتاز عني . فقال :

- وحدهم *الشيوخ والبنات والشباب* يمتلكون فن الكلام من الجهتين، وبما أنك لا تعرف شيئاً من هذا فإن هذا يعني أني أكثر قيمة منك.

فكّرتُ للحظة هل قصد بذلك أنه قد تكلم بشكلٍ معكوس؟

« طبضلاب» تصبح « بالضبط» . وهكذا فإنه قد قال على مرتين « اهئامسأب قاروألا يمسن نأ عونمملا نم » حيثُ تعطي إذا قُرأتْ بشكلٍ سليم : «من الممنوع أن نُسمي الأوراق بأسمائها» فقلتُ :

- من الممنوع أن نُسمي الأوراق بأسمائها.

أخذ بعدها بالاحتراس فسأل بشيءٍ من الترددِ واضح:

- نذإ كلذ لعفت اذاملو؟

فأجبتُ بصوتٍ واثق:

- لواحأ يكل.

على إثرها كان هو من بدى عليه الذهول.

- سألتُكَ ما إذا كنتَ تعرف من هو الشيخ صاحب السُلطة فقط لأمتحن ما إذا كنتَ تحفظ السر ولكنك لم تكن تعرف بهذا الأمر. لقد انتهكتَ القوانين.

- هذه وقاحة لم أرَ لها مثيلاً أبداً. قال.

- أوه، أستطيع من أجل إسعادكَ أن أكون أكثر وقاحةً بما لا يُقارن بهذا.

- اذه فيكو؟

فقلتُ:

- إن والدي يدعى اوتوا، هل تستطيع أن تقول هذا الاسم بالعكس؟

نظر أليَّ بقلقٍ وقال:

- اوتوا.

- جيد جداً. وبالعكس؟

- اوتوا. ردَّدَ.

- نعم، أسمعُ جيداً، تابعتُ، ولكنني أُريدكَ أن تقوله لي *معكوساً*.

- اوتوا- اوتوا، قال الشب وهو يرغي ويزبد.

فقلتُ لأهدئه:

- حسنٌ عليكَ أن تحاول على الأقل. هل تريد أن نأخذ كلمة أطول؟

- أدبا ايه. أجاب الشب.
- رادار، قلتُ حينها.
- رادار. أعاد الشب.

أشرتُ له بيدي وقلتُ:

- والآن قل لي الكلمة نفسها بالعكس.
- رادار– رادار. قال الشب بصوتٍ عالٍ.
- شكراً هذا يكفي الآن. هل تريد أن تترجم جملة كاملة؟
- عبطلاب.
- إذن أطلبُ منك أن تقول: بحر بكى لأكبر حب♣.
- : بحر بكى لأكبر حب، أجاب الشب على الفور.
- تمام، وبالشكل المعكوس؟
- بحر بكى لأكبر حب، كرَّرَ.

هززتُ رأسي وقلتُ:

- أنتَ تكتفي بأن تُلجلج ورائي. وهذا بدون شك لأنك لا تستطيع أن تقول العبارة بالشكل المعكوس.
- بحر بكى لأكبر حب: بحر بكى لأكبر حب. أنهكَ رئتيه وهو يُكرِّر.

ثم بدأت تأخذني به الشفقة، ولكن من منا كان البادئ بهذا النوع من الحيل؟

♣ من الواضح أننا في هذه الجملة لم نلتزم بالترجمة الفرنسية التي لم تلتزم بدورها بالجملة النرويجيّة. خ.

استل الشب الصغير سيفه فجأة وضرب به قنينةً تشظّت على التو في مقابل جدار أحد المنازل الخشبيَّة. بعض الكُبة الذين كانوا يتجولون هناك حملقوا عيونهم، ولكنهم مضوا بسرعة في حال سبيلهم.

قلتُ لنفسي من جديد بأن الجزيرة لا بد وأن تكون مقتصرة على إيواء ومراقبة أصحاب الضعف العقلي الذين لا أمل لشفائهم. ولكن لماذا كانوا صغاراً جداً؟ لماذا كانوا يتحدثون بالألمانيَّة؟ وعلى الأخص لماذا كانوا يحملون نفس ألوان وأرقام أوراق اللعب؟

قررتُ ألا أُفلتَ شب الديناري بما أنني لم أكن أفهم ما كان يُحبَكُ هناك. لقد كان عليَّ أن أكون صاحياً على وجه الخصوص لكي لا أُعَبِّر عن نفسي بأُسلوبٍ واضح جداً لأنه من البيِّن أن الأقزام كانوا غير قادرين على فهم اللغة الواضحة فقلت:

- لقد رسوتُ هنا منذ قليلٍ فقط وكنتُ أعتقد أن هذه المنطقة غير مأهولة مثل القمر، ولكن إذا أمكن فإنني أُود أن أعرف الآن من أنتم ومن أين أتيتم.

تراجع الشب خطوة وطلب مني بصوتٍ يائس:

- هل أنتَ هو الجوكر الجديد؟

فتابعتُ:

- لم أكن أعلم أن لألمانيا مستعمرة في المحيط الأطلنطي. لقد سافرتُ إلى العديد من البلدان، ولكن عليَّ الاعتراف بأنني لم أقابل بعد رجالاً بهذا القِصَر.

- أنتَ هو الجوكر الجديد! أبت مث أبت. شريطة أن لا يأتي جواكر أُخرى غيرك أيضاً... ومع ذلك فإننا لن نقبل جوكراً لكل لون.

- لا تقل هذا. فإذا كان الجواكر هم وحدهم من يُتقن فن إجراء محادثة عاديَّة فإن هذا النجاح سيكون فعالاً أكثر بكثير فيما لو كنا كلنا جواكر.

حاول أن يطردني بحركة من يده وقال:

- من المُتعِب بشكلٍ فظيع أن يواجه المرء بكل أنواع الأسئلة.

كنتُ أعرف أن الأشياء كانت في طريقها إلى أن تفسد ولكنني كنتُ أريد أن أحاول أيضاً فقلت:

- أنتم موجودون دائماً إذن على جزيرة غريبة في عرض الأطلنطي. أولم يكن لكم الحق لتعرفوا كيف وصلتم إلى هنا؟

- باصْ *Passe* ♣

- ماذا قلتَ؟

- لقد عكستَ اللعبة، ألا تسمع؟ لقد قلتُ «باصْ».

أخرج قارورة من جيب سترته وأخذ جرعة من ذلك السائل اللامع الذي شرب منه السبات من قبل. ثم أغلقها من جديد ومدَّ ذراعه وأنشد بصوتٍ عالٍ وبهيبة عظيمة كما لو كان يلقي مطلع قصيدة:

- ***تغرق سفينة الفضة في البحر الهائج.***

هززتُ رأسي وتنهدتُ يائساً فقد كان سينام بعد قليل بدون شك وكان عليَّ أن أجد شيخ البستون بنفسي. شعرتُ أنني لن أستطيع أن آخذ منه شيئاً أكثر من ذلك.

خطر على بالي فجأةً ما كان قد قاله أحد السبات. فهذيتُ كما لو كنتُ أحلُم:

- سوف أرى إن كنتُ أستطيع أن أجد فرود...

♣ كلمة تُقال في بعض ألعاب الورق إشارة على أن اللاعب لا يريد أن يلعب في ذلك الدور أو ليس لديه ورقة مناسبة يستطيع أن يشارك بها فيطلب من اللاعبين تجاوزه.

بهذه الكلمات بدا على شب الديناري كما لو أنه استعاد الحياة فقفز عن المقعد الذي كان يجلس عليه وقدَّم تحية عسكريَّة بيده اليمنى وسأل :

- هل قلتَ حقاً فرود؟

فأشرتُ موافقاً وقلتُ :

- هل تستطيع أن تقودني إليه؟
- عبطلاب .

اندسسنا بين البيوت لنصل إلى ساحة السوق حيث كان يوجد في وسطها بئر كبير . كانت ثمانية وتسعة الكُبة تنشلان دلو ماء . كانت ثيابهن الحمراء الزاهية بالقلوب الحمراء القانية تلقي ألقاً جميلاً من الألوان .

كان *الشيوخ* الأربعة متكاتفين بحيث كانوا يُشكّلون حينها دائرة أمام البئر ، وربما كانوا منهمكين في مداولة شأنٍ ما . كانوا يرتدون نفس ألوان ستر الشباب ، ولكن زيهم كان أكثر فخامة وكان كل واحد منهم يرتدي تاجاً كبيراً من الذهب .

البنات أيضاً كن يتجولن في المكان . كن يذهبن ويجئن بين البيوت حيث يسحبن مرآة صغيرة من جيوبهن عند نهاية كل رحلة ليبدين أعجابهن بأنفسهن فيها . كان يبدو عليهن أنهن قد نسين بسرعة من هُنَ وعلى أية هيئة كن يبدون كما لو كان يتوجب عليهن أن يتحققن ، كل خمس دقائق ، من صورهن في المرآة . كن يرتدين تيجاناً على رؤوسهن ولكن هذه التيجان كانت أعلى وأكثر نعومةً من تلك التي للشيوخ .

لمحتُ في خلفية المشهد رَجُلاً مُسِناً ذا شعرٍ لامعٍ ولحيةٍ بيضاء طويلة يجلس على صخرة ويدخن الغليون . كان طول ذلك الرجل هو ما جعله مميزاً

بشكلٍ واضح فقد كان يماثلني طولاً. كان لديه شيء آخر أيضاً يميزه عن الأقزام: لقد كان يلبس رداءً رمادياً من الصوف وسروالاً كبيراً كستنائي اللون. كانت تلك الملابس، والتي حاكها بنفسه بدون شك، تعطي انطباعاً بالبؤس يتناقض مع بدلات الأقزام الكثيرة الألوان.

ركض *الشب* نحوه وقدمني بالقول:

- أيها *السَّيد* (Maître) هذا جوكرٌ جديد.

بالكاد كان لديه الوقت ليتلفظ بهذه الكلمات قبل أن ينهار على نفسه وينام في المكان. لا بد أن ذلك كان بسبب ما كان قد شربه من الزجاجة الصغيرة.

نهض الرجل العجوز عن صخرته وتفحصني طويلاً بدون أن يقول كلمة واحدة ثم أخذ يتلمسني في نهاية الأمر مُتحسساً خدّي ومُمرراً يده بلطفٍ داخل شَعري كما وقد جسَّ بذلة البحار التي كنتُ ألبس. كان كما لو أنه أراد أن يُطمئِن نفسه بأنني كنتُ موُجوداً فعلاً من لحمٍ ودم. وانتهى بأن لجلج:

- هذا... هذا فعلاً آخر شيء كنتُ أتوقعه.

- اعتقدُ أنك فرود، قلتُ مادّاً له يدي.

شدّ على يدي طويلاً بين يديه وفجأةً أصبح مُضطرباً جداً كما لو أن فكرة سيئة قد خطرت في ذهنه، ثم قال:

- علينا أن نغادر القرية في الحال.

وجدتُ أنه يبدو ضائعاً مثل الآخرين، ولكنه على أية حال قد أبدى اهتماماً بي وكان هذا يكفي لأن يوقظ عندي بعض الأمل.

أخذ الرجل العجوز يركض أمامي بخطى قصيرة جارّاً إياي خارج القرية رغم أن رجليه الكليلتين جعلتاه يتعثر عدَّة مرَّات.

كان يتقدم نحو المنزل الذي في أعلى القرية والذي وصلناه سريعاً في حين أن الرجل لم يدعني أدخل بل أشار إليّ بمكان في الخارج فوق مصطبة.

ما إن جلستُ حتى أطلَّ من زاوية المنزل الخشبي رأس شخصية غريبة. كان رَجُلاً مُضحكاً يلبس ثوباً بنفسجياً وقبعة مُهرج حمراء وخضراء بأذني حمار وبأجراسٍ صغيرة مربوطة إلى قبعته وثوبه تخشخش مع كل حركة من حركاته.

بقفزةٍ واحدة كان بجانبي. شد أذني أولاً ثم ضربني بعض الضربات الصغيرة على بطني فأمره العجوز:

- هيا أيها الجوكر انزل إلى القرية.

- إيه- إيه. أنذر البهلولُ الصغير بابتسامة ماكرة. ثم تابعَ:

- أرى أن لدينا أخيراً زيارة من الوطن الأم وأن هذا قد أفرح السيد العجوز حتى أنه نسي أصدقاءه القدامى. هذا سلوكٌ خطيرٌ. ولكن يجب عليَّ أن أحتاط لكلامي.

تنهد الرجل العجوز قائلاً:

- لم يبقَ لكَ الكثير من الوقت حتى تهيئ نفسك للاحتفال الكبير.

فقام الجوكر ببعض الشقلبات برشاقة تامة و قال:

- من المؤكد أنني لن أقول عكس ذلك. فمن أجل الفوز يجب ألا يُفضح شيء.

قام ببعض القفزات للخلف وقال:

- حسنٌ لا داعي لأقول المزيد عن هذا الآن، لكننا سنرى بعضنا من جديد قريباً.

بهذه الكلمات انحدر عن الرابية بسرعة شديدة حتى وصل القرية.

جاء الرجل العجوز وجلس إلى جانبي. من الأعلى كان باستطاعتنا أن نلمح كل الأقزام ببدلاتهم الجميلة ذات الألوان وهم يتسكعون بين المنازل الخشبية.

سبعة السبات

ظهور ميناء الأسنان وعاجها في فمي.....

تابعتُ قراءتي حتى وقتٍ مُتأخرٍ من الليل. ومع استيقاظي باكراً في صباح اليوم التالي انتفضتُ خوفاً إذ كنتُ قد نسيتُ أن أطفئ مصباح السرير وأدركتُ أنني نمتُ بدون شك والعدسة و*الكتاب* في يدي.

هدأ من روعي رؤية أبي وقد كان ما يزال نائماً. كانت العدسة موضوعة فوق المخدّة، ولكن لا مجال لوضع اليد على *الكتاب* الذي وجدته في النهاية تحت السرير فسارعتُ في إدخاله في جيب سروالي.

وبعد أن قمتُ بإخفاءِ كل أثر نهضتُ فعلاً. كانت الصفحات التي قرأتُها قبل أن أنام مؤثرة جداً بحيث شعرتُ أنني متوترٌ وعصبي.

فتحتُ الستائر ووقفتُ أمام النافذة. في الخارج لم يكن هناك إلا المحيط على مد النظر. ما عدا بعض المراكب الشراعيَّة لم يكن هناك أي سفينة في الأفق. كانت الشمس قد أخذت بالارتفاع وتمطى الشفق في نهاية الحزام ما بين السماء والبحر.

ما مفتاح سر الأقزام على الجزيرة المسحورة؟ لم يكن ثمة ما يخوِّلني أن أؤكد أن ما قرأتُه كان حقيقياً، ولكن المقاطع حول لودفيغ وألبرت في دورف قد تكشفتْ بشكلٍ موثوق.

لم يكن هناك أي شك بأن الليمونادة الأرجوانية وكل الأسماك الحمراء قد جُلبَتْ فعلاً من الجزيرة حيث رسا هانس الفرّان. لقد رأيتُ بأُم عيني وعاءاً فيه سمكة حمراء في المخبز الصغير في دورف. لم أتذوق الليمونادة الأرجوانيَّة، ولكن الفرّان العجوز الذي سقاني شيئاً من الليمونادة بالأجاص كان قد تحدث لي عن واحدة أُخرى أفضل بكثير...

من المؤكد أنه كان من المُحتمل أن تكون القصة مُختلقة في كل أجزائها.

فربما لم توجد الليمونادة الأرجوانيَّة أبداً وأن كل ما كان مكتوباً في *الكتاب* كان محض تخيّل. فربما كان لفرّان دورف رغبة فعلية في أن يزيِّن محله بواسطة سمكة حمراء، ولكن مع هذا فقد كان من الغرابةً بمكان أن يستودع مجرد عابر سبيل كيساً من الفطائر فيه كتابٌ صغيرٌ مخفي في داخل إحداها. لم تكن كتابة كتابٍ كاملٍ بحروفٍ بهذا الصغر بالعمل الهيِّن، فضلاً عن أن قزماً عجيباً كان قد أعطاني عدسةً مُكبِّرةً مباشرةً قبل ذلك.

رغم كل شيء فإن صباحي لم يكن مشغولاً حصراً بحل هذه المسائل التقنيَّة فقد كان رأسي يجيش لأسباب أُخرى تماماً: لقد وعيتُ حينها أن الناس على الأرض كانوا في نهاية الأمر غافلين مثلهم مثل الأقزام البليدين على الجزيرة المسحورة.

فكّرتُ: إن حياتنا هي مُغامرة غريبة ومع هذا فإن معظم الناس يجدون أن العالَم «عادي» وكرد فعلٍ فهم يبحثون باستمرار عما هو «غير عادي» مثل الملائكة أو المريخيين، ولكن هذا يرجع حصراً إلى حقيقة أنهم لا يرون العالَم كأُحجية. كنتُ أشعر من جهتي بأنني مُختلفٌ تماماً. كنتُ أعتبر العالَم كما لو كان حُلماً غريباً. كنتُ أبحث تحديداً عن تفسيرٍ عقلاني نوعاً ما من أجل كشف السِّر.

في حين بقيتُ هناك أراقب السماء، وهي تأخذ شيئاً فشيئاً ألوان الشفق، وقبل أن يشحُب أحسستُ شيئاً ما في جسدي لم أشعر به أبداً من قبل. ولم أستطع أن أنساه من يومها قَط: لقد كنتُ هناك عند النافذة، أنا ذلك المخلوق الغامض المليء بالحياة ولكن وبنفس الوقت ذلك الذي لا يعرف شيئاً عن نفسه. لقد كنتُ موجوداً حيّاً على كوكبٍ لدرب التبّانة. من الأكيد أنني كنتُ أعرف هذا دائماً بشكلٍ ما لأنه كان من الصعب أن أجهله مع تلك التربية التي كانت لديّ، ولكني شعرتُ به ولأول مرّة في حياتي في كل خلية من خلايا جسدي.

لقد بدا لي جسدي كشيءٍ غريبٍ وغير مألوف. لماذا هاجمتني كل تلك الأفكار هنا في تلك القُمرة؟ كيفَ حصلَ ونبت على جسدي الجلد والشعر والأظافر؟ فضلاً عن الأسنان! لم أدرك حقيقة ظهور ميناء الأسنان وعاجها في فمي وان هذه المواد الصلبة كانتْ هي *أنا*. من الصحيح أننا بالأحرى نفكر بشيءٍ آخر عندما نذهب إلى طبيب الأسنان.

كيف يستطيع الناس أن يركضوا يميناً وشمالاً بدون أن يسألوا أنفسهم أبداً من هُم ومن أين جاؤوا؟! لقد كان هذا بالنسبة لي هو السِّر الأكبر. كيف نستطيع أن نعيش على هذه الأرض ونحن نغمض عيوننا أو أن نجد الحياة أمراً بديهياً؟

جعلتني كل تلك الأفكار، التي عصفت بنفسي، فَرِحاً وحزيناً معاً. شعرتُ أنني أكثر وحدة، ولكن تلك الوحدة قد أحسنت إليّ.

ورغم كل شيء كنتُ سعيداً جداً لأسمع والدي يُطلقُ زمجرة أسدٍ يزأر. في الوقت الذي وضع فيه رجليه على الأرض قلتُ لنفسي من جديد من المُهم أن نُبقي أعيننا وأنفسنا مفتوحتين، ولكن لا شيء يُعادل حضور موجودٍ نحبه.

- ها أنتَ صاحٍ؟ قال والدي.

دسَّ رأسه تحت الستارة في اللحظة عينها التي ارتفعت فيها الشمس عن سطح البحر. فقلتُ:

- ها هي ذي الشمس.

وهكذا بدأ النهار الذي كان علينا أن نمضيه في البحر.

ثمانية السبات

إذا كان دماغنا بسيط بما يكفي لكي نقدر على فهمه.....

كان فطورنا مليئاً بالملاحظات الفلسفيَّة من كل الأجناس. اقترح والدي على سبيل المُزاح أن نحتل السفينة ونستجوب كل المُسافرين لنرى ما إذا كان هناك أحدٌ ما يستطيع أن يجلو لنا لغز الحياة ويكشف عنه، فقال والدي:

- إنها فرصةٌ نادرة، إذ يوجد هنا نسخةٌ مُصَغَّرة عن البشريَّة فنحن أكثر من ألف مُسافر جئنا من جميع أصقاع الكوكب، ولكننا مبحرون جميعاً على نفس السفينة ومحمولون على عارضتها نفسها.

أشار بإصبعه إلى صالة الطعام وقال:

- لا بد وأن يكون هناك شخصٌ ما يعرف شيئاً ما نجهله نحن. عندما يكون في يدنا العديد من الأوراق الجيدة فسيكون من المُدهش أن لا نجد جوكراً على الأقل.

- هناك جوكران، قلتُ وأنا أنظر إليه.

فهم جيداً ما كنتُ أريد قوله وكانت ابتسامته هي الدليل على ذلك فانتهى بأن قال:

- علينا أساساً أن نستجوب بصرامة كل المُسافرين واحداً بعد الآخر ونسألهم ما إن كانوا قادرين على أن يقولوا لنا لماذا يعيشون. أما أولئك الذين لن يستطيعوا أن يجيبوا، حسناً سنرميهم بكل بساطة عن ظهر السفينة.

- والأطفال؟ سألتُ.

- سوف يجتازون هذا الامتحان بتفوق.

قرَّرتُ في ذلك الصباح أن أقوم ببعض الأبحاث الفلسفيَّة. بعد أن سبحتُ مطولاً في المسبح أخذتُ مكاني على سطح السفينة وأخذتُ أراقب المسافرين بينما كان والدي غارقاً في قراءة جريدة ألمانيَّة سميكة.

كان بعضهم يفرطون بدهن أنفسهم بواقٍ شمسيّ دهني. ويقرأ بعضهم الآخر كتب جيب بالفرنسيَّة، بالإنجليزيَّة، باليابانيَّة، أو بالإيطاليَّة. بينما كان آخرون في خضم حديثٍ وهم (يُزمزمون) بيرة أو مزيجاً أحمر بالثلج. من بين الأطفال، كان الأكبر سناً يعملون برونزاج شمسيّ مثل الكبار والأصغر سناً كانوا يركضون على سطح السفينة مثل المجانين وهم يتعثرون بالأكياس وبالعصي. أما الأصغر سناً فقد كانوا منزعجين وهُم يجلسون على رُكَبِ أشخاصٍ بالغين. كما كان هناك طفلٌ رضيعٌ يرضع ثدي أمه، ولكن الأم كانت مثل طفلها الرضيع غير متضايقةٍ كما لو أنهما في ديارهما في ألمانيا أو في فرنسا.

مَنْ كان كل هؤلاء الأشخاص؟ كيف ولدوا؟ وقبل كل شيء : هل كان هناك شخصٌ غيرنا أنا ووالدي ليطرح هذا النوع من الأسئلة؟

نظرتُ إليهم واحداً تلو الأخر بأمل اكتشاف شيءٍ ما يفضح سرهم. فلو كان هنالك ربٌّ، على سبيل المثال، قد قرّر ما يجب على كل واحدٍ أن يقول أو أن يفعل فيكفي نظرياً أن نحلل أقوالهم وتصرفاتهم لنستنتج منها بعض النتائج.

كان عندي مكسبٌ هائل وكان يجب عليَّ أن أستفيد منه. فعلى افتراض أنني وجدتُ موضوعاً ممتعاً بشكلٍ خاصٍ للدراسة فإن الشخص (موضوع الدرس) لن يستطيع الإفلاتَ مني قبل أن نصل إلى باتراس.

نظرة من هذه الزاوية ترينا بأنه من الأسهل دراسة أُناسٍ على سطح عبَّارة من دراسة حشرات كثيرة الحركة أو صراصير تركض في كل الاتجاهات.

كان الناس يقومون بحركاتٍ عديدة بواسطة أذرعهم. بعضهم كان قد ترك كرسيه الطويل ومدَّ رجليه. استطاع رجلٌ، كبطلٍ في مسابقة، أن ينجح في وضْع ونزْع نظاراته أربع- خمس مرَّات وعلى التوالي خلال دقيقة.

كان من الواضح أن كل هؤلاء الأشخاص لم يكونوا على وعيٍ بما كانوا يفعلون وعلى أي حال ليس بحركاتهم الأقل شأناً. على الرغم من أنهم كانوا أحياءً بالتأكيد إلا أنه لم يكن لديهم شيءٌ من الوعي قط.

وجدتُ متعةً خاصة بمراقبة حركات الأجفان والتي كانت تختلف كثيراً من شخصٍ لآخر. من المؤكد أن الجميع كانوا يُرَمِّشون عيونهم، ولكن ليس بنفس الإيقاع. كان الجلد الرقيق للأجفان يتغضن ثم يتمدد وحده تقريباً. لقد رأيتُ عصفوراً في أحد الأيام يُرَمِّش بعينيه بحيث كان يمكن القول إن آلة قد ضَبَطَتْ بشكلٍ مُحكم أدنى حركة فيهما. ولكنني وجدتُ حينها أن الناس على السفينة كانوا يرمِّشون عيونهم أيضاً بطريقة ميكانيكية تماماً.

جعلني بعض الألمان بكروشهم المُنتفخة كثيراً غير قادر على مقاومة التفكير بفيلة البحر. كانوا يجلسون مُتكاسلين في كراسيِّهم الطويلة وكانت قبعاتهم غائرة فوق عيونهم وكل ما كانوا *يفعلونه* عدا البرونزاج والهجوع تحتَ الشمس هو دهن الواقي الشمسيّ. كان والدي يدعو هذا النوع من الألمان بالـ *Bartwürste* . ظننتُ في البداية أن هذا إشارة إلى مدينة ألمانيَّة، ولكن والدي شرح لي أنه قد لقّبهم هكذا لأنهم لا يتوقفون عن أكل النقانق الدسمة التي تُدعى *Bartwürste* .

سألتُ نفسي ماذا يمكن أن يُفكر به أحد هؤلاء الـ *Bartwürste* في حين يقوم بالبرونزاج ووصلتُ إلى نتيجة بأنه لا بد وأنه كان يفكر بتلك النقانق. وعلى أي حال لا شيء كان يدعم الاعتقاد بأنه كان يفكر بشيءٍ آخر.

تابعتُ استقصاءاتي حتى وقتٍ مُتأخر من بعد الظهر. كنا قد قررنا أنا ووالدي باتفاقٍ مُشترك أن لا نُمضي النهار في تتبع أثر بعضنا البعض مثل جروين صغيرين. كنتُ أستطيعُ إذن أن أتنقل بحُريَّة كما أشتهي. الوعد الوحيد الذي قطعته له هو أن لا أقفز عن ظهر السفينة.

استطعتُ أن أستعير منه منظاره واستخدمه في مراقبة بعض المسافرين بحذر: كان عملاً مُثيراً لأنه كان لا بد من تجنب لفت الأنظار.

كان أسوء ما فعلتُ هو التجسس على امرأة أميركية مجنونة تماماً إلى حد أنها كان يُمكن أن تقدم لي معلومات عن ما هو الموجود البشري، من يدري؟

فاجأتها مرَّة في الصالون. كانت تجلس في ركنٍ هادئ وعندما التفتتْ لتتأكد جيداً بأنها لم تكن مُلاحقة خبأتُ نفسي خلف أريكة وراقبتها بحذر

وسريَّة. كان حلقي مُتشنجاً، ولكنني لم أكن خائفاً. كان يتملكني القلق عليها هي بالأحرى فلماذا كل هذا التكتم؟

في النهاية رأيتها تُخرِجُ من حقيبة يدها عدة ماكياج خضراء. أخذتْ مرآة جيب صغيرة وتفحصتْ فيها وجهها من كل الزوايا ثم لطختْ نفسها بأحمر الشفاه.

فهمتُ مباشرةً بأن المشهد الذي كنتُ قد شاهدته للتو كان له دلالة ما بالنسبة للفيلسوف. عندما انتهتْ من التدهن ابتسمت لنفسها. مباشرةً وقبل أن تضع مرآتها في حقيبتها قامت بتأشيرة وداع صغيرة لنفسها بابتسامة عريضة وبغمزة عين.

لم أخرج مباشرةً من مخبأي عندما غادرتُ الصالون كنتُ مذهولاً.

أية فكرة أن يقول المرء وداعاً لنفسه! إن كانت السيدة غريبة جداً فربما كان ذلك لأنها *سيدة جوكر*؟ لا بد أنها كانت على وعي بأنها موجودة لأنها قد قامت بالإشارة إلى نفسها. ولكنها كانت شخصين بطريقةٍ ما. لقد كانت معاً تلك المرأة الجالسة في الصالون والمشغولة بإصلاح ماكياجها والسيدة التي قالت لنفسها إلى اللقاء.

كنتُ أعرف بأنه ليس لي الحق أن أُكِبَّ هكذا على مراقبة الناس فتوقفتُ عن ملاحقة تلك المرأة، ولكنني عندما رأيتها عصراً من جديد عند طاولة لعب البريدج ذهبتُ إليها وطلبتُ منها بالإنجليزيَّة إن كانت تتفضل بالتخلي لي عن الجوكر.

- *No problem* (لا مشكلة). قالت وهي تعطيني إياه.

في لحظة المغادرة نهضتُ ولوَّحتُ بيدي غامزاً إياها بعيني. لقد كانت مُندهشة جداً بحيث كادت أن تسقط عن كرسيها. لا بد وأنها تساءلت بدون شك كيف أمكن لي أن أكون على عِلم بسرِّها الصغير. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد وأنها تسأل نفسها اليوم هذا السؤال في مكانٍ ما في الولايات المتحدة الأمريكية.

نجحتُ ولأول مرَّة في حياتي، وحيداً مثل شخصٍ كبير، في أن آخذ جوكر من شخصٍ ما.

كنا أنا وأبي قد ضربنا موعداً باللقاء في القُمرة قبل الغداء. بدون أن أقص عليه كل شيء أطلعته على بعض أبحاثي، ثم كان عندنا وقتُ فراغ كبير أثناء الوجبة للاستفاضة في الحديث عن الوجود البشري.

وجدتُ من الغرابة أن نكون نحن البشر الأذكياء جداً الذين نقوم بأبحاث حول الفضاء وتركيب الذَّرة نعرف شيئاً قليلاً جداً من الأشياء عن أنفسنا. لقد قال والدي عِبارة قَيِّمَتْها وقَلَّبْتُها جيداً و لديَّ رغبة في إعادة نقلها مثلما هي. لقد قال:

- إذا كان دماغنا بسيطاً بما يكفي لكي نقدر على فهمه فسنكون أغبياء بما يكفي أن لا نفهمه رغم كل شيء.

لقد تأمَّلتُ طويلاً بهذه العبارة قبل أن أصل إلى النتيجة التي أُجابتْ تماماً بأسلوبٍ ما على السؤال الذي كنتُ قد طرحته على نفسي. لقد كانتْ خلاصة جيدة للمشكلة.

تابع والدي:

- يوجد في الواقع أدمغة أقل تعقيداً بكثير من أدمغتنا. نحن نعرف على سبيل المثال كيف يعمل النظام العصبي لدودة الأرض، بشكلٍ لا بأس به على الأقل، ولكن دودة الأرض تجهل نظامها بنفسها مع أنه بسيطٌ جداً ليكونَ مفهوماً.

- ربما قد يكون هناك ربٌّ يفهمنا؟ قلتُ بدوري.

أرجع والدي كرسيَّه إلى الوراء . اعتقدُ أنه كان مُتفاجئاً قليلاً بسؤالي والذي لم يكن بتلك الحماقة هذه المرَّة . فقال :

- هذا ممكنٌ جداً ، ولكن في هذه الحالة سيكون هو نفسه معقداً كثيراً بحيث لن يستطيع هو أن يفهم نفسه تقريباً .

أشار إلى النادل وطلب (قنينة) بيرة من أجل وجبته . استمر بالتفلسف إلى أن صارت البيرة على الطاولة وبينما كان النادل يبدِّل كأسه تابع :

- إن كان هناك شيء لا أفهمه أنا فهو لماذا هجرتنا *انيتا* .

لاحظتُ أنه قد لفظ أسمها فجأة . بشكلٍ عام كان يدعوها *ماما* مثلي أنا .

ما جعلني انتبه للأمر حقاً هو أن والدي كان كثيراً جداً ما يتحدث عن ماما . بالطبع كنتُ اشتاقها بقدر ما كان يشتاقها هو ، ولكنني وجدتُ بأنه كان من الأفضل أن نشتاقها كلٌ من جهته على أن نمضي وقتنا *معاً* في التحسر عليها .

- أعتقدُ أنني أفهم تَكَوّن الكون أفضل من تصرف تلك المرأة التي غادرت بكل بساطة في يومٍ ما بدون أن تترك خلفها رسالة توضيح .

- ربما لا تعرف هي نفسها لماذا .

توقفنا عن الحديث هنا . أعتقد أنه كان يخشى مثلي أن لا نجدها في أثينا .

بعد الوجبة قمنا بجولة صغيرة . أشار والدي بإصبعه إلى الجنود وأفراد الطاقم الذين كنا نلتقي بهم شارحاً لي دلالة الفوارق في الرتب والشارات فلم أستطع منع نفسي من أن أُجري مقاربة بينهم وبين أوراق اللعب .

في المساء أسَرَّ لي والدي بأن لديه رغبة قاتلة في القيام بجولة على البار ، فقط هكذا ! قررتُ أن لا أُعطي أهمية كبيرة لذلك قلتُ له أنني أُفَضِّلُ أن أقرأ *مجلة ميكي* في القُمرة .

أعتقدُ أنه كان بحاجة لأن يكون وحيداً للحظة بينما كنتُ أنا نافد الصبر لمعرفة ما كان سيرويه فرود على هانس الفرّان عندما كانا يجلسان كلاهما على الصخرة وهما يُطلّان على قرية الأقزام.

لم تكن عندي النيَّة نهائياً لقراءة *مجلة ميكي*، ربما كنتُ في ذلك الصيف في طريقي لأترك حقاً عالَم *والت- ديزني*. وعلى كل حال فإن شيئاً كان قد تحققَ من يومها: لم يعد والدي هو الوحيد الذي يتفلسف لقد كنتُ قد شرعتُ بالتفلسف حينها أنا أيضاً وبمهارة.

تسعة السبات

شراب حلو ولا مع يفرقع بخفة.....

بدأ الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء الطويلة بالقول.

- فعلنا حسناً بابتعادنا عنهم.

رنا إليَّ للحظة طويلة بدون أن يرمش ثم تابع مُطمئناً:

- خفتُ أن تقولَ شيئاً.

أشار إلى القرية التي كانت أسفلنا وهو يحرِّر نظره عني في النهاية وفجأةً ارتعد من جديد:

- أنتَ لم تقل شيئاً أليس كذلك؟
- أخشى بأنني لا أفهم جيداً...
- لا. معكَ حق. فأنا أبدأ من النهاية.

أشرتُ بالموافقة وقُلت:

- إذا كان هناك بداية، فربما سيكون من الحكمة أكثر أن نبدأ منها.

فقال بصوتٍ عالٍ:

- *Aber natürlich* (بالطبع)، ولكن قبل كل شيء عليكَ أن تُجيب عن سؤالٍ مُهم: هل تعرف ما هو تاريخ اليوم؟

- لستُ مُتأكداً كثيراً من هذا، اعترفتُ، يجب أن نكون في الأول من تشرين الأول...

- أنا لا أتحدث عن الأيام. هل تعرف في أي سنةٍ نحن؟

قلتُ حادساً فجأةً بالزمن:

- ١٨٤٢.

هزّ الرجل العجوز رأسه ببساطة وقال:

- إذن لقد انقضت اثنتان وخمسون سنة بالضبط يا ولدي.

- عشتَ كل هذه السنوات على هذه الجزيرة؟

وبعلامة جديدة للتأكيد:

- نعم كل هذه السنوات.

كان مُضطرباً جداً حتى أن دمعة سالت على خده بدون أن يقوم بأدنى حركة ليمسحها. ثم روى:

- لقد غادرنا مكسيكو في عام ١٧٩٠ ثم غرقنا بعدها بعدّة أيام. غرق كل الطاقم مع السفينة، ولكني تشبثتُ ببعض الألواح العريضة الطافية ما بين حطام السفينة ونجحتُ في بلوغ اليابسة...

صمتَ مُفكّراً فرويتُ له بدوري عن مغامرتي المُزعجة وعن الغرق وعن وصولي إلى الجزيرة. فبدت على وجهه تعابير الحزن.

- تقول «جزيرة»؟! وأنا نفسي كنتُ أقول هذا، ولكن هل يمكن لنا أن نكون مُتأكدين فعلاً من أنها جزيرة؟ أعيشُ وأقوم بالتجوال هنا منذ أكثر من خمسين سنة، يا ولدي، وها أنتَ ترى بأنني لم أستطع أن أعثر على البحر مجدداً.

- لا بد وأن تكون جزيرة كبيرة، قلتُ.

- وغير مشار إليها على أية خريطة في العالَم؟

- يمكن أن نكون قد رسونا بطبيعة الحال في مكانٍ ما فوق القارَّة الأمريكيَّة، أو، ولما لا، في أفريقيا. من الصعب دائماً معرفة كم مضى من الوقت ونحن ألعوبة التيارات قبل أن نطأ اليابسة.

هزّ الرجل العجوز رأسه بحزن:

- في أمريكيا أو في أفريقيا يوجد *أناس* يا صديقي الشاب.

- ولكن إذا لم تكن هذه جزيرة أو واحدة من تلك القارّات الكبيرة فما هي إذن؟

- شيء مُختلف تماماً... تمتمَ.

صمتَ من جديد فسألتُ:

- هل تفكر في الأقزام؟

وبدلاً من أن يجيبني على سؤالي تابع:

- طبعاً أنتَ قادمٌ من العالَم الخارجي؟ ولستَ أيضاً من هنا؟

وماذا يعني « أنكَ لستَ أيضاً»؟ وهكذا فإنه كان يفكر بالأقزام.

- لقد أبحرتُ من هامبورغ، قلتُ.

- حقاً؟ أما أنا فقد جئتُ من لوبك...

- ولكن أنا أيضاً! لقد أبحرتُ من هامبورغ على ظهر سفينة نرويجيَّة، ولكن مدينتي الأصل هي لوبك.

- آه، بالفعل؟ إذن عليكَ أن تروي لي كل ما حدث في البلد على مدى السنوات الخمسين الأخيرة التي كنتُ غائباً أثناءها.

أطلعتهُ على ما أعرف: عن نابليون وحروبه جميعها، عن سلب الفرنسيين للوبك في عام ١٨٠٦ وقلتُ خاتماً:

- في عام ١٨١٢، بحسب سنة ميلادي، غزا نابليون روسيا ولكن كان عليهِ أن يقاتل مُنسحباً تاركاً خلفه خسائر فادحة. ثم خسر المعركة العظيمة بالقرب من ليبزغ في عام ١٨١٣ لتصبح جزيرة الب بعدها إمبراطوريته الشخصيَّة الصغيرة. يعود بعدها ببضعة سنوات ويعيد ترميم الإمبراطوريَّة. ثم كانت هزيمة واترلو ليمضي سنواته الأخيرة على جزيرة القديسة هيلانة في جنوب إفريقيا.

استمع الرجل العجوز إليَّ باهتمام بالغ ثم تمتم:

- لقد استطاع أن يرى المحيط على الأقل.

كان يبدو أنه يفكر فيما رويته له حينها ثم قال بعد لحظة:

- لو آمنتَ بأن التاريخ، ولنقل أنه حكاية، قد سار على هذا المنوال منذْ أن غادرتُ أوروبا، ولكن كان يمكن أن يأخذ مساراً آخر تماماً.

كان عليَّ أن أوافقه فالتاريخ مغامرة عظيمة باستثناء أن يكون حقيقيّاً.

أخذتِ الشمس بالغياب خلف الجبال في الغرب وكانت القرية غاطسة في ظِلال المساء، ولكن الأقزام في الأسفل استمروا يركضون في شتى الاتجاهات مُشكلين بعض البقع الملونة بين المنازل. أشرتُ إليهم بإصبعي:

- هل ستحدثني عنهم؟

- طبعاً سوف أروي لكَ كل شيء، ولكن عليكَ أن تعدني ألا يعرفوا شيئاً أبداً عن ذلك.

أشرتُ برأسي وانتظرتُ أن يبدأ فرود قصته.

- لقد كنتُ بحاراً على ظهر سفينة إسبانيَّة تُبحِرُ من فيراكروز في المكسيك إلى كاديكس في إسبانيا. كان معنا حمولة ثقيلة من الفضة على ظهر السفينة. كان الجو جميلاً والبحر هادئاً ومع ذلك ما أن انقضتْ بضعة أيام على مغادرتنا لرصيف الشاطئ حتى غرقنا. لقد وجدنا أنفسنا في مكانٍ ما بين بورتوريكو و برمودا. منطقة كانت تدور حولها كل أنواع الشائعات التي كنا نعتقد أنها لم تكن أكثر من قصص بحارة مؤرَّقين. ولكن هكذا ونحن في صباحٍ جميلٍ وإذ بالسفينة ترتفع فجأةً عنَّ البحر الذي كان صقيلاً كمرآة. يمكننا القول إن يد عملاقٍ قد جعلتْ السفينة تدور وهي ترتفع مثل مفتاح قناني النبيذ. لم يدم ذلك إلا بضع ثوانٍ ثم سقطنا بعدها من جديد. اختل توازن السفينة من وزن الحمولة فمالت على جنبها وبدأ الماء يدخل إليها.

ليس عندي إلا ذكريات غامضة عن الشاطئ حيث رسوتُ في النهاية لأنني أخذتُ استكشف الجزيرة مباشرةً. وبعد عدة أيام من التوهان استقررتُ هنا وجعلتُها مسكني.

كنتُ أتدبر أمري بشكلٍ لا بأس به: البطاطا، الذُرة، التفَّاح، الموز التي تنمو هنا بالإضافة إلى فواكه ونباتات أُخرى لم أكن قد رأيتها في حياتي ولم أكن قد سمعتُ عنها أبداً أصبحتْ عنصراً مهماً في غذائي: كعنب الاستشفاء

وجزر أبو حلقة والنجيليات. كان عليَّ أن أمنح اسماً لكل هذه الأنواع غير المعروفة التي تفيض بها الجزيرة.

بعد بضع سنوات نجحتُ في ترويض تلك المولوك ذوات القوائم الست. كان حليبها حلواً ومغذياً وكان من الممكن أن أستفيد منها كحيوانات جر. كنتُ أذبح واحداً منها من وقتٍ لآخر لكي أتغذى بلحمه الورديِّ الشهيّ. كان ذلك يذكرني بعادة أكل الخنزير البريّ في لوبك في وجبة عيد الميلاد.

على مرِّ السنين ولكي أحمي نفسي من الأمراض قمتُ بتركيب أدويتي من نباتات الجزيرة. أعددتُ بعض المشروبات التي كانت تُساعدني على أن أكون بمزاجٍ رائق. سوف تراني وأنا أشرب غالباً شيئاً ما دعوته «توف» وهو مُر قليلاً، أحصلُ عليه باستخلاصه من جذور نخيل التوفا. فالتوف يوقظني عندما أكون مُتعباً ويجعلني مُتعباً عندما أود أن أنام، هو مُستساغ وبدون آثار جانبيَّة.

ولكنني قمتُ بتحضير ليمونادة أرجوانيَّة أيضاً. إنها مشروبٌ يُحدثُ جنوناً كبيراً في الجسد برمته في حين أن له تأثيرات ضارة جداً وخطيرة جداً بحيث أنني سعيد لأننا لا نتمكن من أن نجده في ألمانيا. يُحصلُ عليه بخلط رحيق زهورٍ أرجوانيَّة: هي شجيرات وردٍ قزميَّة تنبتُ في كل مكان على سطح الجزيرة وتحملُ وروداً أرجوانيَّة صغيرة جداً. لستُ حتى بحاجة لأن اقطفها أو لأعصر الرحيق منها إذ أن نحلات أثخن من عصافير الدوري التي في بلادنا تتكفل بهذا. إنها تبني خلاياها في أشجار مجوفة تودِعُ فيها مؤونتها من الرحيق الأرجوانيّ وليس عليَّ أنا إلا أن آخذ منها.

عندما أمزج هذا الرحيق بماء نهر *قوس قزح* حيث أصطادُ أسماكي الحمراء، أحصلُ على شراب حلو ولامع يفرقع بخفة ومن أجل هذا أسميه « ليمونادة».

ما يجعل الليمونادة الأرجوانيَّة مُذهلة جداً ليس مذاقها الخاص فحسب بل لأنها تداعب الأعضاء بلذة بطعمٍ يمنح كل درجات الذوق المكنة. ما يُذهل أكثر أيضاً أنها لا تنشر مذاقها في الفم والحلق فقط ولكن حتى في أصغر خليَّة في الجسم. لسوء الحظ يا ولدي أنها ليست جيدة جداً للصحة حتى ولو استهلك العالَم كله منها جرعةً واحدة ومن الأفضل تذوق رشفاتٍ صغيرة منها.

ما أن قمتُ بتحضيرها حتى أخذتُ أشربُ منها كل يوم. كان هذا يمنحني مزاجاً أكثر سعادة ولكن كان ذلك في البداية فقط. شيئاً فشيئاً أخذتُ أفقدُ فكرة الزمان والمكان. كان يحدث لي أن أستيقظ فجأة في مكانٍ ما على الجزيرة بدون أن أعرف كيفَ أتيتُ إليه. وكان يمكن أن أتوه أياماً وأسابيع دون أن أجد طريق العودة. كنتُ أنسى حتى مَن أنا ومِن أين أتيت. كل ما كان يحيط بي تقريباً كان جُزءاً مني أنا نفسي. كان ذلك يبدأ مع أحساس بالتنميل في أذرعي وأرجلي ثم يحتل الرأس بعد ذلك، ثم شعرتُ في النهاية أن المشروب ينخر في روحي. آه إني سعيد لأنني عرفتُ أن أتوقف في الوقت المناسب. اليوم يستمر سكان الجزيرة الآخرون بشرب الليمونادة الأرجوانيَّة وسوف أشرح لك بعد قليل لماذا.

لا أنا ولا هو فارقتْ عيوننا القرية بينما كان يتكلم. حلَّ الليل وأشعل الأقزام مصابيح الزيت بين المنازل فقال فرود:

- لقد بدأ الجو يبرد.

نهضَ وفتح باب المنزل الخشبيِّ ودخلنا إلى حجرة صغيرة. كان ترتيب المنزل يشهد أن فرود قد صنع كل شيء بنفسه من مواد الجزيرة. لم يكن هناك

شيء من المعدن، كل شيء كان مصنوعاً من الصلصال ومن الخشب ومن الحجارة. شيءٌ معدنيٌّ وحيد كان يفضح تأثير الحضارة: طاسات، أكواب، مصابيح، أطباق زجاجيَّة وأوعية كبيرة فيها أسماك حمراء، كانت موزعة في الحجرة. كما أن نوافذ البيت الصغيرة كانت بدرفات من الزجاج.

واصل الرجل العجوز كما لو أنه كان يقرأ أفكاري:

- لقد كان والدي خبيراً في صناعة الزّجاج وقد كان عندي الوقت لأتعلم الصنعة قبل أن أركب البحر وكان ذلك مفيداً لي على الجزيرة.

بعد مدة من وصولي بدأتُ أخلط أنواع متعددة من الرمل واستطعتُ بسرعة أن أُذوِّب كتلة من الزجاج من النوعيَّة الأولى في أفران بنيتها من حجارة صلدة. منحتُ هذه الحجارة اسم «دورفي» لأنني وجدتها في الجبل القائم خلف القرية مُباشرةً.

- لقد زُرتُ من قبل مصنع الزجاج، قلتُ.

اكفهر الرجل العجوز وقال:

- أرجو أنك لم تقل شيئاً؟

لم أكن مُتأكداً من فهم ما كان يقصده بـ: «قول شيء ما» للأقزام. فأجبتُ:

- سألتهم فقط عن طريق القرية.

- حسنٌ، والآن لنشرب كأساً من التوف.

جلس كل واحد منا على طبْلية حول طاولة من الخشب الغامق الذي لم يكن معروفاً بالنسبة لي. أخذ فرود غَرفة وصبَّ شراباً كستنائي اللون في كأسين كرويين ثم أشعل مصباحاً زيتياً معلقاً في السقف.

شربتُ بحكمة جرعة من المشروب. كان يمكن القول إنه خليطٌ من جوز الهند والليمون. احتفظتُ بعد أن ابتلعته بفترة طويلة بطعمٍ حامضٍ قليلاً في فمي.

سأل الرجل العجوز بصبرٍ نافد:

- حسنٌ، ما رأيكَ به؟ هذه هي المرَّة الأولى التي أُضيِّف فيها توف لأوروبيٍّ حقيقي.

أجبتُ بأنه جيد ومنعش، وقد كان ذلك حقيقياً.

- حسنٌ، كرَّر، يجب أن أحكي لك الآن عن مُساعديَّ الصغار في المعسكر على الجزيرة. أرى جيداً بأنك تفكر بهم يا ولدي.

وافقتُ فتابع الرجل المسن قصته:

عشرة السبات

لم أستطع أن أفهم كيف أن شيئاً ما يولد من لا شيء .....

وضعتُ العدسة *والكتاب* على طاولة السهرة ثم أخذتُ أذرع القُمرة طولاً وعرضاً مُفكِّراً بكل ما قرأته.

لقد عاش فرود اثنتين وخمسين سنة على الجزيرة المسحورة وهناك قابل في أحد الأيام الأقزام البليدين. إلا إن كان الأقزام قد جاؤوا إلى الجزيرة بعد فرود بوقتٍ طويل؟ وعلى أية حال لا بد أن يكون هو من علمهم فن نفخ الزجاج. ولا بد أيضاً أنه قد علَّم حراثة الأرض للسبات، وطهي الخبز للكُبة، والنجارة للبستون. ولكن من كان هؤلاء الأقزام؟

كنتُ أعرف أنه يكفيني على الأرجح أن أقرأ البقية لأحصل على الجواب، ولكن لكوني كنتُ وحيداً في القُمرة فلم أكُن واثقاً من أنني أجرؤ على ذلك.

أبعدتُ ستائر النافذة فوقعتُ على وجهٍ أُميِّزهُ من بين آلاف الوجوه: *لقد كان القزم*. حدَّجني بنظره من على سطح السفينة ثم اختفى بعد بضعة ثوانٍ من إدراكه أنهُ اكتُشِفَ. كنتُ كالمشلول. وبالكاد كان لدي القوة لأُسدلَ الستائر ثم ألقيتُ نفسي على السرير وأخذت بالنحيب.

لم يخطر على بالي بأنه كان يكفيني أن أُغادر القُمرة وأذهب لأهتدي إلى والدي في البار. كل ما بقي لي من شجاعة هو دفن وجهي تحت المخدة.

لم أعرف كم من الوقت بقيتُ أبكي هكذا. عندما جاء والدي كاد أن ينتزعَ باب القُمرة. كان كما لو أنه سمعَ من بداية الممر صياح أحد الحيوانات.

- ولكن ماذا حدث يا هانس- توماس؟

حملني بين ذراعيه وحاول أن يفتح عينيَّ، فقلتُ وأنا أنتحب:

- القزم... رأيتُ القزم عند النافذة... لقد كان هو.... لقد كان هنا ورنا إليَّ بثبات...

من الواضح أن والدي كان يتوقع أسوء من ذلك إذ أنه أفلتني مُباشرةً وأخذ يذرع القُمرة جيئةً وذهاباً.

- إن هذا كله حماقات، يا هانس- توماس، لا يوجد أي قزم على سطح هذه السفينة.

- ولكنني رأيتهُ، قلتُ بإصرار.

- لا بد وأنكَ رأيتَ رجلاً صغيراً، تابعَ.

وما زال أبي يجادلني حتى نجحَ تقريباً في إقناعي أنني كنتُ مُخطئاً، وعلى أي حال فقد نجح في تهدئتي. ولكي لا أعودَ إلى الموضوع فقد فرضتُ شرطاً يقضي أن يسأل والدي الطاقم ما إن كان ثمة قزم على سطح السفينة وذلك قبل وصولنا إلى باتراس.

وبينما كنتُ لا أزالُ أنتحبُ سأل والدي:

- ألا ترى أننا ربما نتفلسف أكثر من اللازم؟

أشرتُ بلا بحركةٍ من رأسي فتابع:

- علينا أولاً أن نجد *ماما* في أثينا وسوف نهتم لاحقاً بألغاز الحياة الكُبرى. وعلى أي حال لا شيء عاجل إذ أن أحداً لن يأتي ليستولي على مشروعنا من الآن حتى ذلك الحين.

نظر إليّ من جديد ثم قال:

- الاهتمام بطبيعة الإنسان وأصل العالَم هو أحد المشاغل النادرة جداً والتي لا بد أن نكون وحدنا من يمارسها عملياً. أولئكَ الذين هُم مثلنا والمهتمون بهذه المسائل مشتتون جداً عبر العالَم بحيث أنهم لا يكلفون أنفسهم بتكوين جمعيَّة خاصة بهم.

عندما توقفتُ عن البكاء صبَّ بعض قطرات الكحول في كأسي. آه فقط نصف سنتيمتر، مده لي بعد أن أضاف إليه الماء.

- هيَّا اشرب هذا، يا هانس- توماس. مع هذا ستنام جيداً هذه الليلة.

ابتلعتُ بمشّقة بعض قطرات ذاك المزيج الذي يثير الاشمئزاز والذي لا أقدر على أن أفهم فعلياً ما يجد أبي فيه.

في اللحظة التي ذهب فيها ليستلقي في الفراش أخرجتُ الجوكر الذي حصلتُ عليه من السيدة الأمريكيَّة وقلتُ:

- خذ. إنني أُعطيه لك.

أخذه وتفحصه باهتمام بالغ. لا أعتقد أنه كان نادراً بشكلٍ خاص، ولكن وللمرَّة الأولى في حياته يزوده ابنه بجوكر.

وكطريقة للشكر قام بإجراء سحرٍ بالورق. دسَّ الجوكر بين الأوراق في علبة ورق أخرجها من حقيبة سفره. وضع بعدها العُلبة على طاولة السهرة وفي الثانية التالية رفع ذراعيه وبدا كما لو أنه التقط الجوكر من الهواء.

كنتُ قد تابعتُ مع ذلك أدنى حركة من حركاته وأستطيع أن أحلف أنه قد دسَّ الجوكر جيداً في عُلبة الورق. هل أخرجه من كُمِّهِ؟ ولكن في هذه الحالة كيف دسَّه في علبة الورق؟ لم أستطع أن أفهم كيف أن شيئاً ما يولد من لا شيء.

وفى والدي بوعده في صباح اليوم التالي بسؤال الطاقم عن القزم. ولكن وبما أن جوابهم كان بالنفي فقد استنتجتُ أن القزم كان مُسافراً خفياً.

شب السباتي

إذا كان العالَم عملاً سحرياً فيجب أن يكون هناك أيضاً ساحرٌ عظيم....

اتفقنا على أنه سوف لن يكون لدينا الوقت لتناول الفطور قبل وصولنا إلى باتراس. ضبطنا المنبه على الساعة السابعة، أي قبل ساعة من الرسو. ولكنني كنتُ مستيقظاً عند الساعة السادسة.

وأول ما رأيته هو العدسة و*الكتاب*. لقد نسيتهما ملقيين على طاولة السهرة لأنني كنتُ مُضطرباً. وبشيء من حسن الحظ، فإن والدي لم يلاحظ شيئاً.

كان لا يزال نائماً، ولم أتوقف منذ استيقظتُ عن مُساءلة نفسي: ما هي الأسرار التي كان سيكشفها فرود فيما يتعلق بأقزام الجزيرة. قررتُ أن أكمل القراءة إلى أن يتقلب والدي في سريره إشارةً على أنه سيستيقظ قريباً.

عندما كنا في البحر، كنا جميعاً لاعبي ورق مدمنين. كان معي دائماً عُلبة ورق لعب في جيب قميصي وهي كل ما استطعتُ حمله عند الغرق.

ولكي أحتال على عزلتي في السنوات الأولى كنتُ أقوم غالباً بألعاب الصبر. كانت أوراق اللعب هي الصور الوحيدة التي لدي على الجزيرة. لم أكن ألعب فقط ألعاب الصبر المعروفة في بلدي ألمانيا أو في البحر؛ فمع لُعبة باثنتين وخمسين ورقة- وبحر من وقت الفراغ- فلا حدود لألعاب الصبر أو لألعاب يمكن أن تُبتكر. وضعتُ هذا ببالي بسرعة.

انتهيتُ إلى أن منحتُ لكل لون صفاتٍ خاصة. وأخذتُ أعتبرهم شيئاً فشيئاً اثنين وخمسين فرداً ينتسبون إلى أربع عائلات مختلفة: فسُحنة السبات برونزية وبنيته متينة وشَعره قصير أجعد. بينما كان الديناري أنحف وأرشق وأظُرف. كانت بشرتهم بيضاء تقريباً وشَعرهم قاسٍ ملفوف ذو انعكاسٍ فضّي. والكُبة، كانوا على وجه الخصوص مُبجلين أكثر من الآخرين. كان لأجسامهم هيئة أكثر تكوراً، خدودهمورديّة ولبدة شعرهم جميلة وشقراء. وبالنسبة للبستون، ياااه. لقد كانوا في غاية النحافة وذي سحنة داكنة وملامح عابسة حادة وعيون عاتمة جاحظة وشعرٍ أسود مُتشابك.

هكذا كانت تبدو لي الأوراق عندما كنتُ أقوم بإحدى ألعاب الصبر. كل مرّة كنتُ أرمي فيها ورقة كانت كما لو أنني حرَّرتُ جنّياً من قنينة مسحورة. جنّي، نعم- إذ لم يكن مظهرهم فقط هو الذي يتنوع من عائلة إلى أُخرى بل وطباعهم كذلك: للسبات طبيعة أكثر بلادةً وخمولاً من الديناري ذوي الطبع الأكثر حساسية والأكثر شروداً. كان الكُبة أكثر انفتاحاً وأكثر غبطة من البستون الأكثر انعزالاً ونزقاً. ولكن في داخل كل عائلة كان يوجد اختلافات كبيرة. كان كل الديناري حسّاسين جداً، ولكن ثلاثة الديناري كانت تجهش

بالبكاء لأيسر سبب. كل البستون يغضبون لأتفه سبب، ولكن كان عشرة البستون أسرعهم غضباً.

هكذا وعلى مدى سنوات خلقتُ اثنتين وخمسين شخصية غير مرئيَّة عاشت بشكلٍ ما معي على الجزيرة. لقد كانوا في الحقيقة ثلاثة وخمسين فرداً لأن الجوكر استُحضَر ليلعب دوراً مُهماً.

- ولكن كيف....

- لا أعرف إن كان بوسعك أن تتصور إلى أي درجة كنتُ وحيداً. كان الصمت من حولي بلا نهاية. كنتُ أُصادف فقط حيوانات متنوعة: كان المولوك والبوم يوقظونني في الليل، ولكن أبداً لم يكن عنديٌّ شخص أتحدث إليه. مع انقضاء بضعة أيام بدأتُ أتحدث مع نفسي وبعد عدة أشهر أخذتُ أتحدث أيضاً مع أوراق اللعب. كنتُ أضعهم في دائرة حولي مُتخيلاً إياهم أشخاصاً حقيقيين من لحم ودم مثلي أنا. وأحياناً كنتُ أختار ورقة واحدة لأُجري معها حديثاً طويلاً.

باللعب بلَيتْ أوراقي بسرعة. محت الشمس الألوان ولم أعد أستطيع تقريباً أن أُميز ورقة من أُخرى. لذلك وضعتُ تلك الأوراق البالية في علبة خشبية أحتفظ بها حتى يومنا هذا. ولكن الشخصيات المختلفة التي خلقتُها بقيتْ تعيش في ذهني. كنتُ أُجري ألعاب الصبر بالتخيل ولم أعد بحاجة للعبة ورق فعليَّة، كما هو الحال عندما نصبح قادرين على العدّ ذهنياً بدون استخدام العدّاد: سبعة زائد ستة *يساوي* ثلاثة عشر بدون حتى أن نقوم بجمع خرزات العدّاد.

واصلتُ إذن الحديث إلى أصدقائي غير المرئيين إلى أن تخيلتُ في النهاية أنهم يجيبونني مع أن هذا لم يكن إلا في مخيلتي. كان هذا يحدث على الأخص

عندما أكون نائماً لأنني كنتُ دائماً أجد أوراقي من جديد في أحلامي. كنا نُشكل نموذجاً لمجتمع مُصغَّر.

كانت الأوراق في أحلامي قادرةً على أن تتصرف وتتفاعل مع بعضها البعض لذا كنتُ أشعر أنني في الليل أقل وحدة مني في النهار. استطاعت الأوراق إذن أن تتكشف عن شخصياتها كلها. لقد تحررتْ من وعيي محققةً وجودها من شيوخ وبنات ورجال ونساء.

كانت لدي علاقة مع بعض الأوراق أقوى منها مع بعضها الآخر. تحادثتُ طويلاً في البداية مع شب السبات، كما أنني كنتُ أُحب أن أُمازح عشرة البستون، ولكن فقط إلى درجة لا يستشيط معها غضباً بشكلٍ كبير.

على مدى فترةٍ كاملة كنتُ عاشقاً بشكلٍ سرّي لآس الكُبة. كانت عُزلتي كبيرة جداً إلى أن وصلتُ أن أحببتُ مخلوقاً من مُخيلتي. كنتُ أظن أنني أراها فعلياً. كان لديها شعر طويل أشقر وعينان خضراوان جميلتان وترتدي فستان أصفر. كنتُ أفتقد المرأة أيّا افتقاد على الجزيرة. في ألمانيا كانت عندي خطيبة صبيَّة تُدعى *ستين*. لا بُد وأنه قد قيل لها بأن عشيقها قد غرق في البحر.

مَسَّدَ الرجل العجوز لحيته وصمت غارقاً في أفكاره ثم قال في النهاية:

- لقد تأخر الوقت يا ولدي، ولا بد أنك مُنهك من كل تلك المغامرات. هل تريد أن نكمل في الغد؟

- أوه لا، اعترضتُ محتجاً، أريد أن أسمع كل شيء.

- نعم بالطبع. من جهةٍ أُخرى عليك أن تعرف كل شيء قبل حفلة الجوكر.

- حفلة الجوكر؟
- نعم، حفلة الجوكر.

نهض وطاف في الحُجرة ثم قال:

- ولكن لا بد أنك تتضور جوعاً.
- في هذا معك حق.

ذهب الرجل العجوز إلى النملية ووضع طعاماً في صحونٍ أخاذة من الزجاج وضعها أمامنا.

كنتُ أتصور أن الغذاء على هذه الجزيرة سيكون بسيطاً ومتقشفاً، غير أنني كنتُ مُخطئاً تماماً: وضع فرود أولاً خبزاً أسمر وخبزاً أبيض على الطاولة، وأجبان ومعجّنات مختلفة كما أحضر إبريقاً مملوءاً بحليبٍ بدا أبيض ولذيذاً والذي كان لا يمكن أن يكون إلا حليب المولوك. وكانت التحلية حاضرة هناك أيضاً: إناءٌ عملاق فيه عشرة أو خمسة عشر نوعاً من مختلف أنواع الفواكه عرفتُ منها التفاح والبرتقال والموز من بين فواكه أُخرى لا تنبتُ إلا على هذه الجزيرة.

بقينا مدة طويلة نأكل قبل أن يكمل فرود قصته.

كان طعم الخبز والجبن مختلفاً قليلاً عن ذاك الذي كنتُ مُعتاداً عليه، تماماً مثلما هو حال الحليب الذي كان أحلى من حليب الأبقار بكثير. ولكن أكثر ما بلبلني هو تلك الفاكهة التي كان بعضها مدهشاً بحيث كانتُ تدفعني لإطلاق صرخاتٍ صغيرة أو للقفز عن طبليتي.

- لم أعان أبداً من ندرة الغذاء. قال الرجل العجوز وهو يقطع شرحة من فاكهة ضخمة مستديرة بحجم يقطينة جوفها لين وأصفر مثل الموز. ثم تابع:

- وفي أحد الأيام حدث ما كان يجب أن يحدث. كانت أحلامي كثيفة بشكلٍ استثنائي في تلك الليلة. خرجتُ من المنزل مبكراً في الصباح حيث كان العشب لا يزال رطباً ندياً و كانت الشمس قد ظهرت خلف الجبال مباشرةً. كنتُ قادماً من الشرق وأنا أُحاذي النهر لما رأيتُ انبثاق طيفين. ظننتُ أن هناك من هو قادمٌ لزيارتي في النهاية فركضتُ نحوهما. أخذ قلبي يخفق بين ضلوعي بشدة وعندما اقتربا تبينتُ أنهما شب السبات وشيخ الكُبة.

اعتقدتُ أولاً أنني قد حلمتُ بتلك المقابلة الفريدة، ولكنني كنتُ مستيقظاً تماماً. وكيف كان لي أن أثق أنني لا أزال أحلم؟

حيَّاني الرجلان كصديقين قديمين. وكان ذلك حقيقياً في نهاية الأمر.

- إنه صباح جميل. أليس كذلك يا فرود؟ ابتدأ شيخ الكُبة.

لقد كانت هي الكلمات الأولى التي يلفظها شخصٌ آخر غيري أنا على الجزيرة.

- يجب أن نبذل وسعنا ليكون يومنا مفيداً، أضاف شب السبات.
- ماذا لو بنينا بيتاً جديداً؟ اقترح الشيخ.

وقد اقترن القول بالفعل مباشرةً. أمضيا الليالي الأولى في بيتي وبعد عدة أيام استطاعا أن يقيما في منزلٍ جديدٍ أسفل منزلي بالضبط.

لقد أصبحا زميلين لي في كل شيء على الرغم من أنهما لم يعرفا أبداً بأنهما لم يعيشا على هذه الجزيرة سنوات تساوي تلك التي عشتها أنا إذ كيف كان لهما أن يتمكنا من إدراك أنهما لم يكونا سوى فيض من فكري؟ هذا أفضل لكل المخلوقات الصادرة عن المخيلة فلا شيء مما نخلقه من ذاتنا لديه وعي

بما هو عليه. وهذا الأمر يتجلى بشكلٍ خاص لدى كل هذه الشخصيات المخلوقة بأجزائها جميعاً إذ أنها قد خرجت من غياهب دماغي لتحيا خارجه.

- ولكن..... هذا مستحيل. قلتُ مغمغماً.

تابع فرود برصانة:

- جاءت الشخصيات الأخرى تباعاً. كان الأكثر قدماً يجدون ذلك شيئاً طبيعياً تماماً ولم يشعروا بالغيرة. كانوا يتصرفون كأشخاص يتلاقون بالصدفة في الحديقة ويأخذون بالكلام كما لو كانوا يعرفون بعضهم، وهذا صحيح وفقاً لمجموعة من المعايير إذ أنهم قد عاشوا في مخيلتي منذ سنوات. أولم أحلم ليلاً نهاراً أنهم يتحادثون فيما بينهم؟

بعد ظهيرة أحد الأيام حيثُ كنتُ أقطع الخشب عند أسفل المنزل مباشرةً قابلتُ آس الكُبة لأول مرَّة. لقد جاءت في منتصف لعبة الورق تقريباً.

لم ترني مباشرةً فقد كانت مشغولة بالتجوال وهي تغني لحناً أخاذاً. توقفتُ والدمع في عينيَّ وفكرتُ بستين. مع ذلك فقد تشجعتُ وناديتها متمتماً:

- يا آس الكُبة.

رفعتْ عينيها وارتمت على عنقي قائلة:

- ما أسعدني بلقائك، ماذا كان يمكن أن أفعل بدونك؟

لم يكن السؤال بدون أساس فبدوني ما كان لها أن تفعل شيئاً على الإطلاق، ولكنها لم تكن تعرف ذلك، وحرصتُ أن لا تعرفه أبداً.

كان فمها أحمراً جميلاً جداً. فوددتُ أن أُقبّلها ولكن شيئاً ما منعني من فعل ذلك.

كان لابد من بناء منازل جديدة، مع استقرار الوافدين الجدد شيئاً فشيئاً على الجزيرة وهكذا فإن قرية كاملة رأت النور من حولي. لم أعد وحيداً فقد شكّلنا مُجتمعاً أُنيطت مهمة بكل واحد من أفراده.

منذ خمسٍ وثلاثين أو أربعين سنة اكتملتْ لعبة الصبر بالاثنتين وخمسين ورقة، باستثناء الجوكر الذي تأخر في الوصول إلى الجزيرة ستة عشر أو سبعة عشر عاماً عن الآخرين ليعكّر علينا هناءنا. لقد نشر الفوضى في عالمنا الطفولي بعد أن كنا قد أَلِفنا وجودنا وعيشنا جميعاً في وئام. ولكن هذه قصة أُخرى يا هانس، وغداً سيكون يومٌ آخر أيضاً. إذا كانت هذه الجزيرة قد علمتني شيئاً فهو أن الأيام تلحق بالأيام.

لقد كان كل ما قصَّه عليّ فرود لا يُصدَّق ولا أزال أتذكره اليوم كلمة كلمة.

كيف أمكن لثلاثٍ وخمسين شخصية من الورق أن يُبعثوا فجأةً للواقع من لحمٍ ودم؟

- هذا... هذا مستحيل. كرَّرتُ.

أشار فرود برأسه وقال:

- على مدى بضع سنوات نجحتْ الأوراق في أن تفلت من وعييّ وتتجسد على الجزيرة التي وجدتُ نفسي عليها. اللهم إلا إذا كنتُ أنا قد عكستُ الأمور؟ وهذا احتمالٌ قائم غالباً ما فكّرتُ فيه.

فمع أنني عشتُ مع كل هؤلاء الأصدقاء الجدد لسنوات طويلة جداً، ومع أننا بنينا القرية وحرثنا الأرض وحضَّرنا طعامنا وتناولنا وجباتنا معاً فإنني لم أتوقف أبداً عن مُساءلة نفسي عن مدى حقيقة الشخصيات التي تحيط بيّ.

فماذا لو كنتُ *أنا* هو من جاءُ من عالَم الأحلام؟ ماذا لو كنتُ قد أضعتُ نفسي فعلاً ؟ ولا أقصد بهذا الضياع على الجزيرة الكبيرة فحسب ولكن في منعطفات مخيلتي الشخصيَّة؟

وإذا كان الأمر كذلك: فهل سأعود يوماً إلى الواقع؟

عندما رأيتُ شب الديناري يقودك نحو النبع تيقَّنتُ في النهاية أن حياتي واقعية فعلاً. فأنتَ لستَ في النهاية جوكر في لعبة ورق يا هانس؟ أنا لم أحلم بكَ أنتَ أيضاً؟

ألقى عليَّ الرجل نظرةً متوسِّلة فسارعتُ بالرد:

- ولكن لا. أنتَ لم تحلم بي. أعذرني أن أعيد السؤال إليكَ معكوساً: إن لم تكن أنتَ هو النائم فيجب أن أكون أنا. أنا من يحلم بكل هذه المغامرات اللاواقعية التي ترويها لي.....

بدأ والدي يتحرك فقفزتُ عن السرير، لبستُ سروالي واضعاً *الكتاب* في أحدى جيوبه. لم يستيقظ أبي مباشرةً فذهبتُ إلى النافذة وانزلقتُ خلف الستائر فرأيتُ اليابسة ولكن ذلك لم يجعلني فرحاً ولا حزيناً فقد كانت أفكاري في مكانٍ آخر. فلقد كنتُ غارقاً في حقبةٍ أُخرى أنا أيضاً..

إذا كان ما قصَّه فرود على هانس الفرَّان حقيقياً فعلاً فإنني أكون قد قرأت المغامرة الأكثر أسطورية في العالَم. ليس بالأمر البسيط إخراج لعبة ورق كاملة، ولكن أن تُبعث شخصيات من لحمٍ ودم لتعيش باستقلالٍ عن خالقها فهذه عملية سحرية تفوق كل المستويات. ولا بد أن هذا يتطلب العديد من السنوات.

أخذت تراودني شكوك جديَّة فيما يخص قصة *الكتاب* بكاملها. ومن جهةٍ أُخرى فإنني بدأتُ من يومها أعتبر العالَم- وكل الناس الذين يعيشون على سطح هذه الأرض- كعملٍ سحري فريد عظيم.

ولكن إذا كان العالَم عملاً سحرياً فيجب أن يكون هناك أيضاً ساحِرٌ عظيم وأتمنى أن أنزع عنه القناع يوماً. ولكن ليس من السهل تفسير العمل السحري عندما لا يُجري الساحر سحره على المسرح.

أصبح والدي مثل أسدٍ في قفص عندما جذب الستائر ورأى رقعة الأرض قريبة جداً فقال:

- سنكون بعد قليل في أرض الفلاسفة.

بنت السباك

إن السيّد كان بوسعه أن يُوَقّع عمله الرئيسي قبل أن يفر هارباً

أول شيء قام به والدي عند نزولنا في بيلوبونيز هو شراء عدد من المجلة النسائية التي وجدتها عمتي في كريت.

جلسنا على رصيف أحد المطاعم في المرفأ الذي يعج بالنشاط وطلبنا فطوراً. كان والدي يتصفح المجلة أثناء انتظار القهوة وعصير الفواكه والخبز البائت مع قليل من مربى الكرز المليء بالماء، ثم صرخ فجأة:

- اللعنة.

قَلَبَ المجلة وأراني صفحة كاملة عليها صورة لِماما. لم تكن متعرية مثل نساء لعبة ورق ڤيرون ولكنها كادت أن تكون. بالتأكيد كان لديها أعذارها: فقد كانت تعرض مايوه سباحة.

قال والدي:

- ربما سنلتقي بها في أثينا ولكن سيكون من الصعب إعادتها إلى المنزل.

كان ثمة كتابةٌ ما في الأسفل على اليسار، لكنها كانت باليونانية و حتى والدي نفسه يعجز عن قراءتها، ليس فقط بسبب معنى الكلمات، ولكن بسبب الأبجدية اليونانية التي لم تكلف نفسها حتى الآن اعتماد لغتنا.

حضر الفطور ولكن والدي لم يستطع أبداً أن يأخذ رشفة من القهوة. تأبط المجلة وذهب من طاولة إلى أُخرى باحثاً عن من يتكلم الإنجليزية أو الألمانية. التقى في النهاية شباناً أراهم صورة ماما ورجاهم أن يترجموا له ما كان مكتوباً بشكلٍ صغيرٍ جداً. ألقى عليّ الشبان نظرة فأملتُ بشيء واحد وهو: أن لا يشتمهم أبي متهماً إياهم بخطف النساء النرويجيات أو شيئاً من هذا القبيل. لقد كان ذلك المشهد صعب الاحتمال.

وعندما عاد إلى طاولتنا أشار لي والدي إلى اسم وكالة إعلانات في أثينا كان قد قام بنسخه.

- نحن نخترق، كانت تلك هي كل كلماته.

كان في المجلة العديد من الصّور ولكن والدي لم يكن مهتماً إلا بصورة ماما. انتزع الصفحة بعناية ورمى الباقي في المهملات بنفس الطريقة التي يرمي بها علبة ورق كاملة بعد أن يأخذ منها الجوكر.

كان أقصر طريق إلى أثينا يمر في الجنوب عبر خليج كورنثة ويجتاز مضيقها الشهير، ولكن والدي كان يسلك دائماً الطريق الأطول عندما يجد أن هناك دورة ممتعة ليقوم بها.

في حقيقة الأمر كان لديه سؤالٌ ليطرحه على ***وسيط الوحي*** (l'oracle) في معبد دلف. مما يعني أنه كان يتوجب علينا أن نجتاز المضيق بالعبّارة والالتحاق بدلف بالصعود إلى شمال الخليج.

لم يستغرق السفر بالعبّارة إلا نصف ساعة. وبعد أن قطعنا عدّة كيلومترات وصلنا إلى مدينة صغيرة اسمها نافباكتوس. توقفنا وشربنا قهوة وليمونادة في ساحة سوق كانت تُطِلُ على القلعة البندقية♣.

كان من الطبيعي أن أفكر بما كان قد يحدث عندما نلتقي ماما في أثينا وكذلك بالقصة التي قرأتُها في *الكتاب*. ففكرتُ بأسلوبٍ لمقاربة بعض الموضوعات مع أبي دون أن أفضح نفسي كثيراً.

أشار والدي إلى النادل وطلب الفاتورة بينما جازفتُ أنا بسؤاله:

- هل تؤمن بالله يا أبي؟

بقي مندهشاً وسألني بدوره:

- ألا تجد أن الوقت لا يزال مبكراً قليلاً في الصباح؟

كنتُ متفقاً معه، ولكن والدي لم يكن يعلم أيّ حالة كانت تنتابني مع بداية الصباح بينما كان هو لا يزال في عالَم الأحلام. لو أنه فقط كان يعلم! لقد كان يتلاعب بالمصطلحات ويذهلني بخدع الورق عندما يريد، ولكني قد رأيتُ علبة ورق كاملة باثنتين وخمسين ورقة تبعث حية فجأة وتصبح موجوداتٍ من لحمٍ ودم. فتابعتُ:

- إذا كان هناك ربٌ موجود فإنه ماهرٌ جداً في لعبة الاختباء عن مخلوقاته.

قهقه والدي ففهمتُ بأنه كان متفقاً معي وقال:

- ربما قد خاف لمّا رأى ما خلقه ففضل الفرار. أتعرف، ليس من السهل معرفة من كان خائفاً أكثر آدم أم السيِّد (le maître). اعتقد أن فعل خلقٍ

♣ نسبة إلى مدينة البندقية.

كهذا قد أفزع كِلا الطرفين. ولكنني أُسَلِّم أن السيِّد كان بوسعه أن يُوَقِّع عمله الرئيسي قبل أن يفر هارباً.

- يُوَقِّع؟

- كان بإمكانه أن يحفر اسمه، ما أدراني أنا، ربما على صخرة على سبيل المثال. أليس كذلك؟

- إذن أنتَ لا تؤمن بالله؟

- أنا لم أقل ذلك. لقد قلتُ لكَ من قبل إن الله في السماء يتسلى كثيراً برؤية الناس لا يؤمنون به.

ثم تابع:

- ربما لم يترك بطاقة زيارة ولكنه ترك العالَم وهذا ليس بالسيئ جداً.

التقط الأب أنفاسه قبل أن يتابع:

- كان رائد فضاء وجرَّاح دماغ روسيان يتحدثان عن المسيحية. كان الجراح مسيحياً أما رائد الفضاء فلا. تبجح رائد الفضاء بالقول: « كثيراً ما ذهبتُ إلى الفضاء ولكني لم أرَ فيه ملائكةً أبداً.» وبماذا أجاب الجراح: «حسنٌ، كثيراً ما أجريتُ عمليات لأدمغة ذكية جداً ولم أجد فيها أبداً أدنى فكرة.»

لقد اخترعتَ هذا الآن؟ سألتُ.

هزَّ رأسه:

- أوه، لقد كانت هذه واحدة من الطُّرَفِ المفضلة لأستاذنا. أستاذ الفلسفة في ارندل.

الشيء الوحيد الذي قام به والدي ليحصل على ورقة تُقِرُ أنه فيلسوف هو اجتياز امتحان في الفلسفة في الجامعة الشعبية. كان يقرأ معظم الكتب المتعلقة

بالمسألة، ولكنه كان يَحْضُر طيلة الخريف دروس عن تاريخ الفلسفة لأساتذة جامعيين كانت تُلقى في قاعات مدرسة الممرضات في ارندل.

وجد والدي أن الاستماع إلى ذلك «الأُستاذ الجامعي» غير كافٍ فدعاه إلى المنزل في هيسوي شارحاً لي: «ما كان يمكن أن أتركَ شخصاً من هذا النمط وحيداً في الفندق» وهكذا فقد تعرفتُ عليه أنا أيضاً. هذا النمط كان طاحونة كلام حقيقية. كان مهووساً كوالدي بالمسائل الميتافيزيقية الكبرى مع فارق أن «الأستاذ» كان نصف داهية بينما كان والدي داهية لا أكثر ولا أقل.

كان والدي لا يزال يراقب القلعة البندقية ثم قال:

- لا. لقد مات الله يا هانس- توماس ونحن الذين قتلناه.

كان ذلك التصريح غير مفهوم أبداً وصادم جداً بنفس الوقت ففضلتُ أن أترك هذا جانباً في تلك اللحظة.

وعندما تركنا خليج كورنثة وراءنا بدأنا نرتقي الجبال بصعوبة لكي نصل إلى دلف ونحن نحاذي بساتين الزيتون اللامتهية. كان يمكن لنا أن نصل إلى أثينا في نفس النهار، لكن والدي أكد لي بأنه كان من المستحيل أن يمرَّ بدلف كالإعصار دون أن يُحَيِّي المعابد القديمة كما يليق بها.

وصلنا إلى دلف في منتصف النهار ووجدنا مباشرةً فندقاً مشرفاً على المدينة مع إطلالة لا يحجبها شيء عن خليج كورنثة. من بين مجموعة كبيرة من الفنادق اختار والدي هذا الفندق ذا الإطلالة الأجمل.

من الفندق اجتزنا المدينة على الأقدام لنذهب نحو المعابد القائمة على بعد بضعة كيلومترات في الشرق. وعند اقترابنا من الحفريات الأثرية شرح لي والدي:

- على مدى الحقبة القديمة كان الناس يأتون إلى هنا ليطلبوا مشورة وحي أبولون. كانوا يطرحون عليه كل أنواع الأسئلة: من كان عليهم أن يتزوجوا، أو أين يمكن لهم أن يسافروا، أو متى سينطلقون في حرب ضد دول أُخرى، أو أي تقويم عليهم أن يتبعوا ....

- ولكن ما الوحي؟ أود أن أعرف.

فروى لي والدي أن زيوس قد أرسل عُقابين كان عليهما أن يُحلّقا فوق الأرض باتجاهاتٍ مُتعاكسة. وبما أنهما التقيا في دلف فقد استنتج الإغريق من ذلك أن دلف هو مركز العالَم. لهذا كان على أبولون أن يصرع التنين الرهيب بايثون الذي جاء منه اسم بايثي الذي أُطلق على كاهنته، قبل أن يتمكن من الاستقرار في دلف، وعندما مات التنين تحوَّل إلى أفعى رافقتْ أبولون دائماً.

عليّ الاعتراف أنني لم أفهم الكثير مما رواه لي والدي فهو لم يقل لي حينها أبداً ما الوحي. اقتربنا من مدخل المعابد التي كانت في منخفض صخريّ في أسفل جبل بارناس. فوق ذلك الجبل كانت تحيى آلهات الفن اللواتي كن يتشاورن مع الناس أصحاب المواهب الفنية.

اشترط والدي عليَّ، قبل الدخول إلى المعبد، أن أشرب من النبع المقدس القائم في الأسفل مؤكداً أنه كان على الجميع أن يتطهروا هنا قبل أن يدخلوا إلى الأماكن المقدسة مضيفاً ان هذا النبع يمنح الحكمة والمواهب الشِّعرية لكل من يشرب منه.

اشترى والدي من على المدخل خارطة تمثل الموقع منذ ألفي سنة. أدركت أنه اشترى شيئاً مفيداً إذ لم يبقَ إلا الأطلال هنا وهناك.

مررنا أولاً من أمام بقايا غرفة الكنز للمدينة القديمة. كان من البديهي أن القدوم لطلب نصيحة الوحي لم يكن ليتم دون حمل هدايا ثمينة لأبولون والتي كانت تُحفَظُ كلها في منزلٍ على حِدة.

عندما وجدنا أنفسنا في النهاية أمام المزار الكبير فإن والدي قدَّم أفضل شرح لما هو الوحي مبتدئاً بالقول:

- أن الأطلال التي تراها هي كل ما تبقى من معبد أبولون. في مدخل المعبد يوجد حجر محفور كان يدعى «السُّرة» لأن الإغريق كانوا يعتقدون أن هذا المعبد هو مركز العالَم.

كانوا بالإضافة إلى ذلك يعتقدون أن أبولون يسكن داخل هذا المعبد– في بعض مراحل السنة. وإلى هذا المعبد كان يأتي الزائرون لاستشارته عبر وساطة العرّافة (بايثي) الجالسة على منصبٍ فوق صدع في الأرض. كان يتسرب غاز مدوِّخ من ذلك الشق يجعل الكاهنة شبه فاقدة للوعي لكي تتمكن من أن تكون الناطق باسم أبولون. و عندما يصل المرء إلى دلف يلقي بسؤاله لخادمي السِّر الذين ينقلونه إلى (بايثي) التي تتلفظ عندها بأصواتٍ مُتعددة يقوم خادمي السِّر بتأويلها ونقلها إلى صاحب السؤال. بهذه الطريقة كان الإغريق يستفيدون من حكمة أبولون لأنه كان يعرف كل شيء عن الماضي والحاضر.

فسألتُ والدي:

- ونحن ماذا سنسأله؟

فأجاب:

- سوف نسأله ما إن كنا سنجد أنيتا في أثينا. سوف تكون أنتَ خادم السِّر الذي يؤوِّل الجواب

وسأكون أنا بايثي التي تحمل جواب الإله.

مع هذه الكلمات جلس على أنقاض معبد أبولون الشهير وبدأ يلوِّح بذراعيه ويدير رأسه كالمجنون. تراجع بعض السواح الفرنسيين والألمان خائفين وطرحتُ أنا السؤال بجديَّة عالية:

- هل سنجد أنيتا في أثينا؟

كان من الواضح أن والدي قد سمع مدد أبولون ولكنه انتهى إلى القول:

- الرجل من البلاد البعيدة..... يلتقي المرأة الجميلة...... قريباً من المعبد القديم.

عاد إلى طبيعته وأومأ أليَّ بإشارة صغيرة برأسه مُقتنعاً:

- أعتقد أن هذا يجب أن يكون كافياً فجواب بايثي لم يكن أبداً أكثر وضوحاً.

لم أوافقه الرأي لأن الجواب كان غير مُقنِع. فمن هو الشاب؟ ومن هي المرأة الجميلة؟ وأين هو ذلك المعبد القديم؟ فقلتُ:

- سوف نلعب وجهاً أو كتابة لنعرف ما إذا كنا سنجدها. إذا كان أبولون قد تكلم عبر فمك فلا بد أنكَ تستطيع أن ترمي بقطعة نقود في الهواء.

وافق والدي على اقتراحي. أخرج من جيبه قطعة من فئة العشرين دراخما وقررنا أن جهة الوجه تعني أننا سننجح في العثور على ماما. رميتُ القطعة في الهواء وانتظرتُ بفارغ الصبر.

كانت وجهاً بغير شك. كان الوجه ينظر إلينا كما لو أنه موجود هنا منذ آلاف السنين ينتظر أن نمر من هنا مندفعين لإيجاده.

شيخ السبات

آلمه أن لا يعرف سوى القليل جداً عن العالَم وعن الحياة .....

بعد أن ضمن لنا الوحي أننا سنجد ماما في أثينا واصلنا الصعود لنستكشف مسرحاً قديماً . لقد كان هذا المسرح يستوعب قرابة خمسة آلاف مشاهد . ومن هذه النقطة متّعنا ناظرينا بإطلالة خلابة مشرفةٍ على الوادي وعلى المكان بأكمله .

عندما عاودنا النزول قال لي والدي :

- هناك شيء آخر يجب أن تعرفه عن وحي دلف يا هانس- توماس . أنتَ تعرف أن لهذا الموقع أهمية خاصة جداً بالنسبة لفلاسفة مثلنا نحن .

كنا نجلس عندها على أحجار قديمة وكان التفكير بأن عمر هذه الأحجار هو قرابة ألفي سنة يُوَلِّدُ إحساساً غريباً .ثم بدأ والدي بالقول :

- هل تتذكر سقراط؟

- ليس تماماً . كان عليَّ أن أجيب . إنه فيلسوف يوناني على ما أعتقد .....

- بالضبط تماماً . حسناً ، سوف أشرح لكَ أولاً ماذا يعني مصطلح «فيلسوف» .

فأدركتُ أنه سيكون عليَّ تحمل درسٍ كامل على أصوله وبصدق فإنه قد أختار لحظة غير مناسبة إذ أن الشمس كانت تسفع سفعاً حتى أن العرق كان يكد وجوهنا .

- « الفيلسوف» هو ذلك الشخص الذي يبحث عن الحكمة ، وهذا لا يعني أن عليه أن يكون حكيماً بالضرورة . هل تدرك الفارق؟

أشرت إليه موافقاً فقال :

- كان سقراط هو أول من طبّق هذا التعريف إذ كان يتجول في ساحة سوق أثينا ويتكلم مع الناس . ولكن بدون أن يلقي عليهم دروساً أبداً . على العكس تماماً ، لقد كان يتحدث مع الناس ويتعلم منهم : « لأن أشجار الريف لا تستطيع أن تعلمني شيئاً » . ولكنه كان خائب الظن نوعاً ما لاكتشافه أن أولئك الذين كانوا يدّعون معرفة الكثير من الأشياء لا يعرفون في العمق شيئاً على الإطلاق . كان بإمكانهم بكل تأكيد أن يخبروه عن سعر النبيذ أو سعر زيت الزيتون ، ولكنهم كانوا غير قادرين على أن يقولوا له شيئاً عن *الحياة* .

لقد كان سقراط يقول أنه يعرف شيئاً واحداً فقط : وهو أنه لا يعرف شيئاً .

- إذن هو لم يكن ذكياً جداً ، رددتُ .

- احفظ نفسك من الأحكام السريعة ، قال والدي بصوتٍ قاسٍ . إذا كان هناك شخصان ليس لديهما أدنى معرفة ، ولكن أحدهما أراد مع ذلك أن يعطي انطباعاً بأنه كفؤ في مجموعة من الميادين فأي واحد من هذين الاثنين هو الأكثر حكمة بالنسبة لكَ؟

كان عليّ أن أُقِرَّ أن ذلك الذي لم يدَّعِ بأنه يعرف أكثر مما كان يعرف هو الأكثر حكمة .

- أرى بأنكَ فهمت . لقد كان سقراط فيلسوفاً بمعنى الكلمة فقد آلمه أن لا يعرف سوى القليل جداً عن العالَم وعن الحياة ، لقد كان يشعر بالعزلة .

هززتُ مجدداً رأسي ، فتابع :

- يومٍ من الأيام ذهب أحد الأثينيين ليستشير وحي دلف فسألَ أبولون : من هو الرجل الأكثر حكمة في أثينا فكان جواب الوحي : أنه سقراط .

دُهل سقراط عندما سمع ذلك، وهذا أقل ما نستطيع قوله، لأنه قد أدرك أنه لا يعرف على التحديد شيئاً كثيراً. ولكنه عندما كان يتوجه إلى أولئك الذين كان يُنظر إليهم على أنهم أكثر معرفةً منه طارحاً عليهم أسئلة مليئة بالفطنة فإنه يكون بذلك قد قدَّم، أمام عدم كفاءتهم، المبرر لحكم الوحي. الفرق هو أن الآخرين كانوا مقتنعين بالقليل الذي كانوا يعرفونه في حين أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً أكثر من سقراط. إن المقتنعين تمام الاقتناع بما يعرفون لا يمكن لهم أبداً أن يصبحوا فلاسفة.

بدت لي القصة مُقنعة جداً، ولكن والدي لم يكن قد انتهى بعد. أشار لي بإصبعه إلى السُّياح الكُثر الذين كانوا يتدفقون من الحافلات الكبيرة في الأسفل ويصعدون كأسراب النمل هاجمين على المعابد. ثم قال:

- إذا كان هناك واحدٌ فقط من بين كل هؤلاء الأشخاص لا يزال يجد أن العالَم شيئاً خارقاً وغامضاً....

أخذ نَفَساً قبل أن يُتابع:

- هناك في الأسفل أنتَ ترى ألف شخص يا هانس توماس. أريد أن أقول: إذا كان هناك واحدٌ فقط من بينهم يجد حقاً أن الوجود هو مغامرة غير معقولة فإنني أؤكد أنه لا بد أن ذلك الشخص يُفكّر في الموضوع كل يوم بدون انقطاع فإن ....

- نعم وماذا في هذا؟ سألتُ إذ أنها المرَّة الثانية التي يتوقف فيها عند منتصف العبارة.

- حسنٌ، فإن ذلك الشخص هو جوكر في لعبة ورق.

- هل تعتقد أنه يوجد هنا جوكر كهذا؟

هزَّ كتفيه وقال:

- لا. من الطبيعي أن لا أكون مُتأكداً من هذا. فحتى لو لم يوجد منهم الكثير فثمة وجود لبعضهم مع ذلك. هذا يعني أن الاحتمال ضعيفٌ جداً.

- وماذا عنكَ إذن؟ أولا تقول كل يوم أن الحياة هي *مغامرة*؟

- *Yes sir* (نعم يا سيدي).

أجابني بتلك الثقة لدرجة أنني لم أجرؤ على أن أُعارضه، ولكن كان لديه شيءٌ آخر ليقوله لي:

- استيقظُ في كل يوم وكأنني في حالة صدمة. كما لو كنتُ محقوناً في الداخل بالوعي بأن أكون في العالَم، بأن أكون دمية حية في قصة مُذهلة. إذ من نحن يا هانس- توماس؟ هل تستطيع أن تجيبني على هذه النقطة؟ نحن موجودات مصنوعة بكل أجزائها من غبار النجوم. ولكن ما هذا؟ من أين جاء العالَم؟ اللعنة!

- ليسَ لدي أية فكرة. أحسستُ في تلك اللحظة بالتحديد بأنني كنتُ تائهاً مثل سقراط.

تابع والدي:

- ثم عادت تلك الفكرة من جديد في أحد الأماسي فشعرتُ في تلك المرَّة بأنني شخصٌ لن أعود أبداً إلى الوراء.

- لا بد أنك لم تحظَ بحياةٍ سهلة، قلتُ.

- بالتأكيد ليست سهلة، ولكن ياه كم كانت مُذهلة. لستُ بحاجةٍ لأزور القصور المسكونة بالأرواح لكي تمنحني قشعريرة أو أن أذهب لمطاردة الأشباح فأنا شبح أيضاً.

- وهكذا فإنكَ تقلق عندما يرى ابنك شكلاً صغيراً أمام نافذة القُمرة؟!

أجبت.

لا أعرف لماذا قلتُ هذا، ولكن كنت أشعر بضرورة أن أُذكّره بما قال العشية على السفينة.

قهقه ضاحكاً وقال:

- عليكَ أن تتحمل.

آخر شيء رواه لي والدي حول وحي دلف هو أن الإغريق القدماء كانوا قد حفروا مقولة على مقدمة المعبد الكبير: «اعرف نفسك بنفسك». ثم أضاف:

- القول أسهل من الفعل.

توجهنا بعدها نحو المَخرج ببطء. كان والدي يريد أن يزور المتحف أيضاً حيثُ يمكن مشاهدة «مركز العالَم». ولكن لم يكن لديَّ الرغبة في مرافقته. بعد جدلٍ قصير، سمح لي بانتظاره خارجاً في ظل شجرة. إذ لم يكن ثمّة ما هو ضروري لثقافتي لكي أراه في المتحف.

قال لي والدي وهو يقتادني نحو شجرة غير معروفة:

- اجلس هنا تحت شجرة الفريز وانتظرني.

كان يمكن أن أُقسِم بأن ذلك مُستحيل، ومع ذلك فقد كانت الشجرة تنوء تحت ثقل الفريز الأحمر الممتلئ.

لا بد أنني سمعتُ جيداً فكرة أوحتْ إليَّ ألا أزور المتحف؛ فقد كنتُ أتحرق نافد الصبر لأُخرجَ من جيبي *الكتاب* والعدسة. لم أعد أرغب من وقتها بأن أُضيِّعَ أية فرصة لمتابعة القصة. ولو استطعت، فإنني كنتُ سأُحبُ أن لا

أتـرك القـصة حتى أقـرأ آخـر كلمـةٍ فيها ، ولكـن كـان عليّ أن أحـسب حساباً لوالدي أيضاً .

سـألتُ نفسي قبـل أن أفتح *الكتـاب* ما إن كـان يوجد نـوعٌ مـن الـوحي يجيبني في النهاية على كل أسئلتي . شعرتُ بـالقلق عنـدما شـرعتُ بقـراءة قصة الجوكر على الجزيرة المسحورة إذ كنا قد تحدثنا مطـولاً قبـل قليـل أنـا ووالـدي عن الجواكر .

الجوكر

أخذ يندسُ في القرية كأفعى سامّة .....

عندها نهض الرجل العجوز، عَبَرَ الحُجرة وفتحَ الباب فتبعتُهُ. في الخارج كانت ليلة عاتمة فهمهم:

- كان لديَّ سماءٌ مرصعة بالنجوم فوق رأسي وسماءٌ مرصعة بالنجوم تحت قدميَّ.

فهمتُ ما كان يريد قوله: ففوق رؤوسنا كانت تتلألأ سماء مليئة بالنجوم لم أرَ أبداً مثلها من قبل، بينما كانت تلمع كل منازل القريَّة بوهن في أسفل الوادي بحيث يمكن القول إن غبار النجوم قد انفصل عن السماء وتناثر على الأرض. ثم أضاف:

- كما أن هاتين السماوين لا يمكن سبر غورهما.

أشار إلى القرية وقال:

- من هُم؟ من أين جاؤوا؟

- لا بد أنهم يطرحون على أنفسهم هذه الأسئلة أيضاً؟ أجبتُ.

فالتفتَ الرجل العجوز على الفور وصاح:

- لا، لا! ليس عليهم أبداً أن يطرحوا هذا النوع من الأسئلة.

- ولكن....

- إذ سوف لن يعودوا قادرين عندها على العيش جنباً إلى جنب مع ذلك الذي خلقهم في يومٍ من الأيام، أولا تفهم؟

دخلنا إلى المنزل الخشبي، مغلقين الباب خلفنا ثم جلسنا، فتابع الرجل المُسن:

- إن الاثنين والخمسين شخصاً هم مختلفون، ولكن لديهم شيء مُشترك: ولا واحد منهم قد طرح أدنى تساؤل عن طبيعته أو عن أصله أبداً. وبهذه الطريقة فإنهم يُشكّلون مع الطبيعة المحيطة بهم كلاً واحداً.

ببساطة *أنهم* في هذه الحديقة الغنّاء بنفس تلك الطمأنينة وتلك اللامبالاة التي للحيوانات...، ولكن الجوكر وصل فجأةً وأخذ يندسُ في القرية كأفعى سامّة.

فأطلقتُ صَفرة كعلامة على الدهشة.

- لقد اكتملت لعبة الورق منذ سنوات عديدة ولم أكن أتوقع رؤية الجوكر ينبثق فجأةً على الجزيرة مع أني كنتُ أعلم أن هذه الورقة تشكل جزءاً من اللعبة. لم أكن أتخيل إلا أن أكون أنا هو الجوكر. ولكن في صباح أحد الأيام رأيتُ إبليس البائس يتجول في القرية. كان شب الديناري هو أول من رآه، ولأول مرّة في تاريخ الجزيرة تحدث ضجة حول ذلك القادم الجديد، ليس فقط لأن ثيابه كانت مُضحكة بتلك الجلاجل التي تطنطن بل بالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن ينتمي إلى أية واحدة من العائلات الأربع. بل إنه على الأخص قد أثار حفيظة الأقزام بطرحه عليهم أسئلة لم يعرفوا الإجابة عنها، ثم انتهى الحال به أن بقي منزوياً، في المنزل الصغير الذي أُعطيَّ له خارج القرية.

- هل كان يُدركُ أكثر من الآخرين؟

فأطلق الرجل العجوز تنهيدة عميقة وقال:

- كنتُ جالساً في صبيحة أحد الأيام على عتبة الباب عندما انبثق بقفزة من خلف المنزل. انطلق يتشقلب جاعلاً جلاجله تخشخش ثم قال لي وهو يحني رأسه جانباً: « أيها السّيد *Maître* هناك شيء لا أفهمه ...»

انتفضتُ لسماعي اسم« السّيد » إذ أن الأقزام كانوا يخاطبونني دائماً فرود ببساطة. كما أنهم لم يكونوا معتادين كذلك على ابتداء محادثةٍ بالقول أن هناك شيئاً لا يفهمونه. إذ عندما نفهم أن هناك شيئاً ما لا نفهمه فإننا نكون عندها على الطريق الصحيح لفهمٍ عميق للكثير من الأشياء.

جلا الجوكر صوته قبل أن يتابع: « يوجد هنا في القرية أربعة شيوخ وكذلك أربع بنات وأربعة شباب. لدينا أربع أميرات (من فئة الآس) وأربع سلاسل رقمية تبدأ من اثنان حتى عشرة». « هذا هو تماماً». قلتُ، فتابع: «يوجد إذن أربعة من كل نوع، ولكن يوجد أيضاً ثلاثة عشر من كل لون إذ أنهم جميعاً إما ديناري وإما كُبة وإما سبات وإما بستون». فوافقتُ.

لقد كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يقدِّم لي فيها أحد الأقزام وصفاً بهذه الدقة للنظام الذي يشكلون جميعاً جزءاً منه. ثم واصل: « من هو ذاك الذي قد أوجد هذا التصنيف البارع؟» فكذبتُ قائلاً: « أوه، لا بد أن يكون ذلك صدفة محضة؛ شيء يشبه رمي عصيٍّ في الهواء فإنها ستشكل دائماً عند سقوطها من جديد رسومات يمكن تأويلها». فتابع البهلول البائس: « لا أعتقد ذلك.»

لم يجرؤ أحد من قبل أن يشكك بكلامي. لم أعد أواجه شخصية من الكرتون فحسب بل كنتُ أواجه شخصاً وقد أسعدني ذلك بمعنى ما، فربما كان الجوكر

سيكون رفيقاً حقيقياً أتحاور معه. ولكنني كنتُ قلقاً بالوقت نفسه لما كان سيحدث لو اكتشف الأقزام من هم ومن أين جاؤوا؟ فسألته: « وأنتَ ما رأيكَ بهذا؟»

نظر في عينيَّ مباشرةً. كان جسده ثابتاً كتمثال ولكن إحدى يديه كانت ترتجف بما يكفي ليجعل كل جلاجل بدلته تخشخش ثم قال وهو يحاول أن يُخفي جدِّية ملامح وجهه: « يبدو أن كل شيء يتبع مخططاً مُعد بشكلٍ مُسبق، خطة تم حسابها وإنعام النظر فيها؛ فنحن إما جهة صورة أو جهة رقم حسب مشيئة ذاك الذي يأخذنا بيده والذي يستطيع أن يقلبنا ساعة يشاء ....»

يتحدث الأقزام غالباً بكلمات وبتعابير مأخوذة من لغة لعب الورق وهذا يسمح لهم أن يُعَبِّروا عما يفكرون به، وعندما يكون ذلك ممكناً فإنني أجيبهم بالطريقة نفسها.

في تلك الأثناء، هزَّ الجوكر جسده كله من أجل أن تخشخش كل جلاجله بضجة تصم الآذان وصاح: « أنا هو *الجوكر*، لا تنسَ هذا أيها السيد العزيز! أنا لستُ ككل الآخرين هنا، هل تفهم؟ أنا لستُ *بالشيخ* ولا *بالشب*، لستُ من *الكُبة* ولا من *البستون*.»

شعرتُ حينها بالقلق، ولكنني كنتُ أعلم أنه ليس بإمكاني أن أكشف أوراقي. فاستأنف: « من أنا؟ لماذا أنا جوكر؟ من أين خرجتُ وإلى أين أمضي؟»

فقررتُ مصمماً على محاولة كسب كل شيء أو خسارة كل شيء، فبدأتُ بالقول: « لقد رأيتَ كل ما صنعتُ أنا ابتداءً من النباتات التي تنبتُ على الجزيرة؛ كيف سيكون ردُّ فعلك لو قلتُ لكَ أنني أنا هو من خلقكَ أنتَ وكل أقزام القرية؟»

بقي يحدق بي مدة طويلة، فرأيتُ جسده الصغير النحيف يرتجف بينما أخذت جلاجله تخشخش بعصبية وقال بينما كانت شفتاه ترتجفان: «عندها

سوف لن يكون لديَّ الخَيار أيها السيد العزيز. سأكون مجبراً على محاولة قتلك لكي أستعيد كرامتي الضائعة»

فأُرغمتُ على تصنع الضحك لأُجيب: « إن هذا بديهي، ولكن لحسن الحظ فإن الأمر ليس كذلك.»

بقي ثابتاً لا يتحرك وهو ينظر إليَّ بكُفر لثانية أو لثانيتين ثم اختفى مثلما ظهر. في اللحظة التالية ظهر من جديد أمامي حاملاً زجاجة صغيرة من الليمونادة بإحدى يديه. كانت زجاجة قديمة تركتُها منذ سنواتٍ طويلة في أقصى عُمق الخزانة. فصاح: « بصحتكَ» ثم « هممم».

لقد كنتُ مصعوقاً. كنتُ خائفاً على جلدي، ولكنني خشيتُ كذلك من أن يختفي فجأةً كل ما كنتُ قد خلقته.

- وهل هذا ما حصل؟

- لا. لقد أدركتُ أن الجوكر قد شرب قليلاً من الزجاجة وأن ذلك المشروب الغريب قد جعله متوقد الذهن جداً.

- ولكنني ظننتُ أن الليمونادة الأرجوانية تجعل عقول الناس خاملة بالأحرى حتى أنهم لا يدركون أين هُم.

- هذا صحيح، ولكن ليس في البداية. فالمشروب يشحذ ذكاءهم في البداية إذ أن كل أحاسيسهم تتحرض بنفس الوقت. مع تطور الحالة تصدئ عقولهم وتظهر حالة الاعتياد وهذا ما يجعل المشروب خطيراً جداً.

- وماذا حدث للجوكر؟

لقد صاح وهو يبتعد « سوف لن أقول المزيد ولكننا سوف نلتقي مُجدداً.»

نـزل إلى القريـة وهنـاك أدار المـشروب بـين الأقـزام. ومنـذ ذلـك اليـوم يشرب منه الجميع. يذهب السبات عدّة مرّات في الأسبوع ليحضر من ذلك السـائل الـسحري مـن تجـاويف جـذوع الأشـجار حيـث يقـوم الكُبـة بمزجـه والديناري بوضعه في قناني.

- وهكذا إذن أصبح كل الأقزام ماكرين مثل الجوكر؟

- لا، ليس تماماً. لقد خشيتُ فعلاً في الأيام الأولى من أن يكتشفوا كل شيء ويعرفوا من أنا، ولكنهم سريعاً ما أصبحوا أكثر بُعداً من قبل. إن ما رأيته اليوم ليس إلا ظِلاً باهتاً لما كان في يومٍ من الأيام بريئاً بشكلٍ شبه تام.

ففكرتُ بكل تلك البدلات وكل تلك الأطقم المزركشة، ثم حلمتُ على مدى ثانية بآس الكُبة في ثوبها الأصفر الجميل ... فهمستُ:

- هناك بعض الظلال التي لا تزال جميلة بشكلٍ قوي....

- نعم هذا صحيح، ولكنهم غير واعين. إنهم يعيشون في هذه الطبيعة الغنّاء، ولكنهم لا يعرفون أنهم موجودون. إنهم يرون الشمس والقمر ويأكلون من كل ما ينبتُ هنا، ولكنهم لا يشعرون بشيء. لقد أصبحوا أشخاصاً حقيقيين منذ أن تجسدوا، ولكنهم ما إن بدأوا بالشراب من الليمونادة الأرجوانية حتى انتهوا بأن أصبحوا شيئاً فشيئاً غير حقيقيين بالنسبة لي. كما لو أنهم أقاموا مسافات فيما بينهم ثم تقوقعوا داخل أنفسهم. هم يستطيعون دائماً أن يتداولوا نقاشاً مزعوماً، ولكنهم ينسون ما يقولون في نفس اللحظة التي يقولونه فيها. وحده الجوكر بقي يحتفظ بشيء من الألق الأصلي وربما آس الكُبة أيضاً إذ أنها لا تتوقف عن القول بأنها تحاول أن «تجد نفسها».

- هناك شيء لا يستوي معي.
- وما هو؟
- لقد قلتَ أنه وبعد بضع سنوات قليلة من وصولك ظهر أول الأقزام على الجزيرة، ولكن يبدو عليهم جميعاً أنهم بنفس العُمر في حين أنه يجب أن يكون منطقياً عمر بعضهم خمسون عاماً تقريباً.

انزلقتْ ابتسامة غامضة على شفتيه وقال:

- أنهم لا يهرمون.
- ولكن ...
- عندما كنتُ وحيداً على الجزيرة أخذتِ الصور التي كانت في أحلامي تغدو أقوى أكثر فأكثر إلى درجة أن أصبحتْ مستقلة تماماً في يومٍ من الأيام وتجلتْ إلى الوجود بنفسها. إن هذا يعني أن كل تلك الصور التي أصبحتْ حقيقية تبقى على الرغم من كل شيء ثمرة مخيلتي وما تخلقه المخيلة في يومٍ من الأيام يبقى دائماً بدون تغير ويستمتع بشبابٍ أبديّ.
- إن هذا غير قابل للفهم ....
- هل سمعت برابونزل يا ولدي؟

فهززتُ رأسي بلا.

- هل سمعتَ بليلى والذئب؟ أو ببيضاء الثلج؟ أو بهانسل وغريتيل؟

فأشرتُ بنعم.

- كم عمرهم برأيك؟ مئة سنة؟ ألف سنة ربما. هم شباب ومسنون في الوقت نفسه وهذا لأنهم قد وُلِدوا من مخيلة البشر. لا، لقد كنتُ أعلم أن

أقزام الجزيرة لا يهرمون ولن يكون لهم أبداً شعرٌ أبيض، حتى أن بدلاتهم لا تحمل أدنى أثرٍ على البلى. هم لا يرحلون مثلنا نحن الفانون الذين نهرم ويكون لنا شعرٌ أشيب. إن قدرنا نحن البشر أن نغدو في يومٍ من الأيام بغاية الإهتراء بحيث نسقط أجزاءاً ونختفي. بينما أولئك الذين يصدرون عن أحلامنا مصيرهم مختلف حيث أنهم يستطيعون الاستمرار بالحياة داخل أشخاصٍ آخرين بعد وقتٍ طويلٍ من رحيلنا.

مرَّر يده في شعره الأبيض وبحركة أبان عن سترته المهترئة وواصل:

- إن السؤال المهم ليس معرفة ما إن كان الزمن سيطبق بقبضته على هذه الشخصيات، ولكنه معرفة ما إن وجدوا فعلياً في هذه الحديقة وإمكان أن يكونوا مرئيين من قبل شخصٍ آخر قد نزل على الجزيرة.

- ولكن هذا ما حصل فلقد قابلتُ أولاً زوج وثلاثة السبات في مصنعهم للزجاج .... قلتُ.

- ممم...

بقي الرجل العجوز صافناً، بحيث يمكن القول أنه لم يستمع لما قد قلته عندها. ثم قال في النهاية:

- والسؤال المهم الآخر هو معرفة ما إن كانوا سيستمرون في الوجود في اليوم الذي لن أعود فيه موجوداً.

- وما رأيكَ أنتَ بهذا؟

- ليس لديَّ جواب على هذا السؤال ولن يكون لديَّ عليه جواب أبداً بدون شك. عندما لن أعود موجوداً كيف سيكون لي أن أعرف أن شخصياتي لا تزال حيَّةً؟

ثم صمتَ من جديد. كان لديَّ الانطباع بأن كل ذلك لم يكن إلا حُلماً. هل جلستُ حقاً في ذلك المنزل الخشبيّ برفقة فرود؟ ربما كنتُ في الحقيقة في مكانٍ آخر تماماً وإن كل ذلك لم يكن يجري إلا داخل نفسي.

- سوف أروي لكَ البقية غداً يا ولدي. يجب أن أحكي لكَ عن التقويم وعن لعبة الجوكر العظيمة.

- لعبة الجوكر؟

- غداً يا ولدي. نحن بحاجة الآن أن ننام كلينا.

- أشار إلى سريرٍ مغطى بجلد حيوان وغطاءٍ من نسيج القطن ثم أعطاني ملابس نومٍ من الصوف.

لقد كان من الجميل أن أتمكن من استعادة عادتي كبحارٍ قذرٍ تماماً.

بقينا أنا ووالدي في ذلك المساء على شرفة سطح فندقنا نستحسن المدينة وعلى الأخص خليج كورنثة. لقد كان والدي مأخوذاً تماماً بالنظر إليهم في ذلك اليوم بحيث لم يكن لديه نفْسٌ للكلام. وربما كان يُسائل نفسه ما إن كان يجب تصديق الوحي عندما قال أننا كنا سنجد ماما قريباً.

في وقتٍ متأخرٍ من المساء ارتفع البدر المكتمل تماماً في الشرق في أعلى الأفق مضيئاً الوادي الغارق في الظلمة وجاعلاً السماء المرصعة بالنجوم أكثر بهاءً. فاعتقدتُ نفسي جالساً أمام منزل فرود الخشبي أراقب في الأسفل قرية الأقزام.

الديناري♦

آس الديناري

كان رجلاً مستقيماً أرادَ أن يتصرف بكل وضوح.....

استيقظتُ قبل والدي كالعادة، ولكنه لم يلبث أن تحركَ في سريره فقررتُ التحقق مما قاله في العشيّة لأعرف ما إن كان قد استيقظ تحت وقع الانفجار.

وتوصلّتُ إلى أنه كان على حق فالدهشة التامة كانت باديةً عليه لما فتح عينيه، كما لو أنه كان يتوقع أن يستيقظ في مكانٍ آخر تماماً كالهند على سبيل المثال أو على كوكبٍ صغيرٍ في مجرّة أُخرى. فقلتُ له:

- أنتَ كائنٌ حي. في هذه اللحظة أنتَ موجود في دلف وهو مكان على الأرض والتي هي نفسها كوكبٌ حي يدور حالياً حول نجم في درب التبانة، وهو يستغرق ٣٦٥.٥ يوماً في دورته حول ذلك النجم.

نظرَ إليّ بثبات كما لو كان عليه أن يُدرب عينيه لتجتازا الحُلم إلى الواقع، ثم قال:

- شكراً للمعلومات. إن ما قلته لي للتو هو بالضبط ما أكرره لنفسي كل صباح قبل مغادرة الفِراش.

نهض ثم تابع:

- ربما سيكون عليكَ أن تهمس في أذني بهذا النوع من الحقائق كل صباح يا هانس- توماس فأنا متأكد أنني سأكون في الحمَّام بسرعةٍ أكبر

جهزنا أمتعتنا بسرعة وتناولنا فطورنا على عَجَل من أجل أن نستكمل الطريق بأقرب وقتٍ ممكن. لما مررنا للمرَّة الأخيرة أمام موقع المعابد قال والدي:

- الحق لقد كان (اليونان) يصدقون بسرعة!

- هل تقصد تصديقهم للوحي؟

لم يجبني مباشرةً فخشيتُ أن يكون قد بدأ يشكك بالوحي الذي قال إننا سنعثر على ماما. و في النهاية قال:

- نعم، هذا أيضاً. ولكن فكِّر قليلاً بآلهتهم: أبولون، اسكليبسوس، أثينا، زيوس، بوسيدون، ديونيزوس. لقد شيَّدوا على مدى قرون وقرون معابد قيِّمة من الرخام على شرف هذه الآلهة. تخيل قليلاً المصاعب لا لشيء إلا لإحضار هذه الأحجار الرخامية الضخمة.

لم أفهم جيداً ما الذي كان يروم الوصول إليه. فسألتُ:

- كيف يمكن لكَ أن تكون مُتأكداً أن تلك الآلهة لم تكن موجودة؟ ربما قد اختفوا أو أنهم وجدوا شعباً آخر ساذج أيضاً، ولكن كان هناك وقتٌ قد وُجدوا فيه فعلاً على هذه الأرض.

نظر إليَّ والدي عبر المرآة العاكسة وسألني:

- وهل تعتقد أنتَ بذلك؟

فأجبتُ:

- لا يمكن أن أكون واثقاً تماماً، لكنهم وبطريقةٍ ما قد وُجدوا لوقتٍ طويلٍ على الأرض بقدر ما استمر البشر بالإيمان بهم. فنحن نؤمن بما نعتقده ولهذا فإنهم لم يهرموا أبداً إلى أن بدأ الناس يشككون بهم.

فصاح والدي:

- براڤو، لا فض فوك! من يدري يا هانس- توماس ربما ستصبح فيلسوفاً أنتَ أيضاً في يومٍ ما؟

شعرتُ أنني قد قلتُ حينها، بشكلٍ استثنائي، شيئاً عميقاً جداً حتى كلّف والدي نفسه عناء التفكير به، وعلى أية حال فقد بقي للحظة طويلة بدون أن يقول أية كلمة.

في الحقيقة لقد غششتُ قليلاً لأنني استلهمتُ من *الكتاب* بأريحية. لم أكن أفكر، في الحقيقة، في آلهة الإغريق ولكن في لعبة الصبر لفرود.

وبما أن والدي بقي صامتاً فقد جازفتُ بسحب العدسة والكتاب من جيبي، ولكن في اللحظة التي كنتُ سأشرعُ فيها بالقراءة فرمل والدي بعنفٍ وركن السيارة على قارعة الطريق. خرج على عجل وأشعل سيجارة ثم قال مُتسائلاً بعد أن ألقى نظرة على الخارطة:

- ولكن نعم. يجب أن يكون هنا.

لم أقل شيئاً. لقد كنّا في أعلى جبل وعلى اليسار كان يوجد وادٍ. باختصار لا شيء كان يُبررُ حماسته.

- اجلسْ، أمرني والدي.

ففهمتُ: بأنه كان يترتب عليَّ الاستماع إلى درس، ولكنني كنتُ راضياً تلك المرّة. لقد كنتُ أعلم أنني ابنٌ ذو امتياز.

تابع والدي وهو يشير إلى الوادي:

- هنا قَتَلَ أوديب أباه.

فهتفتُ قائلاً :

- ما كان يجب أن يفعل هذا . ولكن ما الذي تريد قوله بالضبط؟

- عن القدَر يا هانس- توماس أو عن لعنة عائلة إذا كنتَ تفضل . ولا بد أن يكون ذلك متعلقاً بنا نحن الاثنان على وجه الخصوص، نحن اللذان قدمنا إلى هذا البلد لنعثر على زوجةٍ وأمٍ تائهة .

- وهل تؤمن بالقدَر؟ سألته وأنا مُندهشٌ تماماً .

ظلّ والدي منحنياً عليَّ ورِجله فوق الصخرة التي كنتُ أجلس عليها والسيجارة في يده ثم هزَّ رأسه وقال :

- لا . ولكن الإغريق كانوا يؤمنون به وعندما كان المرء يثور ضد قدره فقد كان يُعَاقَبُ في النتيجة .

كنتُ أُسائل نفسي ما إن كنتُ في الوضعية نفسها عندما تابع والدي عرضه :

- كان الملك لايوس وزوجته جوكاست يعيشان في طيبة ، وهي مدينة قديمة سنكون فيها بعد قليل . وكان وحي دلف قد قال لايوس بأن عليه أن لا ينجب طفلاً أبداً ، إذا لو كان له ولد فإن هذا الأخير سيقتل أباه ويتزوج أمه . برغم كل شيء فقد أنجبت جاكوست ولداً فقرر لايوس أن يتخلص من الطفل كأن يتركه يموتَ من الجوع أو أن تلتهمه الحيوانات المتوحشة .

- بطريقة همجيَّة بالأحرى، قلتُ .

- بالتأكيد ، ولكن اسمع البقية : أعطى الملك لايوس الأمر لراعٍ ليتخلص من الطفل . ولمزيدٍ من الاطمئنان قام بخرق عرقوبي رجليّ الصبي لكي لا يستطيع الركض في الجبال ويجد السبيل إلى طيبة . نفَّذ الراعي أوامر الملك، ولكن أثناء سيره في الجبل مع أغنامه التقى براعٍ من كورنثة والذي أخذته

الشفقة بالصبي الصغير الذي حُكِم عليه بالموت جوعاً أو أن يُفتَرس من قبل حيواناتٍ متوحشة. فرجاه أن يعطي الصبي لملك كورنثة. وهكذا عاش الصبي الصغير عيشة الأمراء إذ أن الملك والملكة لم يكن لديهم أطفال وقد أطلقوا عليه اسم أوديب الذي يعني « الأقدام المتورِّمة» . في الحقيقة لقد كانت أقدام الصبي متورِّمةً جداً بعد تلك المعاملة السيئة التي تعرض لها في طيبة. كبر أوديب وأصبح شاباً جميلاً محبوباً من قِبل الجميع، ولكن أحداً لم يكشف له أنه ليس الابن الشرعي للملكين. وفي أحد الأيام أثناء استقبالٍ عظيم أفلتَ من فم أحد الضيوف فجأةً أن أوديب ليس هو الابن الحقيقي للملك والملكة ....

- وهو ما كان صحيحاً. قلتُ.

- بالضبط. ولكنه لَّما سأل الملِكة لم يحصل على جوابٍ فعليّ فلذلك قرَّر استشارة وحي دلف ليستوضح الأمر بشكلٍ أفضل. وعندما سَألَ ما إن كان هو الأمير الشرعي للعائلة الملكيّة لكورنثة أجابته بايثي: « ابتعد عن أبيك، فإنكَ لو رأيتَه من جديد قتلته وتزوجتَ أمك وأنجبتَ منها أطفالاً .»

لقد كنتُ بغاية الذهول: إذ أن هذه النبوءة المُعلنة مماثلة تماماً لتلك التي قيلت لملِكِ طيبة.

- وبعد ذلك لم يجرؤ أوديب على العودة إلى كورنثة فقد بقي يعتقد بأن ملكها وملكتها هما والداه الحقيقيان فسار في الاتجاه المعاكس الذي يقود إلى طيبة. وعندما وصل إلى المكان حيث نحن اليوم صادف رجُلاً غنياً كانت مركبته الفخمة مثبّتة إلى أربعة جيادٍ وبرفقته العديد من الخدم. ضرب أحدهم أوديب من أجل أن يبتعد ويترك الممر، ولكن أوديب، الذي تلقى تربيةً تليق

بأمير وارث لكورنثة ، لم يقبل أن يُعامل بتلك الطريقة فقام بمقاتلتهم وانتهى ذلك اللقاء المشؤوم بموت الرجل الثري.

- الذي كان والده الحقيقي؟

- نعم. لقد قاتل الخدم أيضاً حتى الموت، ولكن الحوذي نجا ونجح في الوصول إلى طيبة فأخبر: أن الملك لايوس قد قُتِلَ قبل قليل على يد قاطع طريقٍ خطير. وقد أغرق هذا الخبر المَلِكة والشعب بقضه وقضيضه في أعظم بلوى. لكن سكان المدينة كانوا قلقين أيضاً لسببٍ آخر.

- وما هو؟

- لقد كان هناك أبو الهول وهو مسخ عملاق بجسد أسد وبرأس امرأة كان يحرس طريق طيبة ويلتهم كل من لم يستطيع أن يحل اللغز الذي كان يطرحه على كل مُسافر. وبسبب هذه المشكلة قطع شعب طيبة وعداً: إن من سيحل اللغز سيتزوج الملكة جوكاست ويرتقي العرش الملكي خليفةً للملك لايوس.

انتظرتُ البقية بفارغ الصبر.

- بعد وقتٍ قصير وصل أوديب الذي كان قد نسيَ تلك المشاجرة مع الرجل المجهول، إلى أبواب طيبة، وعلى جَبَلِها طلب منه أبو الهول أن يَحُلَّ اللغز التالي: ما الشيء الذي يمشي في الصباح على أربع قوائم وفي الظهيرة على اثنتين وفي المساء على ثلاث؟

نظر إليَّ والدي ليرى ما إذا كنتُ قادراً على حلِّ اللُغز ولكنني هززتُ رأسي.

- أجاب أوديب: « إنه *الإنسان* فهو يدب في الصباح على أربع قوائم ثم ينتصب في الظهيرة على قائمتين ويمشي في المساء على ثلاث قوائم إذ يحتاج

عندها إلى عصا.» لقد أجاب أوديب بشكلٍ جيدٍ على السؤال بينما لم ينجُ أبو الهول منها: فألقى بنفسه عن قمة الجبل ومات. وهكذا استُقبِلَ أوديب في طيبة كمُحررٍ لها وحصل على المكافأة الموعودة فتزوج من جوكاست التي لم تكن سوى أمه الفعليَّة وقد أنجبَ منها، مع الزمن، ولدين وبنتين.

- اللعنة. قلتُ.

لم تبرح عيناي والدي لثانية، ولكن لم يكن بد مع ذلك أن أُلقي نظرة على المكان الذي قَتَلَ فيه أوديب أباه. تابع والدي:

- ولكن القصة لا تنتهي هنا، فقد فتك بالمدينة طاعون رهيب. وفي ذلك العهد كان هذا النوع من المصائب يُنسب إلى غضب أبولون الذي كان له كذلك أسباب كافية ليتصرف بهذا الشكل. فاستُشير وحي دلف من جديد لفهم لماذا أرسلت الآلهة هذا الطاعون المخيف إلى المدينة. وقد كان جواب بايثي أن على المدينة أن تبحث عن قاتل الملك لايوس وإلا فإن المدينة برمتها ستنتهي إلى الهلاك.

- أوه لالا.

- هكذا إذن فقد استنفرَ الملك أوديب لإيجاد قاتل الملك لايوس فهو لم يُجْرِ أبداً مقاربة بين تلك الحادثة على طريق طيبة وموت الملك. بدون أن يكون على وعي بذلك فقد كان أوديب هو القاتل الذي عليه أن يكشف جريمته. قام بسؤال أحد العرَّافين عن قاتل الملك لايوس، ولكن هذا الأخير رفض أن يجيب في البداية لأنه وجد أن الحقيقة فظيعةٌ جداً. لكن أوديب الذي كان حريصاً على أن يستخدم كل ما لديه من سُلطة ليساعد شعبه انتزع في نهاية الأمر الحقيقة من العرَّاف الذي اعترف له أنه الملك القاتل. استعاد أوديب المشاجرة العنيفة

على طريق طيبة فكان عليه آن يعترف بأنه قد قتل الملك لايوس. وعلى أي حال فإنه لم يكن حينها قد حصل بعد على ما يُثبت أنه هو نفسه ابن لايوس. ولكن أوديب كان رجلاً مستقيماً أرادَ أن يتصرف بكل وضوح وقد نجح في مواجهة راعي طيبة العجوز مع راعي كورنثة وحصل على الإثبات بأنه قد قتل أباه وتزوج أمه. باكتشافه لما فعل قام أوديب بفقء عينيه، أولم يكن أعمى دائماً أصلاً؟

أخذتُ نَفَسَاً عميقاً فقد وجدتُ بأن تلك القصة كانت مُحزنة وظالمة.

- هذا فعلاً ما يمكن أن ندعوه بالعائلة الملعونة!

- لقد قام الملك لايوس وأوديب مع ذلك بعدة محاولات ليهربا من قدرهما، وبالنسبة للإغريق فقد كان ذلك مستحيلاً.

بقينا صامتين بمرورنا من أمام طيبة. اعتقدُ أن والدي قد فكّر باللعنة التي حاقت بعائلته الخاصة، وعلى أي حال فقد بقي صامتاً زمناً طويلاً دون أن ينبس ببنت شفة.

قلّبتُ قصة أوديب على كل الوجوه ثم استعدتُ العدسة و*الكتاب*.

زوج الديناري

يتلقى السيد العجوز رسالة هامّة من وطنهِ الأم.....

في صبيحة أحد الأيام انتزعني من نومي صياح ديك فاعتقدتُ لثوانٍ أنني لا أزال في لوبك، ولكن حادثة الغرق عادت بسرعة كبيرة إلى ذاكرتي: لقد شاهدتُ نفسي وأنا أسحبُ قارب النجاة على شاطئ الهور المحاط بالنخيل ثم انطلقتُ اكتشف الجزيرة؛ استلقيتُ على ضفة بحيرةٍ كبيرة حيث نِمتُ ثم سبحتُ هناك بين عشرات الآلاف من السمكات الذهبيّة.

هل استيقظتُ على ضفة تلك البحيرة؟ هل كان محض حلم ذلك البحَّار العجوز الذي عاش أكثر من خمسين سنة على هذه الجزيرة التي استوطنها في النهاية مع ثلاثةٍ وخمسين قزماً أحياء تماماً خرجوا من لعبة ورق، ؟

عزمتُ على محاولة إيجاد جواب على هذه الأسئلة قبل أن أفتح عينيَّ.

كان لا يمكن أن يكون ذلك أضغاث حلم! فلقد نمتُ في كوخ فرود المنيف على القرية....

فتحتُ عينيَّ، كانت أشعة شمس الصباح الذهبيَّة تدخل إلى الكوخ المُظلم فأدركتُ أن مغامراتي كلها كانت حقيقيَّة مثل الشمس والقمر.

نهضتُ وسرتُ بضع خطوات. أين هو فرود؟ فكرتُ. لمحتُ عُلبةً صغيرةً من الخشب موضوعةً على رفٍ في مدخل الحُجرة. أنزلتُها وتأكدتُ من أنها فارغة. لا بد أن كل الأوراق كانت موجودة هنا قبل أن يحدث ذلك التجسد العظيم.

أعدتُ العُلبة إلى مكانها وخرجتُ. هناك كان فرود يراقب القرية ويداه خلف ظهره؛ أتيتُ والتحقتُ به ولكننا بقينا صامتين.

كان الأقزام في الأسفل بادي الحيوية والانشغال وكانت الشمس تغسل القرية كلها والحقول المحيطة بها.

- إنه يوم الجوكر ....، قال فرود فجأة وعلامات القلق بادية على وجهه.

- يوم الجوكر؟ أعدتُ.

- سوف نأخذ فطورنا في الخارج يا ولدي. هيَّا اجلس هنا وسوف أعود حالاً مع ما يؤكل.

أشار إليّ بطبلية مسنودة إلى أحد جدران المنزل الخشبيّ أمام طاولةٍ صغيرة. وحتى عندما جلستُ ظلّتْ إطلالة جميلة ماثلة أمامي. كان بعض الأقزام يسحبون عربة خارج القرية؛ إنهم السبات بدون أدنى شك فهم الذين يذهبون إلى الحقول. كما كان يصلُ إلى مسامعي قعقعة مُصِمَّة تصدر عن مشغلٍ كبيرٍ.

عاد فرود بالخبز والجبن وحليب المولوك والتوف الساخن. جلس إلى جانبي وتابع القصة التي لم يكملها في العشية فقال:

- أعاود التفكير غالباً بتلك المرحلة مرحلة لعبة الصبر. لقد عرفتُ أعظم عزلة يمكن أن يكون قد عرفها رجل. وإذا رأينا الأمور من هذه الزاوية فلن يكون هناك شيءٌ مذهل إذا ما انتهت ثلاثةٌ وخمسون ورقة لعب بتجسيد المخلوقات التي كانت تستوطن مخيلتي. ولكن هذا ليس كل شيء: فقد لعبتْ الأوراق دوراً كان يزداد أهمية بالنسبة للتقويم الذي وضعتُه هنا على الجزيرة.

- التقويم؟

- نعم. ففي السنة اثنان وخمسون أسبوعاً؛ مما يعني أُسبوعاً لكل ورقة في اللُعبة

أخذتُ أحسب فقلت:

- سبعة ضرب اثنان وخمسين يساوي ثلاثمئة وأربعة وستين.

- بالضبط، ولكن السنة فيها ثلاثمئة وخمس وستين يوماً. نُسمي اليوم الإضافيّ يوم الجوكر وهو لا ينتمي إلى أي شهر ولا إلى أي أُسبوعٍ كذلك. إنه يومٌ زائد، يومٌ يمكن أن يحدث فيه كل شيء. في كل أربع سنوات يكون عندنا *يومان* للجوكر.

- إن كل هذا دقيق .....

- والاثنان وخمسون أُسبوعاً- أو «ورقة» كما أدعوها- تنقسم أيضاً إلى ثلاثة عشر شهراً في كل شهر ثمانية وعشرون يوماً. إذ أن ثلاثة عشر ضرب ثمانية وعشرون يساوي أيضاً ثلاثمئة وأربع وستون. الشهر الأول هو *آس* و الأخير هو شيخ. بين مرحلة « يومي الجوكر» والأُخرى تنقضي أربع سنوات. يبدأ هذا مع سنة الديناري لتأتي بعدها سنة السبات متبوعة بسنة الكُبة وتنتهي بسنة البستون. وهكذا يكون لكل ورقة أسبوعها وشهرها.

ألقى الرجل العجوز عليَّ نظرة عابرة. كان يبدو خجولاً وفخوراً لأن يقوم بتقسيم الوقت بطريقة نبيهة، فقلتُ:

- يبدوا هذا معقّداً قليلاً للوهلة الأولى ولكنه ذكيٌ بشكلٍ مُحكم.

أشار فرود بنعم برأسه ثم أضاف:

- كان لابد لي من أن أشغل نفسي. تنقّسِمُ السنة بالإضافة إلى ذلك إلى أربعة فصول: الديناري في الربيع، السبات في الصيف، الكُبة في الخريف والبستون في الشتاء. يبتدئ الأُسبوع الأول من السنة مع آس الديناري ثم يُتبع بكل الديناري الآخرين، ويبتدئ الصيف مع آس السبات، والخريف مع آس الكُبة، ويبتدئ الشتاء مع آس البستون ويكون آخر أُسبوع في السنة لشيخ البستون.

- في أي أُسبوع نحن الآن؟

- البارحة كان آخر يوم من أُسبوع شيخ البستون، ولكنه كان آخر يوم من شهر شيخ البستون كذلك.

- واليوم؟ .....

- ..... إنه يوم الجوكر أو على الأقل أول يوم من يومي الجوكر حيث سيقام فيه حفلٌ كبير.

- هذا غريب فعلاً....

- نعم يا مواطني العزيز يمكن القول بأنه من الغريب حقاً أن تظهرَ أنتَ مباشرةً عندما تُقلَب ورقة الجوكر التي تُمثل بداية سنةٍ جديدة بكاملها ومرحلة أُخرى لأربع سنوات. ولكن ليس هذا كل شيء .....

ثم (صفن) الرجل المُسِن من جديد.

- حسنٌ وماذا؟

- إن الأوراق تُمثل كذلك جزءاً من قياس الزمن على هذه الجزيرة.

- انتظر أنا لا أفهم جيداً.

- لقد منحتُ إذن لكل ورقة أسبوعها وشهرها ولكي أتمكن من قياس الزمن المنصرم على هذه الجزيرة فقد أخذتْ كل سنة حتى الآن رمز إحدى الأوراق. في سنتي الأولى على الجزيرة كانت سنة آس الديناري وهكذا تباعاً بنفس نظام أسابيع السنة؛ وقد قصصتُ عليك سابقاً أنني أعيش هنا منذ اثنتين وخمسين سنة بالتمام والكمال ....

- واوا!...

- لقد انتهت الآن سنة شيخ البستون أيها البحّار وأنا لم أفكر لأبعد من هذا التاريخ إذ أنني لم أحسب سابقاً بأنني سأعيش اثنتين وخمسين سنة على هذه الجزيرة ....

- أولم تحسب بأنك كنتَ ستعيش وقتاً طويلاً كهذا؟

- يجب أن تصدق بأنني لم أفعل. ولكن الجوكر سيعلن اليوم افتتاح «سنة الجوكر» ويُتوقع أن يكون الاحتفال الكبير من بعد ظهر اليوم. يضع

البستون والكُبة اللمسات الأخيرة لتجهيز الصالة الكبيرة بينما يذهب السبات لجني الفواكه والأعناب ويضع الديناري الكؤوس على طاولة صالة الأفراح .

- هل .... هل أنا مدعو للاحتفال؟

- سوف تكون ضيف الشرف، ولكن قبل النزول إلى القرية هناك شيء يجب أن تعرفه. لا زال أمامنا بعض السَّاعات أيها البحَّار وعلينا أن نوظفها بدراية....

سَكَبَ الشراب الأسمر في كأس كان قد أحضرها من الكوخ. شربتُ بحكمة جرعة صغيرة فقط فتابع الرجل العجوز قصته :

- تكون حفلة الجوكر في نهاية كل سنة أو في بداية كل سنة جديدة إذا كنتَ تُفضل هذا، ولكننا لا نقوم بلعبة الصَّبر إلا مرَّة كل أربع سنوات ....

- لعبة الصبر؟

- نعم مرَّة كل أربع سنوات، وهي ما تُدعى لعبة الجوكر العظيمة .

- هلّا شرحتَ لي هذا بشكلٍ أوضح؟

فجلا صوته عدَّة مرَّات ثم واصل :

- كما قلتُ لكَ مِن قبل: بما أنني كنتُ وحيداً على هذه الجزيرة فقد كان عليَّ أن أجد شيئاً ما أفعله. كان يحدث لي أن أُقلّي كل الأوراق وأتصور أن كل ورقة كانت « تقول» عبارتها الخاصَّة؛ ثم كنتُ أحاول أن أُنسِّق الأوراق المختلفة بطريقةٍ تجعل العبارات تنتظم في صياغة نصٍ ذي معنى. وهكذا كنتُ أحصل على نمطٍ من أنماط الحكاية التي كانت تولد من التجميع الاعتباطي للعبارات التي « أوجَدَتْها» الأوراق بشكلٍ مُستقل إحداها عن الأُخرى.

- أهذه هي لعبة الجوكر العظيمة؟

- في الحقيقة لقد كانت في البداية نوعاً من ألعاب الصبر التي كانت تساعدني على قتل الوقت، ولكنها سريعاً ما أصبحت لعبة الجوكر العظيمة بحيث نلعبها مرَّة كل أربعة أعوام في يوم الجوكر.

- اروِ لي.

- على مدى هذه السنوات الأربع يكون على كل واحد من هؤلاء الأقزام الاثنين والخمسين أن يُفَكِّر في جملة. ويجب أن لا يبدو لك هذا على أنه مجهودٌ مُتكرر فلا تنسى أنهم يفكرون بشكلٍ بطيءٍ جداً، بالإضافة إلى أن عليهم أن يتذكَّروا عباراتهم وصدِّقني إنه ليس اختباراً هيِّناً أن يحتفظ هؤلاء الأقزام يوماً بعد يوم بجملة كاملة في رأسهم في حين أن دماغهم صغيرٌ كدماغ السنونو.

- وهم يقولون عباراتهم في النهاية أثناء حفلة الجوكر؟

- تماماً، ولكن ذلك لا يُشكِّلُ إلا المرحلة الأولى من اللُعبة إذ يأتي بعدها دور الجوكر والذي لا يكون قد فكَّر بجملة خاصة به بل إنه يتبوأ عرش كرسي عالٍ ويأخذ ملاحظات بينما يقول الآخرون عباراتهم. يتوجب عليه أثناء الاحتفال أن يُنظِّم كل تلك الجُمل ليكوِّن منها نصاً منسجماً. ثم يدعو الأقزام أن يمثلوا أمامه بعضهم قبل بعضهم الآخر ويردد كل منهم جملته، ولكن الفرق هذه المرَّة هو أن كل جملة من الجمل تُشكل جزءاً صغيراً من قصة عظيمة.

- إن هذا بارعٌ حقاً. قلتُ

- نعم هذا صحيح، ولكن تحصل أحياناً مفاجآتٌ عجيبة.

- ماذا تودُ أن تقول؟

- يمكننا أن نعتقد أن الجوكر يفعل أفضل ما بوسعه ليقوم بتنظيم ما كان قبل تدخله فوضى حقيقيَّة.

- ولكن؟

- ولكن يبدو وكأن هذا الترتيب، أقصد تلك الحكاية أو تلك القصة كانت قد وُجِدَتْ على الدوام.

- كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؟

- لا أعرف، ولكن إذا كان ذلك كذلك فإن هؤلاء الاثنين والخمسين قزماً هُم إذن شيءٌ آخر تماماً من مُجرد اثنين وخمسين فرداً. لا بد أن يكون هناك خيوطٌ غير مرئية تعيد ربطهم جميعاً مع بعضهم البعض، فأنا لم أقل لكَ كل شيء حتى الآن.

- تابعْ.

- في الأوقات الأولى من وجودي على الجزيرة كنتُ أتسلى أيضاً بالتنبؤ بالورق ولم يكن ذلك بالطبع إلا لعباً، ولكن من يدري ربما كان البحَّارة في كل موانئ العالَم على حق عندما كانوا يؤكدون أنه بإمكاننا أن نقرأ المستقبل في ورق اللعب. والحقيقة الغريبة هي أن شب السبات وشيخ الكُبة قد لعِبا عدَّة مرَّات دوراً حاسماً في ألعاب الصَّبر التي كنتُ أقوم بها قبل عِدَة أيام من ظهورهم المفاجئ على الجزيرة.

- غريب حقاً ....

- عندما ظهرتْ كل الأوراق بدأنا القيام بلعبة الجوكر ولم أعد أُفكِّر بهذا من حينها. ولكن هل تعرف ماذا كانت العبارات الأخيرة في القصة منذ أربع سنوات؟

- وكيف تريدني أن أعرف؟

- إذن اسمع: «يصل البحّار الشّاب إلى القرية في اليوم الأخير من سنة البستون. يكشف البحّار الألغاز بمساعدة شب الزّجاج. يتلقى السيد العجوز رسالةً هامّة من وطنه الأُم.»

- هذا .... هذا مُذهل حقاً!

- لم أُعطِ بالي كثيراً في هذه السنوات الأربع الأخيرة، ولكن عندما رأيتُكَ تصل البارحة مساءاً- والذي كان اليوم الأخير من أُسبوع وشهر وسنة البستون معاً- عادتْ عندها النبوءة القديمة إلى ذاكرتي من جديد. نعم لقد كنا بانتظاركَ بشكلٍ ما أيها البحّار....

فأدركتُ فجأةً وأنا أُكرر:

- «يتلقى السيد العجوز رسالةً هامّة من وطنه الأُم.»

- حسنٌ وماذا في هذا؟

كان الرجل العجوز يرنو إليَّ حينها بكل فضول.

- أولم تقل بأن اسمها ستين؟

أشار نعم برأسه.

- وهي من لوبك أيضاً؟

وافق هازّاً رأسه من جديد.

- إن والدي يدعى اوتوا وقد نشأ بدون أب، ولكن أمه تدعي ستين أيضاً وقد ماتت منذ سنواتٍ قليلة.

- ولكنه اسمٌ شائعٌ جداً في ألمانيا.

- من الطبيعي .... كان والدي طفلاً لرجلٍ وامرأةٍ لم يتزوجا فجدتي لم تتزوج أبداً. لقد .... لقد كانت مخطوبة لبحّارٍ غرق في البحر. لا هي ولا هو

كانا يعرفان أنهما كانا ينتظران طفلاً عندما التقيا للمرَّة الأخيرة ....وقد حصلت ثرثرة كبيرة: آه، إنها بنتٌ سهلة، وذاك الملّاح الغير معروف أصله من فصله قد أقلع مُبحراً بدلاً من أن يتحمل مسؤوليَّة فعلته.

- ممم .... ومتى وُلِدَ أبوكَ يا ولدي؟
- أنا .....
- أجب أقول لكَ. متى وُلِدَ أبوكَ؟
- لقد وُلِدَ في لوبك في ٨ أيار ١٧٩١ أي أكثر بقليل من إحدى وخمسين سنة.
- وذلك «البحَّار» كان ابناً لمعلم صناعة الزجاج أليسَ كذلك؟
- لا أعرف فجدتي لم تروِ عنه الشيء الكثير وذلك بالتأكيد بسبب الأقاويل، ولكنها كثيراً ما روت لنا كيف سقط وجرح ذراعه في اليوم الأخير عندما زحف على الشراع ليلوِّحَ لها بيده كإشارةٍ أخيرة في اللحظة التي غادرتِ فيها السفينة ميناء لوبك. لقد كانت تبتسم دائماً بروايتها لتلك القصة فقد قدَّم ذلك البرهان بشكلٍ ما على شرفها.

بقي الرجل العجوز ضائعاً في أفكاره لوقتٍ طويل وبنظرةٍ مُضطربة، ثم قال في النهاية:

- إن الذراع، بدون شك، أقرب مما تظن.

بهذه الكلمات شمَّر كم سترته وأراني بعض آثار الندوب القديمة على ذراعه من الأمام فصرختُ:

- جدّي.

أخذتهُ في أحضاني وشددتُ حاضناً إياه.

- ولدي .....، نجحَ في أن يقولها قبل أن ينتحب: ..... ولدي .... ولدي .....

ثلاثة الديناري

جذبها انعكاس صورتها إلى هُنا ....

هاهي أسرةٌ ملعونةٌ أيضاً قد ظهرتْ إذن في *الكتاب* وكان ذلك يبدو لي أكثر غموضاً شيئاً فشيئاً.

توقفنا لنتغدى في أحد المطاعم الريفيَّة للقرية واخترنا طاولة طويلة في ظل أشجارٍ عمرها حوالي مئة سنة. كانت تمتد حولنا مزارع شاسعة لأشجار برتقالٍ تنوء تحت ثقل الفاكهة.

تناولنا لحماً مشوياً وسَلَطَة يونانيَّة بالجبنة الإغريقيَّة التقليديَّة. وأثناء التحليَّة تحدثتُ مع والدي عن تقويم الجزيرة؛ من الطبيعي أنه لم يكن باستطاعتي أن أقول من أين أخرجتُ كل هذا فكان عليَّ إذن أن أختلق كذبة كأن أقول: إن هذا قد خطر على فكري عندما كنتُ اجلسُ وحيداً في الخلف.

كان والدي مأخوذاً كلياً أمام ذلك العِلم الوافر لابنه فأخذ قلماً وأخذ يخربش على منديله الورقيّ:

- اثنتان وخمسون ورقة تعادل اثنين وخمسين أُسبوعاً. وبعِبارةٍ أُخرى: ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً. ثم هناك ثلاثة عشر شهراً في كلٍ منها ثمانية وعشرون يوماً، مما يُساوي ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً أيضاً. في كلتا الحالتين ينقص يوم ....

- وهو يوم الجوكر، قلتُ.
- ولكن بالتأكيد!

تركَ نظره يسرح طويلاً جهة أشجار البرتقال ثم سألني:

- متى وُلَدتَ يا هانس- توماس؟

لم أفهم مغزى سؤاله ولكني أجبت:

- في ٢٩ شباط ١٩٧٢.
- وفي أي يوم كان؟

ففهمتُ في النهاية إلى أين كان يريد أن يصل: فقد وُلِدتُ في ٢٩ شباط مما يعني في سنةٍ كبيسة. وبمعنى آخر في يوم الجوكر وفقاً لرزنامة الجزيرة المسحورة. كيف إذن لم أُفكر بهذا من قبل؟ فصحتُ:

- في يوم الجوكر.
- تماماً.
- هل تعتقد أن هذا لكوني ابن لجوكر أم لأنني أحد الجواكر أنا نفسي؟ سألته.

وجَّهَ إليَّ والدي نظرة تتسم بالوقار وقال:

- كلاهما بالتأكيد. إذا كان عليَّ أن أُنجب ابناً فسيكون ذلك في يوم الجوكر إذن. إن احتمال ولادتكَ يساوي كذلك احتمال ولادتكَ في يوم الجوكر فهذه الأشياء مرتبطة، هل تفهم؟

لستُ متأكداً تماماً ما إن كان يُثمِّنُ حقيقة مولدي في يوم الجوكر بقدر ما يُثمن إمكان كوني وُلِدتُ. كان في صوته شيء يفضح خوفاً ما، ولكنني لم أتدخل في شؤونه.

وعلى أيٍ حال فقد عاد سريعاً إلى قصة التقويم تلك ليسألني من جديد :

- هل اكتشفت هذا الآن فعلاً؟ أه! لكل أُسبوع ورقته ولكل شهر ورقته الخاصة تبدأ من الآس حتى الشيخ كما أن لكل فصلٍ من الفصول واحداً من الألوان الأربعة. عليكَ أن تُعطَى براءة اختراع على هذا يا هانس- توماس! فعلى حدٍّ علمي لا يوجد بعد تقويمٌ للورق جديرٌ بهذا الاسم.

حرَّك قهوته وهو يضحك لنفسه ثم قال :

- كان هناك أولاً التقويم الذي وضعه يوليوس قيصر، ثم تم تجاوزه إلى التقويم الغريغوريّ وربما قد حان الوقت لتغييره.

كان بادياً أنه اهتم أكثر مني بذلك التقويم ، فاستمر في خربشة كل أنواع الأرقام على منديله الورقيّ ثم نظر في عينيَّ في النهاية بهيئة العفريت الصغير التي للجوكر وقال :

- وهذا ليس كل شيء .... لو جمعتَ كل الأرقام في لونٍ واحد فسوف تحصل على الرقم واحد وتسعين : الآس واحد والشيخ ثلاثة عشر والسيدة اثنا عشر وهكذا حتى النهاية. ليس عليكَ إلا أن تعُدَّ وسوف ترى بأن حاصل المجموع هو واحد وتسعون تماماً.

- واحد وتسعون؟ قلتُ.

لم أرَ جيداً إلى أين كان يريد أن يصل.

وضع قلمه وتركَ منديله الورقي لكي أنظر إليه مباشرةً.

- كم يساوي حاصل جداء واحد وتسعون بأربعة؟

- تسعة ضرب أربعة : ستةٌ وثلاثون ..... ثلاثمئة وأربعة وستون، أما هذا!! قلتُ.

- سوف لن أدعك تقول لي إن كل الأوراق مجموعة معاً تساوي ثلاثمئة وأربعة وستين بالإضافة إلى الجوكر. في بعض السنوات يكون هناك يومان للجوكر وربما من أجل هذا هناك جوكران في لعبة الورق يا هانس- توماس، إن هذا لا يمكن أن يكون بفعل الصُدفة.

- هل تعتقد فعلاً أن لعبة الورق قد صُمِّمَتْ على هذا الأساس؟

- لا. كما أنني لا أؤمن بهذا أيضاً، بل أعتقد بالأحرى بأن الناس لا ينجحون في تأويل الرموز الموجودة أمام أعينهم، فحتى الآن لم يُكلِّف أحدٌ نفسه القيام بحساب كل أوراق اللعب، هذا كل شيء، مع أن ألعاب الورق ليست هي ما ينقصهم.

بقي صافناً للحظة ثم رأيتُ ظلاً يَعبُر مُحيَّاه وهو يضيف:

- ولكن هناك مُشكلة جديَّة: سوف لن يكون من السهل جداً بعد ذلك انتزاع جوكر إذا كان له مكان في التقويم.

وهنا انطلق بضحكة عظيمة. وهكذا فإن الأمر ما كان ليكون بمثل تلك الخطورة إذن.

وهو خلف المقود من جديد بقي يبتسم لنفسه لوقتٍ طويل، اعتقد أنه كان لا يزال يفكر في قصة التقويم تلك.

ونحن نقترب من أثينا لمحتُ فجأةً لافتة ضخمة ومع أني كنتُ قد رأيتُ هذه اللافتة عدة مرَّات إلا أن قلبي أخذ يخفق بشدة في صدري في تلك المرَّة فصرختُ:

- قِفْ. توقفْ.

كـان والـدي مرعوبـاً كمـا لم يكـن في حياتـه فـركن الـسيارة علـى قارعـة الطريق مفرملاً بأقصى ما يُمكن وسألني وهو يلتفت:

- ماذا هناك؟

- بسرعة، هيًا اخرُجْ بسرعة. قلتُ.

فتح والدي باب السيارة وخرج قافزاً منها وهو يسألُ قلقاً:

- هل يؤلمكَ قلبكَ؟

أشرتُ لهُ بإصبعي إلى إشـارة الطريـق والـتي لم تكـن إلا علـى بـضعة أمتـارٍ أمامناً:

- هل ترَ تلك اللافتة هناك؟

كان والدي في هيئةٍ أثارت شفقتي قليلاً. ولكـنني كنـتُ منهمكـاً جداً في قراءة ما كان مكتوباً على اللافتة.

- حسنٌ وما بها تلك اللافتة؟ سأل والـدي والـذي لا بـد أنـه كـان يـسأل نفسه إن أصبح ابنه مجنوناً بالكامل.

- اقرأها، قلتُ له.

- «اتينا»، قرأ والدي الذي أخذ يهدأ، إنها باليونانية وهي تعني أثينا.

- هل هذا هو كل ما تراه حقاً؟ كُن لطيفاً إذن واقرأها لي بالعكس.

- «انيتا»، قرأ عندها.

لم أقل شيئاً واكتفيتُ بالموافقة بوقار. فقال:

- نعم. اعترف بأن هذا شيءٌ مُقلق.

اشعل سيجارة. لقد ارتضى الأمر بإذعانٍ تام مما جعلني عصبياً جداً.

- «مُقلق» أهذا كل ما استطعتَ أن تقوله؟ إنها هنا وهذا هو المقصود! لقد جاءت إلى هُنا. لقد جذبها انعكاس صورتها إلى هُنا. لقد كان هذا هو *قَدَرُها*. هل تفهم الآن كل القصة؟

لا بد أنني قلتُ شيئاً ما جعل والدي يستشيط غضباً.

- عليكَ أن تهدأ الآن يا هانس- توماس.

لا بُد أن صورة القَدَر والانعكاس في المرآة لم تعجبه فعندما صرنا في السيارة قال لي:

- ألا تعتقد بأنكَ تشط بعيداً في هذيانكَ بعض الأحيان؟

لا شكَ أنه قد لَمَّح بهذه الكلمات إلى القزم الذي كانَ يلاحقني وإلى التقويم العجيب. لقد وجدتُ هذا ظالماً من قِبَلِهِ فهو لم يكن في وضع يخوله أن يلومني على هذياني، فمن منا كان البادئ في الحديث عن العائلة الملعونة، ها؟

بينما كنا نسير بالسيارة نحو أثينا أخذتُ *الكتاب* مرَّةً ثانية وقرأتُ كيف تم إعداد الاحتفال بيوم الجوكر على الجزيرة المسحورة.

أربعة الديناري

كانت يدها الصغيرة ندية كَطَلِ الصباح....

لقد التقيتُ إذن بجدي لأبي على الجزيرة المسحورة. لقد كنتُ ابن ذلك الطفل الذي تركه وراءه ليولد في لوبك عندما أبحر هو في رحلته الأخيرة.

ما الذي كان أكثر غرابة في تلك القصة؟ أهو أن بذرة صغيرة تستطيع أن تكبر وتكبر حتى تصبح موجوداً بشرياً؟ أم أن رجلاً يستطيع أن يمتلك مخيلة فيَّاضة بحيث تغدو أحلامها حقيقيَّة في النهاية وتأخذ أشكال موجودات صغيرة

تتقافز بحرية؟ ولكن أليس البشر أنفسهم بالمخلوقات المذهلة المولودة من مخيلة أحدٍ ما؟ مَنْ الذي وَضَعَنَا في العالَم؟

لقد أمضى فرود نصف قرن على هذه الجزيرة الكبيرة؛ هل سيمكن لنا نحن الاثنين أن نعود معاً في يومٍ ما إلى ألمانيا؟ وهل سأتمكن أنا من اجتياز عتبة مخبز والدي في لوبك مُقدماً له الرجل العجوز بالقول: « ها أنا ذا يا والدي. لقد عُدتُ من العالَم الواسع وقد أعدتُ معي فرود، أباك.»

هاجمتني آلاف الأفكار عن العالَم، عن التاريخ وعن سلسلة الأجيال عندما كنتُ أضُم فرود إلى صدري، ولكن ما قطع بسرعة عليَّ تأملاتي كان حشدٌ من الأقزام المتدثرين بالأحمر والذين كانوا يصعدون من القرية راكضين، فهمستُ للرجل المُسِن:

- انظُرْ لدينا زيارة.

- إنهم الكُبة، قال بصوتٍ مخنوق من النشيج. هُم يأتون دائماً لاصطحابي إلى حفلة الجوكر.

- أنا مُتعجل لأكون هناك. قلتُ.

- وأنا أيضاً يا ولدي. ألم أقل لكَ أن شب البستون هو من أعلن عن الخبر المُهم من الوطن الأُم؟

- لا .... وكيف هذا؟

- إن البستون يجلبون النحس دائماً. هذا شيء تعلمته في جميع مقاهي الموانئ قبل وقتٍ طويلٍ من الغرق وقد تحققتُ من هذا على الجزيرة أيضاً: ففي كل مرَّة كنتُ أُصادف فيها أحد البستون في القرية كان بإمكاني أن أكون مُتأكداً بأن شيئاً سيئاً سيحصل لي.

لم يكن لديه الوقت ليقول المزيد عن هذا إذ انبثقت أمامنا كل الكُبة من الزوج وحتى العشرة وهن يرقصن رقصة ريفيَّة. كان لديهن جميعاً شَعر طويل أشقر وفساتين حمراء بقلوبٍ في أعلاها. مقارنةً بثياب فرود الكالحة وبذلة البحار الرثة التي كنتُ ارتدي فقد كانت لفساتينهن الحمراء ذاك البريق الذي أُجبرني على فرك عينيّ.

عندما نهضنا كلانا شكلّنَ حلقة من حولنا وهتفن وهنّ يضحكن:

- جوكر سعيد.

ثم أخذن بالرقص وهنّ يغنين مدوماتٍ بفساتينهن. فقال الرجل العجوز:

- حسنٌ، هيَّا، يكفي هذا الآن.

كان يتحدث معهن كما لو كان يتحدث مع حيواناتٍ أليفة.

مع هذه الكلمات صمتن الصبايا وأخذن يدفعننا بلطف إلى الأسفل باتجاه القرية. من جهتي أنا فقد كانت خمسة الكُبة هي من أخذت بيدي وجرتني، كانت يدها الصغيرة ندية كَطَلِ الصباح.

عندما وصلنا إلى القرية فوجئنا بالهدوء الذي كان يسود ساحة السوق وفي الطرقات. ولكننا كنا نسمع صراخاً وزعيقاً من بعض المنازل، ثم غار الكُبة في أحد المنازل واختفوا.

مع أن الشمس كانت في أوجها إلا أن مصابيح الزيت كانت لا تزال مشتعلة حول محفلٍ ضخم.

- هُنا، قال فرود.

فدخلنا إلى صالة الأفراح.

لم يكن أيٌّ من الأقزام قد وصل بعد، ولكن كان هناك أربع موائد كبيرة قد جُهزت بصحونٍ زجاجية وأوانٍ عالية طافحة بالفاكهة، كما كان هناك العديد من القناني وأباريق مليئة بذلك المشروب اللامع الشهير، وكان هناك أيضاً ثلاثة عشر كرسياً حول كل مائدة من الموائد.

كانت الجدران مكوَّنة من جذوعٍ خشبيَّة صقيلة وكانت مصابيح زيتيَّة من الزجاج الملون تتدلى من جسور السقف. كان هناك أربع نوافذ تخترق أحد الجدران وُضِعَتْ على حوافها أحواض فيها أسماك حمراء، زرقاء أو مُذهَّبة. كان ضوء الشمس يجتاح الصالة مخلفاً ظلالاً ذهبية على القناني والأحواض جاعلاً أقواس قُزح صغيرة جداً تتلاعب على الأرضية وعلى طول الجدران. في مقابل الجدار المُصمت وُضِعَتْ ثلاثة كراسٍ عالية أحدها بجانب الآخر فكانت تشبه مقاعد القضاة في قاعة المحكمة.

بالكاد كان عندي الوقت لأرى كل هذا حتى انفتح الباب وقفز الجوكر إلى داخل الصالة وهو يقول بابتسامةٍ عريضة:

- مرحباً بكُما.

كانت أقل حركة من حركاته تجعل الأجراس الصغيرة لبذلته البنفسجيَّة وتلك التي لقبعته الحمراء والخضراء بأُذنيها الطويلتين المُتهدلتين تخشخش.

قفز فجأةً نحوي وشد أُذنيَّ. كان يمكن القول بأن جلاجله كانت لحصانٍ مجنونٍ يجر عربة. ثم قال:

- حسنٌ، هل أنتَ سعيد لأن تكون مدعواً للعرض الكبير في يوم الاحتفال؟

- شكراً للدعوة، أجبتُ.

كنتُ خائفاً قليلاً من ذاك العفريت الذي قال:

- ماذا أرى؟ لقد تعلمنا فن قول شكراً! لا بأس.

فتدخل فرود بلهجة قاسية:

- ألا تعتقد بأنه سيكون من الأفضل لكَ أن تهدأ قليلاً أيها المجنون؟

ولكن الجوكر الصغير اكتفى بإلقاء نظرةٍ مُرتابةٍ نحو البحَّار العجوز وقال له:

- أنتَ مُرتعِبٌ قبل العرض الكبير، ها؟ ولكن مهما يكن فقد فات الأوان على الندم إذ أن كل الأوراق سوف تكون اليوم مقلوبة بحيث تكون الصورة نحو الأعلى إذ أن الحقيقة تكمن في أوراق اللعب. لنتوقف عن قول المزيد حول هذا. انتهت الرسالة.

بقفزة كان القزم في الشارع من جديد. هزَّ فرود رأسه بأسى فسألته:

- من يُمثل أعلى سُلطة هنا على الجزيرة في الوقت الحالي، أنتَ أم هذا المجنون؟

- لقد كنتُ أنا حتى الآن، أجاب فرود بارتباك.

فُتِحَ الباب مرَّة أُخرى بعد وقتٍ قصير وظهر الجوكر من جديد. بأُبهة عالية أخذ مكاناً على واحدة من الكراسي الثلاثة العالية المُقابلة للجدار وأشار لنا، أنا وفرود بأن نأخذ مكانينا بجانبه. جلس فرود في المُنتصف والجوكر على يمينه وأنا على يساره؛ فصرخ الجوكر ما أن جلسنا:

- اُصمتا. رغم أننا لم نكن قد فتحنا فمنا.

سمعنا بعدها صوت ناي أخاذ، وعَبَرَ الديناري كلهم عتبة الباب بخطواتٍ صغيرة. كان على رأسهم *الشيخ* الصغير متبوعاً *بالبنت* و*بالشب*، وتلحق بهم

كـل الـديناري الأخريـات حيـث كانـت الآس تـسير في المـؤخرة. مـا خـلا الشخصيات الملكيّة فقد كن يعزفن جميعاً على نايات زجاجيّة صغيرة وكانوا يرقـصون رقـصة فـالص غريبـة. كانـت رنّـة النايـات مُتـسقة وحـادّة كـصوت القصبات الأكثر صغراً في أُرغن الكنيسة. كانت بدلاتهم زهريّة اللون وشَعرهم فضيّاً وعيونهم زرقاء. ما عدا الشيخ والشب، كانت كل الديناري صبايا.

- عظيم، صاح الجوكر وهو يُصفق.

فَعَلَ فرود نفس الشيء فقلدتهما أنا أيضاً.

أخذ الديناري مكانهم في إحدى زوايا الصالة مُشكلين رُبع دائرة. عندها وصل السبات ببدلاتهم الزرقاء العاتمة. كانت البنت والآس ترتديان فستانين من نفس اللون. كان شَعرهم أسمرٌ أجعد وبشرتهم كامدة وعيونهم غامقة وبُنيَتُهُم أمتن من بُنيَة الديناري. عندهم فقط البنت والآس ليستا من الرجال.

انتظم السبات بجانب الديناري بحيث شكلوا معاً نصف دائرة. دخل بعدها الكُبة بأروابهم الحمر القانية. كان الشيخ والشب من بينهم من الرجال فقط وبدلتاهُما حمراوان غامقتان. كان شَعر الكُبة أشقر وسحنتها مُتألقة وعيونها خضراء. بينما كانت آس الكُبة مميزة عن الآخرين إذ أنها كانت ترتدي ثوباً أصفر هو نفس الثوب الذي كانت ترتديه عندما التقيتها في الغابة. ثم مشتْ وجاءت لتأخذ مكانها بجانب شيخ السبات. كان الأقزام يشكلون حينها ثلاثة أرباع الدائرة.

كان البستون هُم آخر الواصلين. كان شَعرهم أسود مُشَعَّثاً وعيونهم سوداء تماماً مثل بدلاتهم. كانت أكتافهم أعرض بقليل من أكتاف الأقزام الآخرين بينما كانت تبدو على وجوههم جميعاً ملامح جذّابة قليلاً. كانت البنت والآس من بينهم من النساء فقط واللتين كانتا ترتديان فُستانين بنفسجيّين.

جاءت آس البستون وأخذت مكانها بجانب شيخ الكُبة. كان الاثنان والخمسون قزماً يشكلون عندها دائرة كاملة، فغمغمتُ قائلاً:

- مُثير.

- هكذا تبدأ حفلة الجوكر من كُلِ سنة، أجابني فرود هامساً، إنهم يمثلون الاثنين والخمسين أُسبوعاً من السنة.

- ولماذا ترتدي آس الكُبة فستاناً أصفر؟

- لأنها الشمس وهي في ذروة ارتفاعها في السماء في عِزِّ الصيف.

كان لا يزال هناك مكانٌ فارغٌ ما بين شيخ البستون وآس الديناري، وهُنا نزل الجوكر عن كُرسيِّهِ وأخذ مكانه بينهما. وهكذا فقد اكتملت الدائرة نهائياً. لمَّا نظر الجوكر أمامه وجد أن آس الكُبة قُبالته مباشرةً.

أخذ الأقزام بأيدي بعضهم البعض وهُم يقولون:

- جوكر سعيد، وسنة سعيدة.

وعندما استمع الجوكر الصغير إلى هذه الكلمات رفع أحد ذراعيه مُخشخشاً بجلاجله وهو يقول بصوتٍ قوي:

- هي ليست فقط سنةٌ انصرمتْ الآن ولكن هذا ختام لعبةٍ كاملة لمدة اثنين وخمسين عاماً فابتداءاً من اليوم سيكون المستقبل تحت رمز الجوكر. عيد ميلاد سعيد يا أخي الجوكر. لنتوقف عن قول المزيد حول هذا. انتهت الرسالة.

وما أن تلفظ بهذه الكلمات حتى صافح يده بيده الأُخرى كما لو أنه كان يريدُ أن يُهنئ نفسه. صفَّق الأقزام تصفيقاً حارّاً، على الرغم من أنهم لم

يُدركوا المعنى البعيد لخطابه. وفي النهاية تحلقوا حول الموائد الأربع المُجهزة لكل عائلة من العائلات.

وضع فرود إحدى يديه على كتفي وهمس:

- إنهم لا يفهمون جيداً ماذا يقصد بذلك، إنهم لا يفعلون سوى تكرار الطريقة التي كنتُ أضع بها الأوراق في دائرة سنة بعد أُخرى للاحتفال بمطلع كل سنة جديدة.

- ولكن ....

- هل سبق لكَ أن رأيتَ خيولاً وكلاباً تركضُ في مضمار سيرك يا ولدي؟ إنه نفس الشيء مع هؤلاء الأقزام: إنهم مثل الحيوانات المُروَّضة، وحده الجوكر ....

- حسنٌ وماذا؟

- لم أرهُ أبداً لا يمثل هذه الثقة بالنفس ولا يمثل هذا التغطرس.

خمسة الديناري

لقلة بختي، كان ما سُكِبَ في كأسي حلواً وعذباً .....

أخطرني والدي بأننا كنا سندخل أثينا فهجرتُ بسرعة عالَم الأقزام ونحن قريبون جداً من هدف رحلتنا.

بفضل الخارطة وقَدْرٍ كبير من المثابرة نجح والدي في النهاية بإيجاد وكالة سفر. بقيتُ في السيارة لأُراقب مرور كل أولئك اليونانيين القصار بينما كان والدي يحاول إيجاد فندق بسعرٍ يناسب إمكانياتنا.

وعند عودته رسم ابتسامة عريضة ثم قال وهو يأخذ مكانه خلف المقود من جديد:

- فندق تيتانيا. لديهم غرفة فارغة مع كراج وهو الشيء المهم. ولكن بما أننا سنُمضي خصوصاً بضعة أيام هنا فقد قلتُ لهم أنني وددتُ *رؤية* الأكروبول ونجحنا في النهاية بإيجاد ذلك الفندق الذي لديه شرفة كبيرة بإطلالة لا تحجبها الأبنية عن أثينا.

لم يكن يُبالغ فقد أُعطيت لنا غرفة في الطابق الثاني عشر فيها إطلالة خلّابة. أخذنا المصعد مباشرةً لكي نبلغ الشرفة التي كانت تُطل مباشرةً على الأكروبول.

بقي والدي صامتاً لفترة طويلة وهو يتأمل المعابد القديمة ثم قال في النهاية:

- هذا لا يُصَدَّق. فعلاً هذا لا يُصَدَّقَ!

أخذ يذرع الشرفة بعصبية بالطول والعرض، ثم هدأ في نهاية الأمر وطلب بيرة. اخترنا طاولة عند طرف الشُرفة مواجهة تماماً للدربزين في مقابل الأكروبول. اعتقدتُ أن والدي كان سيغدو مجنوناً تماماً عندما أضيئت الأنوار الليليَّة بعد قليل في حرم المعابد.

ولمّا تحرر من عواطفه قال:

- سوف نذهب إلى هناك غداً صباحاً و سنشاهد ساحة السوق القديمة لأثينا وسأُريكَ كيف كان الفلاسفة العِظام يتجولون يميناً وشمالاً وهم يتحدثون عن مسائل بغاية الأهمية والتي ولسوء الحظ قد نسيتها أوروبا اليوم.

كان هذا مقدمة لعرضٍ كامل عن فلاسفة أثينا. قاطعته بعد لحظة قائلاً:

- كنتُ أعتقدُ أننا قد قدمنا إلى هُنا للبحث عن ماما. لا تقل لي أنكَ نسيت؟

كان في كأسه الثانية أو الثالثة من البيرة فأجاب:

- بالتأكيد لا، ولكننا إذا وجدناها قبل أن نرى الأكروبول فسوف لن يكون لدينا شيء لنفعله معها وسيكون هذا أسوء شيء يمكن أن يحدث بعد كل تلك السنوات، أليس كذلك؟

فهمتُ في تلك اللحظة أن والدي كان يتوجس كثيراً من لقائه بماما. كانت تلك الفكرة مُرعبة جداً بحيث أحسست فجأة أنني أكاد أن أُصبح بالغاً. حتى ذلك الحين كنتُ أجد من الطبيعي أن نبدأ البحث عن ماما مباشرةً ما أن نصل إلى أثينا وأن كل مشاكلنا كانت ستُحل لو أننا وجدناها، فانتبهتُ عندها إلى أي حد كنتُ ساذجاً.

لم تكن تلك غلطة والدي فقد كرَّر على مسامعي مراراً بأنه غير متأكد مما إذا كانت ستريد أن ترجع معنا إلى المنزل، ولكنه كان كمن يغني في الطاحون. كيف يمكن لها ألا ترجع معنا بعد أن تجشمنا عناء القدوم لإحضارها حتى اليونان؟

أدركتُ في النهاية موقفي الصبياني وشعرتُ لحظتها بألمٍ كبيرٍ على والدي. بالتأكيد وجدتُ أن لدي أنا أيضاً الكثير لأشكو منه.

اعتقد بأن هذا هو ما يُفسِّرُ بقية الأحداث.

بعد أن قصَّ عليَّ بعض الحماقات عن والدتي وعن الإغريق القدماء سألني والدي:

- ما رأيك بقدحٍ من النبيذ يا هانس- توماس؟ أنا سآخذ منه واحداً على كل حال. إنه لمن البائس جداً أن يشرب المرء النبيذ وحيداً ....

- أولاً: أنتَ تعرف جيداً بأنني لا أُحبُ النبيذ، وثانياً: أنا لستُ بالغاً. قلتُ.

فأعلن وهو واثقٌ جداً من نفسه:

- حسنٌ، سوف أطلب لكَ شيئاً ستحبه، ومن جهةٍ أُخرى فإنه لا ينقُصُكَ الشيء الكثير لتكون بالغاً.

أشار إلى النادل وطلب قدحاً من المارتيني الأحمر لي وقدحاً من الميتاكسا له.

نظر النادل إليَّ والذهول بادٍ عليه ثم حوَّل نظره إلى والدي وقال:

- *Really ?* (حقاً) ؟

أشار والدي نعم بإشارةٍ من رأسه واختفى النادل.

لقلة بختي، كان ما سُكِبَ في كأسي حلواً وعذباً ومنعشاً جداً على وجه الخصوص وذلك بسبب كل ذلك الثلج الذي وُضِع فيه. شربتُ منه مرَّتين أو ثلاث قبل أن تقع المأساة.

إذ أصبحتُ شاحب الوجه وكنتُ قاب قوسين أو أدنى من أن يُغمى عليّ وسمعتُ والدي يصرخ فيّ:

- يا ولدي ....

أعادني إلى غرفتنا وقد جعلني ما حدث محبطاً تماماً حتى صباح اليوم التالي. لقد شعرتُ أنني كنتُ بحالة تثير الشفقة وأعتقد أن والدي كان كذلك أيضاً.

ستة الديناري

كانوا ينزلون من وقتٍ لآخر ويختلطون بالمخلوقات البشرية ....

كان أول شيء خطر على ذهني باستيقاظي في ذلك الصباح هو أنه قد بدأ يطفحُ الكيل بي فعلياً من إدمان والدي للخمر.

ربما كان أبي هو العقل الأكثر توقداً في شمال الألب أو في ارندل على الأقل فكان لا يجب تركه ليدمر نفسه بالكحول! وقد كان الأوان قد حان لوضع الأمور في نصابها مرَّة واحدة وإلى الأبد وقبل أن نجد ماما.

بعد أن نهض والدي من السرير وتكلم من جديد عن الأكروبول قررتُ أنا إعادة فتح النقاش عند الفطور.

انتظرتُ حتى انتهينا كلانا من الطعام. كان والدي قد طلب قهوة وأشعل سيجارة يومه الأولى وهو يَبسط خريطة كبيرة لأثينا فسألته:

- ألا تجد أنك تبالغ قليلاً؟

نظر إليَّ فتابعت:

- لا تتظاهر بالبراءة فأنتَ تعرف جيداً جداً عماذا أريد أن أتحدث. لقد سبق لنا أن تحدثنا عن طريقتكَ الدائمة في الإفراط في الشراب بشكلٍ عشوائي، ولكن أن تدفع بابنكَ أيضاً إلى ذلك فإنني أجد أنكَّ قد تجاوزتَ الحدود.

- أنا نادم يا هانس- توماس، مِنَ الواضح أنكَ لم تحتمل المارتيني ليلة البارحة. قال.

- في هذا نعم، ولكن ألا تعتقد بأنكَ قد تستطيع أن تُخفف الكمية قليلاً أنتَ أيضاً؟ فمن الخسارة أيضاً أن يُمسي جوكر ارندل الوحيد مدمن خمر مثل الآخرين جميعاً.

كان إحساسه بالذنب يثير شفقة من يراه، ولكنه ما كان ليتخلص من هذا بعد كل تلك السنوات بدون أضرارٍ فادحة. ثم قال:

- سوف أُفكر في هذا.

- ستفعلُ جيداً لو فكرتَ بذلكَ الآن حالاً، فأنا لا أعتقدُ أن ماما ستكون فَرِحة لأن تجد فيلسوفاً تالِفاً.

تهالكَ على كرسيِّهِ. كان عليه أن يبرر نفسه أمام ابنه الذي جعلهُ متضايقاً وقد كنتُ مندهشاً جداً لسماعه وهو يعترف:

- لقد قلتُ لنفسي الشيء نفسه أيضاً يا هانس- توماس.

كان ذلك الاعتراف مُهماً جداً فقررتُ أن أتوقف هنا في ذلك اليوم. لا أعرف لماذا، ولكن ولأول مرَّة ينتابني الانطباع بأن والدي لم يقل لي كل شيء حول أسباب رحيل ماما.

فسألتهُ وأنا أُلقي نظرة على الخارطة:

- كيف السبيل للذهاب إلى الأكروبول؟

وها نحن ذا وقد انطلقنا في جولة من جديد.

أخذنا تاكسي من أمام الفندق لكسب الوقت. أخذ التاكسي ممراً يصعد على طول الرابية ولم يبقَ علينا سوى تسلق الأمتار الأخيرة حتى نصل إلى الموقع.

عندما صرنا أسفل البارثينون طاف فيه والدي عدَّة مرَّات وهو يُتمتم:

- مذهل .... إنه مُذهلٌ تماماً.

مشينا وقتاً طويلاً بين تلك الأطلال من أجل أن نتوقف في النهاية لنتأمل المسرح والذي كان يوجد في أسفل الرابية بشكلٍ أُفقي تماماً. كانت التراجيديات تُقدم على هذا المُدَرَّج القديم وكان من بينها مأساة الملك أوديب.

أشار لي والدي إلى حجرٍ كبيرٍ وهو يقول لي:

- اجلس هُنا.

وهكذا بدأ درسه عن الأثينيين.

عندما انتهى، في اللحظة التي كانت فيها الشمس في أوجها، تابعنا جولتنا ونحن نشاهد المعابد باهتمام واحداً تلو الآخر. شرحَ لي والدي بذلك التفصيل الفرق بين الأعمدة ذات النمط الدَّوريّ والأُخرى ذات النمط الأيوني

مؤكداً على أن البارثينون ليس فيه خطوط نحو اليمين. داخل تلك الآبدة العظيمة لم يكن يوجد إلا شيٌ واحد: تمثالٌ لأثينا - الإلهة الحارسة أثينا - بارتفاع اثني عشر متراً.

لقد تعلمتُ أن آلهة الإغريق كانوا يسكنون على الأولمب وهو جبل مرتفع في شمال اليونان وإن هؤلاء الآلهة كانوا ينزلون من وقتٍ لآخر ويختلطون بالمخلوقات البشرية. لقد كانوا إذن وبحسب كلام أبي: مثل جواكرٍ عظماء في لعبة الورق التي للإنسان.

كان يوجد هناك في الأعلى مُتحفٌ صغير، ولكنني طلبتُ أن أُعفى من ذلك؛ طلبٌ أُجيب على الفور فأشرتُ لوالدي إلى المكان الذي كنتُ سأنتظره فيه.

لو لم أشعر بأن *الكتاب* يناديني للعودة إليه لكنتُ قد قبلتُ طوعاً أن أجعل دليلاً كوالدي يقودني إلى المُتحف.

كنتُ قد أصختُ السمع لما رواه لي والدي عن الإغريق القدماء، ولكنني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل عما كان سيحصل أثناء حفلة الجوكر العظيمة. كان الأقزام الاثنان والخمسون قد شكلوا دائرة كبيرة في صالة الأفراح حيث كان كل واحد منهم سيقول عبارته ....

سبعة الديناري

مهرجانٌ ضخم تلقى فيه المدعوّون تعليمات أن يتنكروا بورق اللعب ....

استمر الأقزام جميعاً بالكلام في نفس الوقت حتى تلك اللحظة التي صفّق الجوكر فيها بيديه وسأل الحفل:

- هل فكرتم جميعاً بعبارة من أجل لُعبة الجوكر؟

- نعمممم ..... صاحوا جميعاً بلحنٍ جماعي.
- إذن ها أنا أسمعكم. أعلن الجوكر.

مع هذه الكلمات ألقى الأقزام الاثنان والخمسون عباراتهم بنفس الوقت. أيُّ نشاز! ثم ساد الصمت المطبق كما لو أن المشهد قد انتهى.

فهمس فرود في أذني:

- نفس الشيء في كل مرَّة. من الطبيعي أن كل واحد لا يسمع إلا عبارته هو.

قال الجوكر:

- شكراً لاهتمامكم. ولكن فلترددوا الآن عباراتكم واحدة فواحدة. ولنبدأ مع آس الديناري.

نهضتْ الأميرة الصغيرة وقالت وهي تُبعد خصلة من شعرها الفضي عن جبهتها:

- ***القدر هو رأس قرنبيط ينمو في كل الجهات بشكلٍ متساوٍ.***

ما أن تلفظتْ بهذه الكلمات حتى جلست من جديد وقد احمرَّ خدَّاها.

هرش الجوكر رأسه وهو يضحك:

- رأس قرنبيط؟! ها ها. ياه! لا شيء أكثر حمقاً من هذا. حسنٌ والآن دور زوج الديناري.

فنهضت زوج الديناري على الفور وقالتْ:

- ***تتطابق العدسة المُكبرة مع كسرة زجاج حوض السمكة الحمراء.***

فعلّق الجوكر:

- عن جد؟ كان من الأفضل أيضاً لو أنكِ كشفتِ لنا أية عدسة مُكبِّرة تطابقتْ مع أية قطعة زجاج حوض. ولكن الصبر، الصبر فلا يمكن أن تخرج كل الحقيقة من زوج الديناري وحدها. التالي.

فنهضت ثلاثة الديناري وقالت وهي تشهق قبل أن تجهش بالبكاء:

- *يبحث الأب والابن عن المرأة الجميلة التي لا تجد نفسها.*

تذكّرتُ أنني كنتُ قد رأيتها تبكي قبلاً في مناسبة أُخرى. وبينما قام شيخ الديناري بمواساتها سأل الجوكر:

- ولماذا لا تجد نفسها؟ سوف نعرف ذلك عندما ستُصبح كل الأوراق مقلوبة. التالي.

فتوالى الديناري جميعهم.

- *الحقيقة هي أن ابن معلم صناعة الزجاج لم يشأ أن يؤمن بقوة مُخيلته.* قالتْ سبعة الديناري.

لقد كان هذا تماماً ما قالته في مصنع الزجاج.

- *تخرج الشخصيات من كُم الحاوي ويقرصون أنفسهم ليتأكدوا ما إن كانوا أحياءاً حقاً.* أكدتْ تسعة الديناري.

لقد كانت هي من قالت إنها كانت تود لو تستطيع أن تُفكر في فكرة من الصعب جداً التأمل فيها ولكنها لا تنجح في فعل ذلك. وجدتُ من طرفي أنها بذلك قد حلّتْ مشكلتها بشكلٍ لا بأس به أبداً.

وفي النهاية قال شيخ الديناري:

- *لُعبة الصبر هي لعنة عائلة.*

فصاح الجوكر:

- مثيرٌ جداً فها نحن قد تمكنًا ومنذ الربع الأول من وضع عدَّة قطع في مكانها من المتاهة. هل تلاحظون قليلاً عمق هذه اللُعبة؟

أثار هذا التصريح شيئاً من الهيجان والهمسات ولكن الجوكر تابع:

- بقي لنا أن نسمع أيضا الثلاثة أرباع الأُخرى من دائرة القَدَر. هيَّا دوركم أيها السبات.

- *القَدَر هو ثعبانٌ جائعٌ جداً حتى أنه يلتهم نفسه*. قالت آس السبات.

- *ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى*. تابع زوج السبات.

عرفتُ أن هذه العبارة كانت على شفتيه منذ زمنٍ طويل وأنها قد أفلتت منه مباشرةً قبل أن ينام في الحقل فقد كان بغاية الخوف من أن ينساها.

توالى كل الأقزام الآخرين واحداً بعد الآخر: بقية السبات أولاً متبوعين بالكُبة ثم بالبستون.

- *تحتوي العلبة الداخليَّة على العلبة الخارجيَّة كما تحتوي العلبة الخارجيَّة على العلبة الداخليَّة*. قالت آس الكُبة. لقد كانت هذه العبارة هي بالضبط تلك التي قالتها لي عندما التقيتُ بها في الغابة.

- *في صباح أحد الأيام يُفْلِتُ الشيخ والشب من سجن الوعي.*

- *يُخفي جيب السترة علبة ورق لعب عليها أن تجف بالشمس.*

كان الأقزام يتكلمون بسرعة كبيرة بعضهم بعد بعضهم الآخر حتى صارت متابعتهم صعبةً عليَّ. كان كل واحد يقول عبارة أكثر عبثية من عبارة الآخر. كان بعضهم يقولونها هامسين وآخرون وهم يضحكون والبعض الآخر

بإطناب كما لو كانوا يُلقون قصيدة وغيرهم وهم يجهشون أو يبكون. كان الانطباع العام- هذا إذا استطعنا توظيف مصطلح كهذا لشيء مفكك ومُختلط بمثل هذه الإفادات - يُظهِرُ استحالة فهم المعنى الخاص لكل جملة وأقل من ذلك المغزى العام، ولكن الجوكر كان قد أكبَّ على تسجيل كل كلمة ومكانها في تعاقب كل تلك الإفادات.

في آخر الختام رمى شيخ البستون الجوكر بنظرة ثاقبة وهو يقول:

- ***سيكون على ذاك الذي يكشف القَدَر أن ينجو منه.***

كان هو آخر من تكلم. أتذكر أن هذه العبارة قد بدت لي بغاية الذكاء، ولا بد أن الجوكر كان من رأيي إذ أنه صفّق بكل حماس مخشخشاً بكل جلاجله الصغيرة؛ بينما رأيتُ فرود يهز رأسه بأسى. نهضنا بعدها عن كراسينا لكي نختلط بالأقزام الذين كانوا يتجولون حينها بين الموائد.

اعتقدتُ من جديد للحظة أنني في مَصَحة للأمراض العقليَّة وربما يكون فرود، الذي كان عليه الاعتناء بهم، قد أصبح مجنوناً في النهاية هو أيضاً.

من الممكن جداً إن يكون كل ما قصَّه عليّ، عن الغرق وعن لعبة الورق وأيضاً عن تلك الشخصيات التي وُلِدتْ من مخيلته التي بُعِثتْ حيَّة فجأة، هي هلوسات عقل مريض. فلم يكن عندي إلا إشارة واحدة وهي: أن اسم جدَّتي كان ستين فعلياً وفي الحقيقة فإن والدي ووالدتي كانا قد قالا لي أن جدِّي قد سقط عن الشراع وجرح ذراعه.

قد يكون فرود عاش فعلياً على الجزيرة لأكثر من خمسين سنة فقد سمعتُ سابقاً أن بعض الناجين من الغرق عاشوا حتى شاخوا. كما يمكن جداً كذلك أن يكون قد احتفظ بعلبة ورق لعب في جيبه، بيد أنني لا أفهم بالمقابل كيف أن أوراقاً استطاعت أن تُصبح حيَّة بقوة المخيلة وحدها.

كان من البديهي وجود تفسيرٍ آخر: كأن لا يكون لكل هذا مكان إلا في مخيلتي أنا. من يدري ما إن أصبحتُ مجنوناً بدوري؟ فربما كان هناك شيء ما في الأعناب التي أكلتها قرب البحيرة الممتلئة بالأسماك الحمراء؟ وعلى أية حال لم أجد جواباً على أسئلتي .....

انتزعتني من أفكاري ضجةُ ذكّرتني بجَرَسِ الباخرة كما شعرتُ بنفس اللحظة أن أحداً ما يسحبني من كُمي. لقد كان الجوكر بينما لم يكن جرس السفينة في الحقيقة إلا طنين جلاجل بدلته بدلة البهلوان.

- بالمناسبة كيف تحكم على أن لدينا توزيعة ورق جيدة؟

بقي ثابتاً يحدق بي بتعبيرٍ يشي بوضوح أنه كان يعرف عن ذلك أكثر مما كنتُ أعرف أنا.

امتنعتُ عن الرد فتابع المهرج:

- قل لي، ألا تجد أنه من الجنون تماماً أن يصير ما نفكر فيه حقيقياً فجأةً؟

- أوه، بالتأكيد بلى، ولكن بما أن هذا مستحيل ....

فقال الجوكر:

- مستحيل، معك حق. في حين أنه يجب الاعتراف بأن هذا حقيقي.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لقد سبق أن قلته لكَ. نحن كلانا هنا من لحمٍ ودم، إذا صحَّ المعنى، نراقب بعضنا البعض بعد أن تحرَّرنا. كيف نجحنا في أن نخرج من «سجن الوعي؟» أي نوعٍ من السلالم يستلزم هذا النوع من العمل؟

- ربما قد عشنا هُنا دائماً. قلتُ على أمل أن أحبطه لكي لا يتابع هذا النقاش.

- من الطبيعي، ولكن السؤال يبقى مطروحاً: من نحن أيها البحّار؟ ومن أين أتينا؟

لم أكن أُحب أن يَجُرَّني إلى تأملاته الفلسفيَّة، ولكن كان عليَّ أن أعترف بأنني كنتُ غير قادرٍ أبداً أن أُجيب عن الأسئلة التي كان يطرحها. ثم صاح:

- لقد خرجنا من كُم الحاوي ثم وجدنا أنفسنا أحياءاً تماماً بطرفة عين. هذا غريب، أليس كذلك؟ ماذا يقول البحّار في هذا؟

كنتُ قد لاحظتُ عندها اختفاء فرود فسألتُ:

- أين فرود؟

- على المرء أن يجيب أولاً على أسئلة الآخرين قبل أن يطرح سؤاله هو. قال قبل أن أسمع ضحكة جميلة متقطعة.

- ماذا جرى لفرود؟ سألتُ لمرَّةٍ ثانية.

- كان لديه رغبة في أن يستنشق الهواء. هو يشعر دائماً في هذه المرحلة من اللُعبة بحاجةٍ مُلّحةٍ للخروج فما يسمعه يخيفه جداً حتى أنه يعملها أحياناً في سرواله، ولهذا فهو يخرج. أعلن الجوكر.

شعرتُ بوحدةٍ رهيبة وسط هؤلاء الأقزام في صالة الأفراح الكبيرة تلك. كان أغلبهم قد غادروا أماكنهم فكانت تلك الشخصيات المُبرقعة تتحرك في كل اتجاه كأطفالٍ في حفلة عيد ميلادٍ كبيرةٍ جداً فسألتُ نفسي: هل كان يجب فعلاً دعوة كل القرية؟

ولكن كان يكفي مراقبتهم عن كثبٍ أكثر لمعرفة أن ذلك لم يكن يعني أبداً حفلة عيد ميلاد بل كان يشبه أكثر مهرجاناً ضخماً تلقى فيه المدعوون تعليمات أن يتنكروا بورق اللعب. كان على كل واحد أن يشرب عند الدخول

بعض الجرعات من مشروبٍ من العصائر لكي يتسنى للجميع أن يشرب منه ولا بد أنني كنتُ سأصل بعد فوات الأوان لكي آخذ من ذلك المشروب الغامض فاتح الشهيَّة.

سألني الجوكر بخبث وهو يخرج قارورة:

- هل يعجبك أن تتذوق قليلاً من هذا المشروب اللامع؟

كنتُ مضطرباً جداً فشربتُ منها رشفة صغيرة كان لا يمكن لها أن تسبب لي الأذى...

بالكاد بللتُ شفتي وابتلعتُ بعض القطرات، ولكن التأثير كان جذرياً. كل الطعوم التي استطعتُ التعرف عليها حتى ذلك الوقت من حياتي- والكثير غيرها أيضاً- قد اجتاحت جسدي وطافت به كشهوة غامضة. في أحد إبهامي قدميّ استعدتُ مذاق الفريز وفي إحدى خصلات شعري طعم الدرّاق أو الموز بينما كان عصير الأجاص تحت أحد مرفقيّ في حين كان أنفي يستنشق أبخرة عطرٍ مُسْكِرٍ. لقد كان ذلك جيداً بشكلٍ مُذهل بحيث بقيتُ كما لو أنني تحجرتُ من اللذة. لمّا فتحتُ عيناي ورأيتُ حشد الأقزام تصورتُ أنهم قد خرجوا حينها من مخيلتي أنا. في تلك المرَّة كنتُ أنا الذي لم يعد يعرف أبداً أين هو، حتى أنه قد بلغ بي واعتقدتُ بأن كل هذه الشخصيات قد خرجتْ من رأسي فقط لتحتج ضد الحدود التي ألزمتهم بها أفكاري الخاصة.

وهكذا انتابتني كل أنواع الأفكار التي كانت أكثر استهجاناً وأكثر ألمعيةً بعضها من بعضها الآخر، كما لو أنه تم تحفيز ذهني الذي أخذ يتخبط على طريقته. قرَّرتُ أن لا أُعيد القارورة بعد ذلك وأن أفعل كل ما يمكن من أجل

ملئها ما أن تفرغ إذ أن لا شيء في العالَم كان يبدو لي حينها أكثر أهميَّة من ذاك المشروب اللامع.

- إذن .... هل كان ذلك جيداً أم سيئاً؟ سأل الجوكر بضحكةٍ هازئة.

رأيتُ أسنانه لأول مرَّة. حتى عندما كان يضحك كانت الأجراس الصغيرة لبدلته ترن بنعومة كما لو أن كل سن من أسنانه الصغيرة كان مربوطاً إلى جلجل.

- لسوف آخذ منها جُرعة أُخرى أيضاً. قلتُ.

في تلك اللحظة عاد فرود راكضاً من الشارع مُتعثِّراً بعشرة وبشيخ البستون قبل أن يصل وينتزع القارورة من بين يديّ الجوكر وهو يصرخ فيه:

- أيها القذر.

رفع كل الأقزام رؤوسهم للحظة قصيرة ثم استمروا بالاحتفال.

لمحتُ فجأةً دُخاناً يتصاعدُ من كتاب فطيرة الحلوى وقد آلمني أحد أصابعي كما لو أنني كنتُ احترق. رميتُ *الكتاب* والعدسة فظن الناس الذين كانوا يرون أن ثعباناً ساماً قد لدغني لحظتها.

- *No problem* (لا توجد مشكلة). قلتُ وأنا أَلُمُّ *الكتاب* والعدسة.

كانت العدسة المُكَبرة هي التي قد شكّلت محرقاً أدى إلى إشعال الكتاب. كانت الصفحة الأخيرة التي كنتُ قد انتهيتُ من قراءتها قد بدأت تحترق وتصدر رائحة شياط. ولكن كان هناك شيءٌ آخر قد أخذ بالاشتعال أيضاً: فقد بدأتُ أرى بجلاء أن العلاقة بين *الكتاب* وبين مغامراتي الشخصيَّة كانت أكثر من أن تكون مجرد مصادفات.

ردَّدتُ لنفسي ذهنياً بعض العبارات التي قالها الأقزام: «يبحث الأب والابن عن المرأة الجميلة التي لا تجد نفسها... تتطابق العدسة المُكبرة مع

كسرة زجاج حوض السمكة الحمراء... ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى... لُعبة الصبر هي لعنة عائلة... »

لم يعد هناك مجالٌ لأي شك إذ ثمة رابط فعلي يثير القلق ما بين حياتي الخاصة وبين *الكتاب*، ولكن تفسير ذلك ليس بمثل هذه السهولة. إن لم تكن جزيرة فرود هي الوحيدة المسحورة *فالكتاب* الصغير لوحده هو قطعة من كتابة سحرية.

وصل بي الأمر أن سألتُ نفسي للحظة ما إن كان *الكتاب* يكتب نفسه بنفسه شيئاً فشيئاً مع تتابع تجاربي الشخصيَّة، ولكن وبتصفحي إياه رأيتُ أن كل شيء كان مكتوباً مسبقاً.

على الرغم من الحرارة فقد تملكتني قشعريرة في جسدي.

عندما رجع والدي قفزتُ عن صخرتي وطرحتُ عليه على الفور ثلاثة أو أربعة أسئلة عن الأكروبول وعن الإغريق في العصور القديمة؛ فقد كان لا بد لي من تغيير الموضوع.

ثمانية الديناري

إنها تجعلنا نظهر ونختفي كما السحر.....

عبرنا مرَّة أُخرى من تحت رواق مدخل الأكروبول فنظر والدي لمرَّة أخيرة إلى المدينة عند أسفل قدميه ثم أشار لي إلى هضبة تُدعى الأريوباج. هناك منذ وقتٍ طويل جداً ألقى الرسول باول خطاباً طويلاً على الأثينيين مُتحدثاً إليهم عن إلهٍ مجهول لا يعيش في المعابد المبنية من قبل البشر.

عند أسفل الأريوباج يقع سوق أثينا القديم الذي يُدعى الأغورا ◆ وهناك كان يتجول الفلاسفة العظام وهم يتأملون بين صفوف الأعمدة. ولكن لم يعد يوجد إلا الخرائب في ذلك المكان الذي وُجِدَتْ فيه المعابد الفخمة والصروح وقصور العدل في يوم من الأيام. لم يبقَ إلا المعبد الرخامي القديم المُكرَّس لهيفاستوس، إله الحِدادة، على هضبة صغيرة مُنعزلة.

- هيَّا، لقد حان وقت النزول. قال والدي. أتعلم: أن أكون هنا هو بالنسبة لي هو مثل أن يكون المُسلم في مكَّة مع فرق أن مَكَّتي هي حُطام.

اعتقدُ أنه كان هلعاً قليلاً لخيبة أمله بالأغورا، ولكنه عندما صار في الأسفل وطاف بين آخر الأحجار الرخامية التي لا تزال مُنتصبة نجح سريعاً في أن يُعيد الحياة لثقافة المدينة القديمة كُلها. إن القراءة تُساعد أحياناً.

لم يكن هناك الكثير من الخلق فبقدر ما كان الأكروبول يعجُّ بالسُّياح بقدر ما كان المكان قفراً، باستثناء جوكر أو جوكرين من نوعيتنا.

أتذكر أنني قلتُ لنفسي: إذا كان صحيحاً أننا نعيش أكثر من حياة، كما يدَّعي البعض، فلا بُدَّ أن يكون والدي قد تجوَّل في هذا المكان منذ أكثر من ألفي سنة فقد كان يتحدث عن الحياة اليوميَّة في المدينة القديمة كما لو أنه قد عاشها بنفسه لقد « كان يتذكر» كيف كانت.

تأكد شكي مُجدداً مع ذلك الخطاب العظيم الذي ألقاه عليّ بين تلك الأطلال:

- تخيلْ طفلاً صغيراً يبني قصراً في حوضٍ من الرمل. إنه لا يتوقف عن بناء شيءٍ يُعجب به للحظة قصيرة قبل أن يُدمّره بعدها مباشرةً ليبدأ من جديد. إن

◆ اغورا (Agora): ساحة عامة فيها محلات تجارية ومحاكم ..الخ. كانت تنعقد فيها المجالس السياسيَّة في المدن الإغريقيَّة. المترجم.

الزمن يلعب بالكوكب برمته مثلما يلعب ذلك الطفل بالرمل. حسنٌ، هنا يُكْتَبُ تاريخ العالَم: أحداثٌ مُهمة كانت منقوشة في الصخر ثم مُحيَتْ من جديد. إن الحياة تغلي على هذه الأرض كما لو كانت في قِدْرِ الساحِرة.

في يومٍ ما تكوَّنا نحن أيضاً على غِرار أسلافنا. عندما هبَّت ريح التاريخ تجسدنا، بعد ذلك سوف تتوقف الريح وسنتوقف نحن معها. إنها تجعلنا نظهر ونختفي كما السحر. هناك دائماً شيءٌ ما في حالة كُمون ينتظر أن يأخذ مكاننا إذ ليس لدينا أرضٌ صلبة تحت أقدامنا ولا حتى رِمال فنحن هي الرمال.

لقد جعلتني كلماته ارتجف. ليس ما قاله فقط هو ما جعلني خائفاً بل اللهجة المؤثِّرة لصوته.

ثم تابع:

- نحن لا نستطيع أن نُفلت من قبضة الزمن باختبائنا في مكانٍ ما. نحن نستطيع أن نُفلتَ من الملوك أو من الأباطرة وربما حتى من الله، ولكننا لا نُفلِتُ أبداً من قبضة الزمن.

إن الزمن يرانا في كل مكان إذ أن كل ما يُحيطُ بنا هو منقوشٌ في هذا العنصر الذي لا يعرف الثبات.

هززتُ رأسي بوقار، ولكن والدي كان قد انطلق من جديد مُحلِّقاً بخطابٍ شاعريٍ عن آثار الزمن:

- إن الزمن لا يمضي يا هانس- توماس كما أن الزمن لا يقول تيك- تاك فنحن الذين نمضي والساعات هي التي تقول تيك- تاك. كما أنه من الواضح والحتمي أن تُشرق الشمس من الشرق وتغرب من الغرب كذلك فإن

الزمن يلتهم نفسه عبر التاريخ. إنه يُقوِّضُ الحضارات الكبيرة وينخُرُ الأوابد العتيقة ويفترسُ الأجيال بعضها بعد بعضها الآخر ولهذا نتحدثُ نحن عن « أثر الزمن» إذ أن الزمن يلتهم ويلتهم بينما لا نُمثِّلُ نحن منه إلا غرزة سِنٍ واحدة.

- أحول هذا كان يتناقش الفلاسفة القدماء؟ سألتُ.

أشار لي نعم برأسه ثم واصل على الفور:

- للحظةٍ قصيرة نُشكِّل نحن جزءاً من هذه الزوبعة المُذهلة فتجوب الأرض في كل الجهات كما لو كان ذلك هو الشيء الطبيعي. لقد رأيتَ كل هؤلاء الناس الذين يتحركون كالنمل في الأعلى على الأكروبول إنهم مدعوُّون جميعاً لأن يختفوا. سوف يختفون ويحل محلهم حشودٌ مزدحمة جديدة يوجد منها الآن من ينتظر لكي يقوم بالتعويض. أقنعةٌ وأشكالٌ جديدة ستأتي وتذهب بدورها. سوف تولدُ أفكارٌ جديدة إذ أن كل موضوع مُتجدد بينما لن يتكرر أي ابتكار... لا شيء أعقد أو أثمن من موجودٍ بشريّ يا ولدي ومع هذا فنحن نُعامل كسقط المتاع المُبتذل.

وجدتُ أن عرضه كان جد مُتشائم فتجاسرتُ في النهاية على ردٍ صغير بأن أسأل:

- هل ثمّةُ فعلاً ما هو أكثر يأساً من ذلك؟ فنحن ....

- اخرس الآن. قال قاطعاً عليَّ حديثي. نحن نطوف الأرض مثل أبطال المغامرات المثيرة نحنُ نحيِّي بعضنا البعض ونبتسم فهي طريقة لأن نقول: آه! أنتم هنا أيضاً؟ نحن نعيشُ في الواقع نفسه أو في الحكاية نفسها .... أليست هذه بالفكرة غير المعقولة يا هانس- توماس؟ نحن نعيش على كوكبٍ في الكون، ولكننا سننفى بعد قليل. بضربة عصا سحرية وهوب! لن يوجد بعدها أحد.

نظرتُ إلى والدي جانبياً، لقد كان أكثر شخص عرفته في العالَم وأكثر مَن أحببتُ أيضاً، ولكنه كان يبدو لي في ذلك اليوم شخصاً مُختلفاً بل وغريباً تقريباً. لم يعد ذلك الذي يتكلم والدي. كان لديَّ انطباع بأن الذي كان يتحدث على لسانه هو أبولون أو أحد الآلهة الآخرين.

- اليوم نكتفي بالقول: « مرحباً، كيف الحال؟» أي أننا نجد من المُذهل في الواقع أن نحيا معاً في نفس الحقبة. أفتحُ باباً وأصرخ داخلي: «سلاماً أيتها الروح.»

ومثَّل لي بيديه الاثنتين كيف يفتح الباب الذي يقود إلى الروح.

- نحن نعيش هل تفهم؟ ولكننا لا نعيش إلا اللحظة الآنيَّة. نحن نباعد بين ذراعينا ونقول بأننا نوجد ثم نُدفع على جنبنا ونرمى في الظُّلمات إذ أننا لا نعيش سوى مرَّة واحدة. نحن نُشارك في حفلةٍ أبديَّة تأتي فيها الأقنعة وتذهب.... كان يمكن لنا أن نستحق أفضل من هذا يا هانس- توماس. كان من الممكن أن تكون لنا على الأقل أسماءٌ محفورة في الأبدية بحيث لا تختفي في حوض العالَم الرملي العظيم.

جلس على حجرٍ رُخاميٍّ لكي يسترد أنفاسه. لقد فهمتُ أنه قد أعدَّ خطابه، الذي أراد أن يُلقيه في ساحة السوق القديمة لأثينا، منذ زمنٍ طويل. من جهةٍ أُخرى هو لم يكن يوجه خطابه إليَّ فحسب بل إلى كل الفلاسفة الإغريق الذين سبقوه إلى هذا المكان المرتفع للفكر. إذن لقد كان ذلك بالأحرى أُسلوباً لإعادة الربط مع التقاليد الفلسفيَّة، ولكن حديثه كان موجهاً إلى حقبةٍ دَرَسَتْ منذ زمنٍ بعيد.

بالنسبة لي فقد كنتُ أعرف بأنني لم أكن فيلسوفاً حقيقياً بعد، ولكنني حكمتُ بأن لديَّ الحق في الكلام رغم ذلك فقلت:

- إلا تعتقد أن هناك شيئاً ما لا يختفي أبداً في هذا الحوض الرمليّ الشهير؟

بدا عليه فجأةً أنه انتبه لحضوري. فكان كما لو أنه خرج من حالة تجلي فقال وهو يشير بإصبعه إلى رأسه:

- *هنا*. هنا يوجد ما لا يستطيع أي شيء أن يجعله يختفي.

خفتُ أن يكون قد أُصيب كلياً بداء العَظَمة، ولكنه كان يريد فقط أن يشير إلى دماغه.

- إن الأفكار لا تطفو يا هانس- توماس. أنا لم أُغني حتى الآن إلا البيت الأول هل تفهم؟

لقد كان فلاسفة الإغريق يعتقدون هُم أيضاً بشيء لا يتلاشى أبداً وقد دعا أفلاطون ذلك بـ « عالَم المُثُل». في الحقيقة ليس قصر الرمل هو الأكثر أهمية بل إن الأكثر أهمية هي *صورة* قصر الرمل التي كانت لدى الطفل قبل أن يبدأ ببنائه. وإلا فلماذا تظن أنتَ أن الطفل يهدم قصره ما أن يكاد يُكمِلُ عمله؟

لقد فهمتُ الجزء الثاني من عرضه بشكلٍ أفضل.

- ألم يحصل لكَ أبداً أن كنتَ غير راضٍ عن رسم أو عملٍ ما فتعيد الكَرَّة مراراً بدون أن تتركه لأن الصورة التي لديك هي أكثر اكتمالاً من النُسخة التي تصنعها بيديك؟ نفس الشيء يحصل مع كل ما نراه حولنا. نحن لدينا تصورات تجعلنا نرى كيف أن كل شيء يمكن أن يكون *أفضل*. وهل تعرف لماذا نفعل نحن هذا؟

فهززتُ رأسي بلا. لقد كان في تلك الحالة من الإثارة حتى أنه أخذ يهمس:

- لأن كل الصور التي لدينا جاءت من عالم المُثل فهذا هو جزؤنا الحقيقيّ وليس ذلك الحوض الرمليّ الذي في الأسفل حيث يلتهم الوقت كل ما نحب. هل تفهم؟

- يوجد إذن عالَمٌ آخر؟

أشار والدي بنعم برأسه وهو بهيئةٍ غريبة.

- هناك كانت روحنا قبل أن تَحُلَّ في بدننا وإلى هناك ستعود عندما يفنى الجسد.

- فعلاً؟

- هذا على أي حال رأي أفلاطون. لأجسادنا نفس مصير قصور الرمل ونحن لا نستطيع أن نُغيِّر شيئاً بذلك، ولكن لدينا شيءٌ ما لا تتطاله قبضة الزمن لأنه ليس من هذا العالَم. هذا يعني أن نُحرِّر نظرنا من مراقبة كل ما يحيطُ بنا وننظر أبعد من ذلك مما يجعل من كل ما حولنا ليس إلا مجرد مُحاكاة.

لم أفهم كل شيء ولكنني أدركتُ على الأقل أن الفلسفة ليست بالشأن القليل وأن والدي كان فيلسوفاً حقيقياً. رغم كل شيء فقد تعلمتُ بالعمق شيئين أو ثلاثة عن الإغريق في العصر القديم. ربما لم يبقَ منهم إلا بعض الأطلال ولكن أفكارهم ما تزال حيَّةً تماماً.

أراني والدي في النهاية أين كان سقراط مسجوناً قبل أن يشرب سُم الشوكران ويموت.

لقد اتُهِمَ بإفساد الشباب بينما كان عيبه الوحيد في الحقيقة أنه كان الجوكر الوحيد في عصره.

تسعة الديناري

نحن ننحدر جميعاً من نفس العائلة.....

بعد أن زرنا الأكروبول والأغورا قمنا بجولة عبر الشوارع التجارية الضيقة جداً للالتحاق بساحة سينتاغما أمام المبنى الكبير للبرلمان. اشترى أبي لعبة ورق في الطريق حكم عليها بأنها مثيرة للاهتمام و أخذ منها الجوكر قبل أن يعطيني البقية.

بعد أن تغدينا في أحد المطاعم الريفيَّة العديدة التي كانت تحيط بالسَّاحة- الكبيرة صرَّح والدي أنه سيبدأ بحثه للعثور على أثرٍ لماما. كانت قدماي قد تهرّستا من المشي طيلة الصباح فكان من المفهوم أن أظل هناك في انتظاره في الوقت الذي يُجري فيه بعض المكالمات الهاتفية ويقوم بزيارة وكالة لعارضات الأزياء موجودة في مكان غير بعيد عن حيث كنَّا.

عندما غادر والدي بقيتُ إذن وحيداً في السَّاحة- الكبيرة المُكتظة باليونانيين. سارعتُ بكشف الأوراق على الطاولة واحدة فواحدة محاولاً إيجاد عبارة قصيرة لكل واحدة منها، ولكن بدون قلم رصاص وبدون ورقة انتهيتُ بخلط كل شيء فعزفتُ عن الأمر.

عندها أخرجت العدسة والكتاب واستعدتُ قراءتي من حيث قطعتها آخر مرَّة. كنتُ أشعر أنني عند مفترقٍ حاسم في القصّة إذ أن الجوكر كان سيقوم حينها بالربط بين العبارات المُختلفة لكي تكوّن مجموعة منسجمة. لربما كنتُ في طريقي لأفهم في النهاية تلك الرابطة التي كانت بيني وبين كل المغامرات الخارقة التي رواها هانس الفرَّان على ألبرت منذ زمنٍ بعيدٍ جداً.

لقد كان ما شربته لذيذاً جداً حتى أن الأرض بدتْ كما لو أنها تهرب من تحت قدمي ، وربما ظننتُ نفسي أتلجلجُ في عرض البحر من جديد .

- كيف جرؤتَ وجعلته يتذوق من تلك القنينة؟ سأل فرود .

فسمعتُ الجوكر يجيبه :

- أوه ، هو من أراد أن يُجرب . فقط هكذا لكي يعرف .

لم أعد متأكداً مما قال إذ أنني قد نمتُ بعدها على الفور . عندما فتحتُ عيني كان فرود مُنحنياً فوقي وهو يضربني بلطف بعض الضربات على أضلعي وهو يقول :

- هيَّا ، يجب أن تستيقظ الآن فالجوكر سيحل اللغز العظيم ما بين دقيقة وأُخرى .

فانتفضتُ .

- أي لغز؟

- لعبة الجوكر . هيَّا . سوف يقوم بربط كل العبارات حتى تشكل قصة .

عندما نهضتُ رأيتُ أن الجوكر كان قد طلب من الأقزام أن ينتظموا وفق نظامٍ معين . كانوا لا يزالون يشكلون دائرة ولكن الألوان كانت حينها قد اختلطت تماماً . لاحظتُ بأن الأرقام المتطابقة قد تموضعتْ أحدها بجانب الآخر .

رجع الجوكر إلى كرسيِّه العالي وفعلنا مثله أنا وفرود . فصاح الجوكر :

- *الشباب* ، خذوا مكاناً بين *الشيوخ والعشرات* . بينما بالنسبة *للبنات* فلتضعن أنفسكن بين *الشيوخ والأسوس* .

هرش رأسه قبل أن يتابع :

- فليتبادل تسعة السبات وتسعة الديناري مكانيهما .

قَبِلَ تسعة السبات البليد وهو يتأفف من تغيير مكانه بينما جاءت تسعة الديناري فَرِحَةً لتأخذ مكانها .

قام الجوكر ببعض التغييرات الأُخرى قبل أن يعلن رضاه ، فهمس فرود في أُذني :

- هذا ما ندعوه الخلط بحيث تتلقى كل الأوراق دلالة ثم نخلطها ونوزعها من جديد .

لم أفهم الكثير مما رواه لي إذ أنني كنتُ أُفكّر خاصةً بمذاق الليمون الذي احتلَّ إحدى رجليّ بينما طاف عطرٌ من الليلك الزكيّ حول أُذني اليسرى .

ثم شرح الجوكر :

- فليكرر كل واحد عبارته الآن ، ولكن يجب الانتظار إلى أن ينتهي كل واحد من قول جملته لكي تأخذ لعبة الصبر كل معانيها فنحن ننحدر جميعاً من نفس العائلة .

خيَّم مجدداً صمتٌ مُطبق لبضعة ثوانٍ قبل أن يأخذ شيخ البستون الحديث في النهاية :

- من منا عليه أن يبدأ؟

- نفس الشيء كل مرَّة معه ، إنه غير صبورٍ أبداً . غمغم فرود .

فتح الجوكر ذراعيه وقال :

- من الطبيعي أن بداية القصة هي التي تحدد البقيَّة كلها . وتبدأ قصتنا مع .... شب الديناري . أرجوك يا سيادة شب الزجاج فالكلمة لك .

- ***تغرق سفينة الفضة في البحر الهائج*** . قال شب الديناري .

كان شيخ البستون على يمينه فقال حينها :

- *سيكون على ذاك الذي يكشف القَدَر أن ينجو منه.*

- لا لا. قال الجوكر مهتاجاً. إن هذه اللعبة تتبع حركة الشمس. شيخ البستون هو آخر الجميع.

رأيتُ قسمات فرود تتشنج وهو يتمتم:

- هذا بالضبط ما كنتُ أخشاه.

- ماذا هناك؟

- أن يكون شيخ البستون هو آخر من يتكلم.

لم يكن لديّ متسعٌ من الوقت لأُجيب إذ أن طعماً مركّزاً من الكريما الإنجليزية اجتاح رأسي برمته في نفس اللحظة وأنا لم أكن معتاداً على هذا النوع من التحلية في وطني لوبك.

قال الجوكر:

- سنعاود كل شيء من البداية. كل *الشباب* أولاً ثم كل *العشرات* وهكذا حتى النهاية باتجاه حركة الشمس. دوركم أيها *الشباب*.

فقال كل واحد منهم عبارته:

- ***تغرق سفينة الفضة في البحر الهائج. يرسو البحار على جزيرة لا تني تتسع. يُخفي جيب السترة علبة ورق لعب عليها أن تجف بالشمس. ثلاث وخمسون شخصية تلازم ابن معلم صناعة الزجاج على مدى سنوات طويلة.***

- آه. لقد كان هذا أفضل. علّق الجوكر. هكذا تبدأ قصتنا. لا شيء مذهل جداً حتى الآن ولكن هذه ليست إلا البداية. دوركم أيها *العشرات*.

فواصل *العشرات* :

- ***قبل أن تبهت الألوان يولد ثلاثة وخمسون قزماً ويتخذون هيئاتٍ في مخيلة البحَّار الذي يعيش في عزلة. شخصياتٌ غريبة تتراقص في وعيِ السَّيد. عندما ينام السَّيد يحيا الأقزام حياتهم الخاصة. في صباح أحد الأيام يُفْلِتُ الشيخ والشب من سجن الوعي.***

- رائع! لقد قيل هذا بأُسلوبٍ مؤثر وموجز. دور *التسعات*.

- ***تتدفق الشخصيات من المخيلة الخلَّاقة في فضاءٍ مخلوقٍ هو أيضاً. تخرج الشخصيات من كُمِ الحاوي ويقرصون أنفسهم ليتأكدوا ما إن كانوا أحياءاً حقاً. إن الأشخاص الخارجين من المخيلة جميلوا المنظر ولكنهم كلهم، باستثناء واحدٍ، قد فقدوا عقولهم. جوكر واحد فقط في لعبة الورق سيفضح السرَّ يوماً.***

- هذا حقيقي تماماً إذ أن الحقيقة هي شأنٌ فرديّ. والآن دور *الثمانات*.

- ***يُعطِّلُ الشراب المتلألئ مدارك الجوكر. يبصقُ الجوكر الشراب المتلألئ من جديد. بدون مصل الكذب يرى المهرج بشكلٍ أوضح. بعد اثنتين وخمسين سنة يصل حفيد الغريق إلى القرية.***

أكد الجوكر على العبارة الأخيرة وهو ينظر إليَّ، ثم أمر قائلاً:

- *السبعات*.

- ***الحقيقة موجودة في أوراق اللعب. الحقيقة هي أن ابن معلم صناعة الزجاج لم يشأ أن يؤمن بقوة مُخيلته. تثور الشخصيات متمردة بشكل رهيب ضد السيد. قريباً سيموت السَّيد والأقزام هم من سيقتلونه.***

- أوه أوه. *الستات*.

تهتدي أميرة الشمس إلى طريق المحيط. تتقوض الجزيرة المسحورة من الداخل. يعود الأقزام من جديد مجرد أوراق لعب. ينجو ابن الفرّان من القصة قبل أن تنغلق على نفسها.

- هذا أفضل. الخمسات إنه دوركم. هلّا تكلمتم بقوة ووضوح إذ أن أقل خطأ في النُطق ربما تكون عاقبته وخيمة هنا.

أثارت عندي هذه الملاحظة الأخيرة اضطراباً كبيراً فأفلتتْ مني أول عبارة.

- *يفرُّ ابن الفرّان في الجبل ويستقر في قريةٍ صغيرةٍ ضائعة. يخفي الفرّان كنوز الجزيرة المسحورة. مكتوبٌ في أوراق اللعب ما يجب أن يحدث.*

أخذ الجوكر يصفق بجنون ثم قال:

- إيه، سينال كل واحد نصيبه، أليس كذلك؟ إن ميزة هذه اللعبة ليس في أنها تكشف ما حدث فحسب ولكنها تتنبأ بما سوف يحصل أيضاً ونحن لسنا إلا في منتصف لعبة الصبر.

التفتُّ باتجاه فرود الذي مرَّر ذراعه حول كتفيَّ وهو يتمتم بصوتٍ يكاد أن لا يكون مسموعاً:

- إن الحق معه يا ولدي!
- ماذا تريد أن تقول؟
- لم يعد لي الكثير من الوقت لأحيى.

فهتفتُ مُلتهباً:

ولكن لا. لا تقل لي أنكَ تأخذ على محمل الجد هذه اللعبة لهذه الجماعة البلهاء.

- إنها ليست مجرد لعبة يا ولدي.

- لا أريد لكَ أن تموت. صرختُ بصوتٍ قوي حتى أن العديد من الأشخاص رفعوا عيونهم نحونا.

- لكل الأشخاص المُسنين الحق في أن يموتوا يوماً ما يا ولدي. ولكن مما يبعث على السعادة أن نعرف أن هناك أحداً ما سيتابع العمل من حيث تركناه.

- إذن سأموت أنا أيضاً على هذه الجزيرة. قلتُ

فقال الرجل العجوز بصوتٍ هادئٍ جداً:

- ولكن أما سمعتَ؟: «يفرُّ ابن الفرَّان في الجبل ويستقر في قريةٍ صغيرةٍ ضائعة.» أولستَ أنتَ المقصود؟

أخذ الجوكر يصفِّقُ من جديد فرنَّتْ كل الحجرة من خشخشة جلاجله ثم صاح:

- هدوء. نتابع مع *الأربعات*.

كنتُ منشغلاً جداً بفكرة موت فرود فلم أسمع منهم إلا خمسة السبات وأربعة الديناري:

- ***تأوي القرية الولد المُشرَّد الذي فقد أمه بسبب المرض وهو طفل. يجعله الفرَّان يتذوق الشراب اللامع ويريه السمكات الجميلة.***

- دور *الثلاثات* الآن. إنني أسمعكم.

هنا أيضاً كان ذهني في مكانٍ آخر فلم أسمع سوى عبارتين:

- ***يتزوج البحَّار من امرأة جميلة تنجب ولداً قبل أن تُهاجر إلى بلاد الجنوب على أمل أن تجد نفسها. يبحث الأب والابن عن المرأة الجميلة التي لا تجد نفسها.***

ما أن انتهتْ *الثلاثات* من قول عباراتهم حتى قطع الجوكر اللعبة مرَّة أُخرى هاتفاً :

- هذا كشفٌ جديد . فنحن نُبحر مباشرةً نحو بلاد المشرق (*Levant*) .

التفتُّ نحو فرود ورأيتُ الدموع في عينيه فقلتُ خائفاً :

- أنا لا أفهم شيئاً من كل هذه الرطانة .

- هُس . عليكَ أن تُصغي إلى التاريخ يا ولدي . همسَ في أُذني .

- التاريخ؟

- أو المستقبل إذا كنتَ تُفضل ، فهو أيضاً ينتمي إلى التاريخ . إن هذه اللعبة تعرض لنا عدَّة أجيالٍ لاحقة وهو ما يدعوه الجوكر بـ *Levant* (بلاد المشرق) . فنحن لا نفهم كل ما هو في الأوراق ولكن أناساً آخرين سيأتون بعدنا سوف يفهمونه .

- *الأزواج* . قال الجوكر .

حاولتُ أن أتذكَّر كل ما قيل ولكنني لم ألتقط إلا ثلاث عبارات من أربع :

- ***يشير القزم ذو اليدين الباردتين إلى طريق القرية الضائعة ويعطي الولد القادم من بلاد الشمال عدسة مُكبَّرة من أجل سفرته . تتطابق العدسة المُكبرة مع كسرة زجاج حوض السمكة الحمراء . ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرَّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى .***

- أي أُسلوب! هتف الجوكر . لقد كنتُ أعرف أن العدسة المُكبِّرة وحوض السمكة الحمراء يشكلان جزءاً من العناصر المفتاحيّة لكل القصة .... حسناً . والآن دور *الأسوس* . هلّا كلفتن أنفسكن يا أميراتي :

ومرّة أُخرى لم أسمع سوى ثلاث عبارات من أربع:

- ***القَدَر هو ثعبانٌ جائعٌ جداً حتى أنه يلتهم نفسه. تحتوي العلبة الداخليَّة على العلبة الخارجيَّة كما تحتوي العلبة الخارجيَّة على العلبة الداخليَّة. القدر هو رأس قرنبيط ينمو في كل الجهات بشكلٍ متساوٍ.***

- *البنات.*

لم أعد أستطيع أن أُركّز في النهاية أبداً فلم أسمع إلا عبارتين:

- ***يهتف رجل الفطائر في أنبوبٍ سحريٍّ بحيث أن صوته يُحملُ على بُعد مئات الكيلومترات. يبصقُ البحّار المشروب القوي.***

ثم قال الجوكر:

- سيضع الشيوخ الآن حداً لكل لُعبة الصبر بإعلانهم بعض الحقائق القاطعة. هيَّا أيها الشيوخ فكلنا آذانٌ صاغية.

نجحتُ في المتابعة تلك المرَّة، فقط هربتْ مني عبارة شيخ السبات:

- ***لُعبة الصبر هي لعنة عائلة. سيكون هناك دائماً جوكر يَكشف السِّر. على ذاك الذي يكشف القَدَر أن ينجو منه.***

كانت تلك هي ثالث مرَّة يتحدث فيها شيخ البستون عن «النجاة» من القَدَر. ثم صفَّق الجوكر وكل الأقزام بحماسٍ شديد.

- عظيم. صاح الجوكر. يحق لنا أن نفخر جميعاً بلعبة الصبر هذه إذ أن كل واحد قد بذل وسعه من أجل إنجاحها.

استقبل الأقزام العبارة الأخيرة بتصفيقٍ جديد فضرب الجوكر عندها على صدره وهتف:

- النصرٌ للجوكر في يوم الجوكر إذ أن المستقبل ينتسب إليه.

عشرة الديناري

رجل صغير عجيب يظهر مُشرئباً من خلف كشك جرائد

هنا في ساحة سينتاغما، حيث كان اليونانيون القصار منهمكين بجرائدهم وبحقائب وثائقهم، هاجمتني آلاف الأفكار لمّا رفعتُ عينيَّ عن الكتاب الذي بدا لي بوضوح صارخ- أنه كان نوعاً من الكتاب- الوحي (Oracle) والذي أعاد ربط سفرتي الخاصة بالأحداث التي جرتْ على الجزيرة المسحورة قبل مئة وخمسين سنة.

قلّبتُ على عجل الصفحات التي كنتُ قد انتهيتُ للتو من قراءتها.

على الرغم من أن هانس الفرّان لم يفهم كل النبوءات إلا أن المعنى العام قد تَفَلّتَ من معظم العبارات:

« يفرُّ ابن الفرّان في الجبل ويستقر في قريةٍ صغيرةٍ ضائعة... يخفي الفرّان كنوز الجزيرة المسحورة... مكتوبٌ في أوراق اللعب ما يجب أن يحدث... تُؤوي القرية الولد المُشرَّد الذي فقد أمه بسبب المرض وهو طفل... يجعله الفرّان يتذوق الشراب اللامع ويريه السمكات الجميلة.»

لقد كان من الواضح أن هانس الفرّان هو ابن الفرّان حتى أن فرود نفسه قد أدركَ ذلك مُباشرةً. والقرية الضائعة هي دورف أما الطفل الذي ماتت أمه بسبب المرض فكان لا يمكن أن يكون إلا ألبرت.

ثم أفلتَ هانس الفرّان عبارتان من *الثلاثات*، ولكن بإعادة ربط ما كان قد سمعه بتصريحات *الأزواج* يصبح المعنى واضحاً:

« يتزوج البحّار من امرأة جميلة تنجب ولداً قبل أن تُهاجر إلى بلاد الجنوب على أمل أن تجد نفسها... يشير القزم ذو اليدين الباردتين إلى طريق

القرية الضائعة ويعطي للولد من بلاد الشمال عدسة مُكبِّرة من أجل سفرته... تتطابق العدسة المُكبِرة مع كسرة زجاج حوض السمكة الحمراء ... ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى.»

لقد فهمتُ كل هذا ولكن بعض العبارات بقيتْ ألغازاً:

«تحتوي العلبة الداخليَّة على العلبة الخارجيَّة مثلما تحتوي العلبة الخارجيَّة على العلبة الداخليَّة... يهتف رجل الفطائر في أُنبوبٍ سحريٍّ بحيث أن صوته يُحملُ على بعد مئات الكيلومترات... يبصقُ البحَّار المشروب القوي.»

إن كانت هذه العبارة الأخيرة تعني أن أبي كان سيتوقف عن الشراب كل مساء فكنتُ سأكون مندهشاً لهذه النتيجة بقدر اندهاشي بالنبوءة بكل ما تحمله من معنى.

المشكلة كانت في أن هانس الفرَّان لم يسمع في النهاية سوى اثنتين وأربعين ورقة من المجموع وعلى الأخص في النهاية عندما فقد كل تركيز. الخلاصة إن هذا ليس مدهشاً جداً فنحن لدينا دائماً المزيد من الصعوبة في تذكُّر ما لا نفهمه وكنا كلَّما تقدمنا في لعبة الجوكر كلَّما ابتعدنا عن زمنه هو، ولا بد أن يكون هذا قد بدا ضبابياً جداً بالنسبة لفرود كما بالنسبة له هو نفسه.

إن كل تلك النبوءات العتيقة تبدو حتى يومنا هذا خطابات غامضة لأي أحدٍ آخر عداي أنا. فقد كنتُ الوحيد الذي يعرف من هو القزم ذو اليدين الباردتين، فمن غيري أمسك العدسة بيده؟ ومن كان يمكن له أن يفهم كيف يفضح الكتاب سِرَّ الجزيرة المسحورة؟

ورغم كل هذا فقد حملتُ على هانس الفرَّان لأنه لم يُسجِّل كل العبارات. بسبب مشكلة غبية في الذاكرة سيبقى جزءاً من النبوءة كنزاً مفقوداً إلى

الأبد. وبما أن ذلك كان بالصُدفة يتعلق فيما يخصنا مباشرةً أنا ووالدي فقد كنتُ مُستعداً أن أحلف أن أحد الأقزام قد قال أننا كنا سنجد ماما وأنها كانت ستعود معنا إلى النرويج.

بينما كنتُ أتصفّحُ *الكتاب* لمحتُ فجأةً رجلاً صغيراً عجيباً يظهر مُشرئباً من خلف كشك جرائد ظننتُ في البداية أنه طفلٌ كان يتسلى بالتجسس عليَّ لمّا لاحظ أنني كنتُ وحيداً، ولكنني فهمتُ سريعاً أنه قد كان من جديد قزم محطة الوقود. بالكاد تمكنت من لمحه قبل أن يختفي.

بقيتُ تحت تأثير الصدمة تماماً لعدة ثوان ثم حاولتُ أن أُفكر: لماذا أخافُ جداً من القزم؟ كان من الواضح أنه كان يُلاحقني ولكن لا شيء كان يسمح لي بأن أؤكد انه كان يريد بي شراً. ربما كان يعرف هو أيضاً سِرَّ الجزيرة المسحورة؟ ومن يدري ما إن كان قد أعطاني العدسة وأرسل بنا إلى دورف لهدفٍ وحيد وهو اكتشاف الكتاب؟ وفي هذه الحالة لا شيء يُذهل إذا ما اهتمَّ بي فهذا النوع من الكتب ليس شائعاً.

أعدتُ النظر في الطريقة التي هزأ بها والدي مني عندما ادّعى أن القزم هو موجودٌ اصطناعي تم خلقه على يد ساحرٍ يهودي منذ عدّة قرون. لم يكن ذلك إلا مزحة بالتأكيد، ولكن لو كان ذلك صحيحاً فربما استطاع أن يقابل البرت وهانس الفرّان. وصلتُ إلى هنا بتأملاتي عندما انبثق والدي في النهاية والذي كان صاحب رأسٍ كبير أكبر من رؤوس الآخرين جميعاً. بالكاد كان عندي الوقت لكي أُدخِلَ الكتاب في جيبي.

- هل مللْتَ كثيراً؟ سألني وهو يلهث.

- أشرتُ بلا بحركةٍ من رأسي. وهكذا لم آتِ على ذِكر الظهور الجديد للقزم. عندما نفكِّر عميقاً: بأن يقوم قزم بجولة في أوروبا مثلما نفعل نحن تماماً فهذا شيء لا قيمة له تقريباً بجانب كل ما يحصل في *الكتاب*.

واصل أبي قائلاً:

- وماذا فعلتَ خلال كل ذلك الوقت؟

فأريته الأوراق قائلاً له بأنني قد قمتُ بألعاب الصبر.

في هذه اللحظة طلب النادل ثمن الكوكا كولا الأخيرة التي كنتُ قد طلبتها وقال:

- *It's very small !* (إنه صغيرٌ جداً!).

اندهش والدي من هذه الملاحظة بينما كنتُ أعرف أن النادل كان يُلمِّحُ إلى كتاب فطيرة الحلوى فخشيت بأن يكون عليَّ أن أُقدِّم تفسيرات. هكذا أخرجتُ العدسة من جيبي من جديد ونظرتُ إليه من خلالها وأنا أقول:

- *It's very smart* (إنها أنيقة جداً).

- *Yes, yes* (نعم، نعم). أجاب مُمَكِّناً إياي بذلك من التخلص من تلك الورطة.

قلتُ ونحن نغادر القهوة:

- كنتُ أُحاولُ أن أراقب الأوراق عن كثبٍ أكثر لكي أُحاول أن أكتشف ما إن كان من الممكن بواسطة العدسة رؤية إشارات لا تُرى بالعين المُجرَّدة.

- وإذن، إلى ماذا خلصتَ؟ سأل والدي.

- آه لو كنتَ تعرف. قلتُ بلهجةٍ غامضة.

شب الديناري

كان كل غرور والدي لأنه يعتبر نفسه جوكر

سألتُ والدي لمَّا رجعنا ما إن كُنَّا قد تقدَّمنا قليلاً في البحث عن ماما.

فبدأ بالقول:

- لقد قمتُ بزيارة وكالة لعارضات الأزياء فأكد لي المسؤول أنه لا توجد أية عارضة أزياء تعمل في أثينا تحت اسم انيتا تورا. لقد كان قاطعاً حول هذه النقطة. فلنقل إنه كان يعرف كل عارضات الأزياء هنا، وعلى أي حال كل الأجنبيات.

وجدتُ صعوبةً في إخفاء خيبة أملي. لقد كان ذلك بالنسبة لي كما لو أن الشمس لن تشرق مجدداً أبداً، فما كان ينقصني إلا هذا حتى تكمل معي وشعرتُ بأنه لن يعود بإمكاني أن أحبس دموعي بعد قليل.

انتبه والدي إلى ذلك فأسرع ليضيف:

- فأريته عندها صورة مجلة الموضة فقال لي على الفور أنها تُدعى سول ستراند وأنه كان عليها أن تأخذ هذا الاسم المستعار. ثم أعلن لي في النهاية بأنها كانت إحدى عارضات الأزياء الأكثر شهرة في أثينا في السنوات الأخيرة.

- طيب ومن ثم؟ سألتُ وأنا أُحدِّق بوالدي.

ففتح ذراعيه قائلاً:

- لقد قال لي أن أكلمه غداً بعد الغداء.

- هذا كل شيء؟

- إيه نعم. لم يبقَ لنا سوى الانتظار يا هانس توماس. سوف نُمضي الأُمسية على الشرفة وغداً سوف نذهب إلى بيري وسوف نجد هاتفاً هناك بالتأكيد.

عند سماعي لكلمة شرفة خطرتْ لي فكرة فاستجمعتُ شجاعتي وقلت:

- هناك شيءٌ آخر أود أن أقوله لكَ.

بدا على والدي الاندهاش، ولكنني أعتقدُ في العمق بأن قلبه حدثه عمَّا كنتُ سأقول.

- هل تتذكر أننا قد اتفقنا على أن تأخذ قراراً بل أن تأخذه سريعاً.

صدرتْ عنه ضحكة مصطنعة وقال:

- أوه، تلك القصة. كما قلتُ لكَ من قبل ياهانس- توماس سوف أُفكِّر بالأمر ولكن لديَّ فعلاً شيءٌ آخر في رأسي اليوم.

فجاءتني فكرة عبقريَّة: ارتميتُ على حقيبة سفره فوجدتُ نصف زجاجة كحول بين جواربه و ربطات عنقه. ذهبتُ إلى الحمَّام وأفرغتُ كل تلك القذارة في المرحاض.

عندما أدركَ والدي ما فعلت بقي ثابتاً أمام حوض المرحاض. ربَّما قد تساءل ما إذا كان سينحني ويشرب ما تبقى قبل أن أسحبَ السيفون؟ لكنه لم ينحدر إلى هذا الدرك أيضاً....

لمَّا التفت نحوي لم يكن قد قرَّر بعد ما إن كان سيرتمي فوقي مثل نمر أو سيهزُّ ذيله كجروٍ صغير. ثم قال في النهاية:

- حسنٌ يا هانس- توماس، لقد ربحتَ.

جلستُ أمام النافذة أُراقب والدي بينما كان ينظر هو إلى الأكروبول ثُم قلت:

- «يُعطِّلُ الشراب المتلألئ مَدَارِك الجوكر.»

فنظر إليَّ أبي دهشاً وقال:

- ماذا تقول يا هانس- توماس؟ أما يزال أثرُ المارتيني من ليلة البارحة؟

- ولكن لا . أُريد أن أقول ببساطة أن جوكراً حقيقياً لا يهوى المشروبات القويَّة إذ بدون المُنشطات تكون أفكار الجوكر أكثر وضوحاً بكثير.

فصرخ :

- لقد أصبحتَ مجنوناً فعلاً ولا بد أن هذا موجود في العائلة.

عرفتُ أنني قد لمستُ وتراً حسَّاساً إذ كان كل غرور والدي لأنه يعتبر نفسه جوكر.

وبما أنني لم أكن متأكداً تماماً من أنه قد نسي الفصل في الحمَّام فقد قلت :

- لنمضي إلى الشُرفة ولنتذوق كل ما لديهم من مشروبات منعشة : كوكا كولا ، سفن أب، عصير البرتقال أو الطماطم، ليمونادة بطعم الأجاص .... إلا إذا كنتَ لا تريد الحصول على كل هذه الطعوم بنفس الوقت؟ قد يكون بإمكانك أن تملأ كأساً كبيراً وتُضيف إليه الثلج ثم تخلطه بملعقة كبيرة....

- لا شكراً . هذا يكفي الآن . قاطَعَني .

- ولكننا متفقان نحن الاثنان ، ها؟ لا أحتاج أن أؤكد مرَّة أُخيرة؟

- *Yes sir*(نعم يا سيدي) والبحَّار القديم يحترم كلمته .

- اصغ إذن : بمقابل هذا سأروي لك قصة غير معقولة أبداً .

عند الشُرفة جلسنا على نفس طاولة الليلة الفائتة بينما كان في خدمتنا نفس النادل . سألته بالإنجليزية ماذا لديه من مشروبات غازيَّة أو منعشة من أجل أن نطلب كأسين وأربعة مشروبات مختلفة . هزَّ النادل رأسه وهو يتمتم بأن أباً وأبنه قد سكرا كلاهما في المساء من النبيذ والمارتيني ثم يحاولان في اليوم التالي أن يحصلا على نفس النتيجة مع الليمونادة! فحلَّ والدي المسألة بأن شرح أن احدهما يوازن الآخر .

عندما غادرَنا النادل قال والدي:

- اعترفُ بأن هذا لا يُصَدَّق أبداً: فنحن موجودان في حاضرة يعيش فيها عدّة ملايين شخص ونحاول في هذه المنملة أن نعثر على نملة بعينها!

- نسيتَ أن تقول بأنها الملكة. أضفتُ

كنتُ فخوراً كثيراً بجوابي وكان يبدو على والدي بأنه قد قدَّره هو أيضاً، وعلى كل حال فقد ابتسم وقال:

- ولكن هذه المنملة هي منظمة بشكلٍ جيد جداً حيث أنه من الممكن في الواقع إيجاد النملة رقم ثلاثة ملايين ومئتين وثمانٍ وثلاثين ألف وتسعمئة وخمسة.

فكّر بضع لحظات قبل أن يتابع بأُسلوبٍ فلسفيٍّ أكثر:

- ليست أثينا في الحقيقة سوى مُلحق لمنملة أهم بالكثير تحتوي على أكثر من خمس مليارات نملة ومع هذا فمن الممكن تقريباً أن تجد هذه النملة أو تلك بين هذه الخمس مليارات إذ يكفي أن تصل أبريز هاتف في جدار وتطلب رقماً. يوجد على هذا الكوكب عدّة مليارات من الهواتف يا هانس- توماس تجد منها مع ذلك في الألب كما في أعماق أدغال إفريقية، في ألاسكا أو التبت- وتستطيع أن تتصل بكل هذه الأماكن من جهاز الهاتف الموجود في صالون بيتك.

فخطرتْ على ذهني إحدى العبارات فارتجفتُ وأنا أهمس مُستثاراً تماماً:

- «يهتف رجل الفطائر في أُنبوبٍ سحريٍّ بحيث أن صوته يُحملُ على بعد مئات الكيلومترات.»

لقد فهمتُ في النهاية المغزى من تلك العبارة من لعبة الجوكر.

- وما هذا أيضاً؟ تمتم أبي سائلاً:

لم أكن أعرف كثيراً ما أقول، ولكن كان عليّ أن أجد وبسرعة شيئاً ما فقلت:

- عندما ذكرتَ الألب فكرتُ مُجدداً بذلك الفرّان الذي أعطاني فطائر وليمونادة. أنتَ تعرف... في تلك القرية الصغيرة... حيث توقفنا، لقد لاحظتُ أن لديه هاتفاً أيضاً يسمح له أن يتصل بأناس في كل العالَم. ما عليه إلا أن يهتف للاستعلامات ليحصل على أرقام هواتف كل شخص على هذه الأرض.

لم يبدُ على والدي أنه اقتنع بهذا الجواب إذ أنه لم يقم بأي تعليق وبقي يراقب الأكروبول صامتاً لوقتٍ طويل.

ثم أفلتَ منه أخيراً:

- على أي حال لا يمكن القول أنك لا تطيق التفلسف.

فهززتُ رأسي. لقد كنتُ في الحقيقة طافحاً جداً بالكتاب حتى أنني لم أعد أستطيع أن أحتفظ بكل شيء لنفسي.

حلّ الليل مع الوقت وأُنير الأكروبول.

- لقد وعدتُ بأن أقص عليكَ مغامرة. قلتُ.

- حسنٌ أنا أسمع. قال والدي.

فبدأتُ برواية كل أنواع الأشياء التي قرأتُ عنها في كتاب الفطيرة: عن البرت، عن هانس الفرّان وعن فرود وعن لعبة الورق التي كانت معه على الجزيرة المسحورة.

لم يبدُ أنني قد حنثتُ بوعدي لفرّان دورف العجوز إذ أنني تظاهرتُ باختلاق كل شيء على التوالي. كما اعتنيتُ بأن أُبَهِّر هنا وهناك وأن لا أذكر *الكتاب* بأي حال.

كان والدي مندهشاً بشكلٍ واضح فقال:

- إن لديكَ مخيلة فيَّاضة يا هانس- توماس ربما ليس عليك في العمق أن تكون فيلسوفاً ولكن كاتباً بالأحرى؟

ربحتُ من جديد بشكلٍ غير شرعي.

بذهابنا للنوم ذلك المساء كنتُ أنا من نام أولاً في تلك المرَّة، ومع هذا فقد بقيتُ سهراناً وقتاً طويلاً قبل أن أستغرق في النوم، ولكن والدي بقي سهراناً لوقتٍ أطول بالكثير. رأيته ينهض إلى النافذة ويظل عندها.

لمّا استيقظتُ في صباح اليوم التالي كان لا يزال نائماً. وجدتُ أنه يشبه دُبّاً في حالة سُبات.

أخرجتُ العدسة والكتاب وقرأتُ ما حصل على الجزيرة المسحورة بعد لعبة الجوكر العظيمة.

بنت الديناري

وانفجر عندها المهرج الصغير مُنتحِباً

انفضَّتْ الدائرة الكبيرة ما أن ضرب الجوكر على صدره مُهنئاً نفسه على بصيرته النافذة ثم تواصل المهرجان: أقزام يتناولون الفاكهة وآخرون يسكبون المشروب اللامع قائلين بصوتٍ عالٍ أسماء المذاقات التي يمنحها لهم هذا الشراب العجيب:

- عسل!

- خزامى!

- عنب استشفاء!
- جزر أبو حلقة!
- نجيل!

نظر فرود إليَّ. على الرغم من أنه كان رجلاً كهلاً بشعرٍ أبيض وبوجهٍ مجعَّد إلا أن عينيه كانتا محتفظتين ببريق الأحجار الكريمة. يُقال عادةً بأن العيون هي مرآة الروح؛ لقد تجلَّتْ لي هذه العبارة وقد أخذتْ فجأةً معناها كاملاً.

صفَّق الجوكر بيديه من جديد وصاح في الصالة:

- هل تعرَّفنا على عمق لعبة الجوكر؟

وبما أن أحداً لم يُجب فقد عيل صبره و أخذَ يُلوِّحُ بكامل ذراعيه حول رأسه.

- هل فهمنا الآن أن فرود هو ذلك البحَّار مع لعبة الورق وأننا نحن أوراق تلك اللعبة؟ أو أن عليكم أن تنتفضوا لأنه قد تم التلاعب بكم أكثر من اللازم؟

كان يكفي مراقبة تعابير الأقزام في الصالة لمعرفة أنهم لم يفهموا ولا كلمة واحدة مما قاله لهم المهرج الصغير، بل بدا أن هذا لم يحرك بهم ساكناً.

- أوه. هذا هو من يمكن أن يُعَكِّر علينا صفونا. صاحت بنت الديناري.
- نعم إنه لا يُطاق فعلاً. أعلن أحد البستون.

أخذ الجوكر هيئة البائس لبضعة ثوان قبل أن يكرِّر:

- أليس هناك شخص يفهم؟
- لاااا صاح كل الأقزام بلحنٍ واحد.

لقد كان متوتراً جداً حتى أن كل جلاجله كانت تخشخش في حين أنه كان يحاول أن يبقَ ثابتاً تماماً.

- هل فهمنا الآن أن فرود قد سخر منا؟ وأنه كان يتسلى بمعاملتنا كمهرجين في حين أنني أنا هو المهرج؟

صمَّ الكثيرون آذانهم ووضع آخرون أيديهم أمام أعينهم وسارع آخرون أيضاً للشرب من الليمونادة الأرجوانية. ولنصدِّق أنهم قد فعلوا كل ما يُمكن من أجل أن لا يفهموا ما أراد الجوكر أن يقوله لهم.

ذهب شيخ البستون وأُحضر زجاجة من المشروب المُتلألئ من على الطاولة ومدَّها للجوكر قائلاً:

- هل أتينا إلى هُنا من أجل أن نلعب بحل الألغاز أم من أجل أن نشرب من الليمونادة الأرجوانيَّة؟

- نحن هنا من أجل أن نستمع إلى الحقيقة. قال الجوكر.

أخذ فرود بذراعي ووشوشني بضعة كلمات في أُذني:

- من الصعب التنبؤ بما سيبقى من كل ما خلقتُه على الجزيرة عندما ستنتهي هذه اللعبة.

- هل تريدني أن أحاول إيقافه؟ سألته.

هزَّ فرود رأسه:

- لا. لا تُتعب نفسكَ فعلى اللعبة أن تتبع قوانينها الخاصة.

في اللحظة التالية قفز شب البستون أمام الجوكر وانتزعه من على كرسيِّه العالي وجاء *الشباب* الآخرون ليقدِّموا له يد العون مُثبتين المهرج المسكين على الأرض وأجبروه على فتح فمه لكي يبتلع بعض القطرات من الليمونادة الأرجوانية، ولكن الجوكر كافح مثل إبليس وبصق ما حاولوا أن يجعلوه يشرب ثم نجح في أن يُفلِت في النهاية.

- يبصق الجوكر الشراب المتلألئ. صاح وهو يمسح دائر فمه. بدون مصل الكذب يرى المهرج بشكلٍ أوضح.

بقوله هذه الكلمات الأخيرة انتزع الزجاجة من بين الأيادي وقذف بها على الأرض مشظياً إياها ألف قطعة. ثم قفز على كل الموائد ورمى على الأرض كل القناني والأباريق جاعلاً إياها شظايا متطايرة. كان هناك شظايا من الزجاج وقد انطلقتْ في كل الاتجاهات ولكن بغرابة لم يُجرَح أي قزم بينما أُصيب فرود بخدشٍ صغيرٍ في يده ورأيتُ قطرة دم تسيل منه.

كان السائل اللامع يشكل حينها مستنقعات سميكة دبقة على الأرض. حاول بعض *الأزواج* وبعض *الثلاثات* أن يلعقوا جزءاً منه رغم شظايا الزجاج التي انتثرتْ فوق الأرض و كانت تمتلئ بها أفواههم بدون توقف ولكنهم كانوا يكتفون بإعادة بصقها كأن شيئاً لم يكن في حين كان الآخرون يراقبونهم ببلاهة.

هنا أخذ شيخ البستون الكلمة فصاح:

- أيها *الشباب* آمركم أن تقطعوا رأس هذا المجنون على الفور.

ما كاد أن ينطق بهذه الكلمات حتى استلَّ الشباب الأربعة سيوفهم وتوجهوا صوب الجوكر.

لقد كان ذلك كثيراً عليَّ فعزمتُ أن لا أبقَ مكتوف اليدين، ولكن في اللحظة التي كنتُ أستعدُ فيها للتدخل شعرتُ بيدٍ محكمة تمسك بي.

بدت على الجوكر إمارات اليأس التام وهو يتمتم:

- وحده الجوكر.... و لا يوجد أحدٌ آخر..... أبداً لا أحد......

وانفجر عندها المهرج الصغير منتحباً.

تراجع *الشباب* وحتى الأقزام، الذين كانوا لا يزالون حتى ذلك الحين مصمِّين آذانهم و عيونهم، وراقبوا واجمين. لقد شاهدوا على مدى سنوات كل أنواع التهريج من قِبَلِ البهلول ولكنهم لم يكونوا قد رأوه أبداً وهو يبكي.

كانت عينا فرود تغتسلان بالدموع وفهمتُ على حين غرَّة أنه ليس ثمة من هو أحب إليه من هذا المشاكس الصغير، فحاول أن يمرر ذراعه بحنان حول كتفيَّ الجوكر.

- يالله معلش ...... قام بتعزيته.

ولكن الجوكر أبعد ذراعه.

عندها أخذ شيخ الكُبة دوره في الكلام:

- عليَّ أن أُذكركم أنه من المحظور قطع رأسٍ يبكي.

- تباً ثم تباً. صاح شب البستون.

فتابع شيخ الكُبة:

- بالإضافة إلى أن قاعدةً قديمة تشترط وجوب التريث في قطع الرأس إلى أن يكون هذا الأخير قد انتهى من الكلام. لم تُقلب كل الأوراق على الطاولة وبالنتيجة فأنا آمر أن تعيدوا الجوكر إلى الطاولة قبل أن تقطعوا عنقه.

- أوه. شكراً يا عزيزي الشيخ. أنتَ الوحيد في كل لعبة الصبر هذه الذي لديه ثلاثة عشر قلباً طيباً. قال الجوكر وهو (يحزق).

انبرى الشباب الأربعة لحمل الجوكر ليمددوه على إحدى الطاولات ويداه مشبوكتان خلف عنقه. وضع رِجْلاً على رِجْل ثم ألقى خطاباً طويلاً وهو على تلك الوضعية بينما شكَّل كل الأقزام دائرةً من حوله، فبدأ بالقول:

- كنتُ آخر الواصلين إلى هذه القرية وأنتم تعلمون جميعاً أنني لستُ مثلكم أنني غالباً ما عزلتُ نفسي جانباً.

وللحقيقة المدهشة فقد أصغى إليه الأقزام حينها بأقصى ما يكون عليه الانتباه فلا شك بأن الرغبة كانت تتملكهم لمعرفة لماذا كان دوماً مختلفاً جداً عنهم.

- ليس عندي فرع ولا عائلة. تابَعَ. أنا لستُ بالكبة ولا بالديناري ولا بالسبات ولا بالبستون كذلك. أنا لستُ *بالشيخ* ولا *بالشب* كما أنني لستُ بالثمانية ولا بالآس. أنا هو الجوكر وكان عليَّ أن أجد بنفسي ما يعني هذا. تخشخش جلاجلي مع أدنى حركة من رأسي لتُذكِّرني بأنني لستُ من أي مكان. ليس لديَّ رقم ولا مهنة أيضاً. أنا لا أعرف فن صناعة الزجاج كما الديناري معلمي الزجاج ولا فن صناعة الحلوى مثل الكُبة وليس عندي أصابع السبات الماهرة كذلك ولا القوة العضلية التي للبستون. لقد أمضيتُ وقتي وأنا أتأملكم عن بعد وأنتم تتفرغون لمشاغلكم. ولكن لقد كان لديَّ بالمقابل الوقت كله لملاحظة ما لا تسهل رؤيته لأحد.

خلال حديثه كله كان الجوكر يهزُّ بإحدى رجليه مما يسبب خشخشة واهنة لجلاجله.

- كان لديكم في كل يوم مشاغلكم المحددة بدقة، ولكنكم لم تكونوا أبداً مستيقظين فعلاً. كنتم بالتأكيد ترون الشمس والقمر والنجوم في السماء وكل ما يتحرك على الأرض، ولكنكم لم تلحظوا أبداً كيف يوجد كل هذا فعلياً. لقد جاء الجوكر إلى العالَم بهذا الميلان البصريّ ليرى بعيداً جداً وجيداً جداً.

ثم قاطعته بنت الديناري:

- هيًّا. ابصق الجوهرة أيها المضحك. قل لنا الآن مباشرةً ما تدَّعي أنك رأيته ولم نره نحن؟

- *لقد رأيتُ نفسي!* صاح الجوكر. لقد رأيتُ نفسي أزحف بين الجنبات والأشجار في حديقةٍ واسعة.

- هل تستطيع أن ترَ نفسكَ من الأعلى؟. هل لعينيكَ أجنحة لتطير مثل الطيور؟ سألتْ زوج الكُبة مُندهشة.

- نعم بمعنى من المعاني. إذ أنه لا يكفي أن ننظر إلى أنفسنا في مرآةٍ صغيرة نسحبها من الجيب كما تفعل *بنات* القرية الأربع عند نهاية كل جولة. إنهن مشغولات للغاية بمراقبة أنفسهن بهذا الشكل. حتى أنهن نسين أن يحيين.

فصاحتْ بنت الديناري من جديد:

- لم أسمع أبداً إهانةً بهذا الشكل. هل سنترك هذا السمج يتكلم أطول من هذا؟

- ليس فقط ما أراه.... تابع الجوكر. ولكن أيضاً ما أشعر به في الداخل: أشعر أنني حيّ، حيٌّ تماماً، مخلوقٌ عجيب بجلدٍ وبشَعرٍ وبأظافر وكل ما تبقى.... نوعٌ من الدمية من لحمٍ ودم يمكن أن تؤخذ باليد مثل الكاوتشوك. ولكن من أين جاء هذا الرجل الصغير من الكاوتشوك؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الجوكر.

- هل سنتركه يتابع حقاً؟ سأل شيخ البستون بدوره.

فأشار شيخ الكُبة بنعم.

- نحن نحيا. صاح الجوكر وهو يهزُّ ذراعيه الاثنين جاعلاً كل جلاجله تخشخش بحدَّة. نحن مرميون في العالَم من أجل أن نحيا مغامرةً غامضة بل وحتى غريبةً جداً. قال الجوكر. يجب أن نقرص ذراعنا بدون توقف لنتأكد بأننا لسنا في حُلم.

- وهل يؤلم هذا؟ سألت ثلاثة الكُبة.

- أشعر الآن بأنني موجود في كل مرَّة أسمع فيها رنة جلجل، الأمر الذي يحدث حالما أقوم بأقل حركة.

عندما قال هذه الكلمات رفع أحد ذراعيه وهزه بقوة بقدر ما استطاع الأمر الذي أدى إلى تراجع العديد من الأقزام.

صقل شيخ الكُبة صوته وقال:

- وهل وجدتَ في نهاية الأمر من أين جاء رجل الكاوتشوك؟

- ربما قد كشفتم هذا أنتم وحدكم. أجاب الجوكر. ولكن كل واحد منكم لم يحلَّ إلا جزءاً من اللغز.... يجب القول بأنه ليس لديكم الشيء الكثير في دماغكم وبأن عليكم أن تنتظموا معاً جميعاً لكي تصلوا إلى فكرة واحدة مترابطة.

يقول الجوكر بأنه دمية عجيبة وبأنكم أنتم عجيبون تماماً مثله ولكنكم لستم على وعي بذلك إذ أنكم تبالغون في شرب الليمونادة الأرجوانية وأفواهكم مليئة بمذاق الخزامى والعسل وعنب الاستشفاء وجزر أبو حلقة والنجيليات. أنتم لا تشكلون إلا كلاً واحداً مع الحديقة التي تعيشون فيها إذ أن ذاك الذي يمتلك العالَم برمته في رأسه ينسى أن لديه فماً، إن ذاك الذي يشعر بكل مذاقات العالَم أجمع في ذراعيه ورجليه ينسى أنه دمية غامضة.

لقد حاول الجوكر دائماً أن يقول الحقيقة ولكنكم لم تريدوا الإصغاء إليّ. لقد كانت مجاري السمع لديكم مسدودة بالتفاح، بالأجاص، بالفريز، بالموز. بالتأكيد لديكم عيون ولكن ما الجدوى منها إذا كانت تبحث في كل مكان عن بعض الزجاجات من أجل إفراغها؟ إن الأمور هي على هذا الشكل. قال الجوكر. إن الجوكر وحده هو من يعرف الحقيقة.

نظر الأقزام إلى بعضهم البعض مندهشين. فكرَّر شيخ الكُبة:

- من أين جاء رجل الكاوتشوك؟

فأعلن الجوكر وهو يباعد ما بين ذراعيه:

- خُلقنا من مخيلة فرود. في يومٍ من الأيام أصبحتْ أحلامه حيَّة جداً حتى أنها أخذتْ استقلالها. إن هذا مستحيل! قال الجوكر. ولكنه ليس أكثر استحالة من الشمس والقمر. أضافَ. والشمس والقمر هما حقيقيان أيضاً.

حوَّل الأقزام جميعاً أنظارهم نحو فرود فأمسكَ الرجل العجوز بمعصمي. ثم تابع الجوكر:

- ولكن هذا ليس كل شيء. في الحقيقة من هو فرود؟ إنه نفسه دميةٌ عجيبةٌ. قال الجوكر. هو حيٌّ تماماً تحت الشمس. قالَ. لقد كان الوحيد على هذه الجزيرة من قبل، ولكنه يمثل في الواقع جزءاً من لُعبة ورقٍ أُخرى وليس عندي أدنى فكرة عن عدد الأوراق الموجودة في تلك اللعبة الأُخرى كما أنني لا أعرف من يقوم بتوزيع الأوراق. إن الجوكر لا يعرف إلا شيئاً واحداً: وهو أن فرود هو أيضاً دمية ظهرتْ يوماً إلى العالَم. أما من أي رأسٍ قد خرج؟ فهذا ما يحب الجوكر كثيراً أن يعرفه وسيظل يسأل نفسه إلى أن يجد الجواب يوماً.

كان يمكن القول: إن الأقزام قد استيقظوا من نوم عميق. وجدتْ كل من زوج وثلاثة الكُبة مكانس وبدأتا القيام بأعمال التنظيف. بينما أخذ الشيوخ الأربعة بالتشاور متكاتفين وهم يشكلون حلقة. استمروا في النقاش زمناً طويلاً بصوتٍ منخفض إلى أن التفتَ شيخ الكُبة نحو الجوكر في النهاية وقال:

- ببالغ الأسى على شيوخ القرية أن يعترفوا بأن الجوكر الصغير قد قال الحقيقة.

- ولماذا ببالغ الأسى؟ سأل الجوكر الذي استند على كوعه لكي يرى شيخ الكُبة على نحوٍ أفضل.

في تلك المرَّة فإن شيخ الديناري هو من أخذ بزمام الكلام قائلاً:

- من المؤسف جداً أن يكون الجوكر قد روى لنا الحقيقة إذ أن ذلك يعني أن على السيِّد أن يموت.

- ولماذا سيكون على السيِّد أن يموت؟ سأل الجوكر. يجب التمكن دائماً من الاحتكام إلى قاعدة قبل التنفيذ.

فأجابه شيخ الديناري:

- إذا بقي فرود يتجول بحُرية في هذه القرية لوقتٍ طويلٍ جداً فإن مجرد حضوره سيُذَكِّرنا بأننا موجوداتٌ مصطنعة ولذلك يجب أن يموت بسيوف *الشباب*.

قفز الجوكر وأخذ يزحف على الأرض. أشار إلى فرود غير أنه كان لا يزال يتوجه نحو *الشيوخ* بالكلام:

- ليس من المحمود أن يعيش الخالق علاقة حميمة جداً مع نتاجه. إذ أن مخلوقاته ستنتهي حتماً في يوم أو آخر إلى عدم القدرة على احتماله أكثر. من جهةٍ أُخرى يبدو من الظلم أن نجعل فرود مسؤولاً عن إمكانية أن يخلق من مخيلته الفياضة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

أعاد شيخ السبات تاجه الصغير إلى وضعه المستقيم تماماً فوق رأسه قبل أن يقول:

- لكل واحد الحق في تصور ما يحلو له، ولكن من واجبه ألا يترك المخلوقات التي خرجتْ من مخيلته تعتقد أنها شيءٌ آخر غير انعكاسات ذهنه وإلا فإن هذا يعني أنه يعتبرهم حمقى وفي هذه الحالة يكون لتلك المخلوقات التي خلقها بنفسه الحق في قتله.

اختفتْ الشمس فجأةً خلف إحدى الغيوم وغرقت صالة الأفراح بضوءٍ قاتم.

فصاح شيخ البستون:

- أيها *الشباب*، هل تسمعون ما نقول؟ هيَّا اقطعوا رأس السيِّد.

قفزتُ عن كرسيٍّ إلى الأسفل، ولكن شب السبات قال (لشيخ البستون) في نفس اللحظة:

- لا تتعب نفسك يا صاحب الجلالة إذ أن سيِّدنا فرود قد مات.

التفتُّ. كان فرود قد انزلق عن كرسيِّه وتمدد على الأرض بدون حياة. لم تكن تلك هي المرَّة الأولى التي أرى فيها ميتاً- ولكنني كنتُ أعرف أن فرود لن يّلقي بعدها أبداً نظرته المُشرقة عليَّ.

عانيتُ من إحساسٍ رهيبٍ بالفراغ وبالوحدة. وبطرفة عين وجدتُ نفسي وحيداً على تلك الجزيرة الغريبة حيث كانت تتقافز حولي شخصياتٌ من ورق اللعب، ولكن ولا واحدة منها كانت موجوداً بشرياً مثلي أنا.

شكّل الأقزام حلقةً حول فرود بينما لم تُفصح وجوههم عن أي انفعال بل بدتْ أكثر خواءاً بكثير من عشية اليوم الذي وصلتُ فيه إلى القرية.

لمحتُ آس الكُبة وهي تهمس بعض الكلمات في أذن شيخ الكُبة ثم ركضتْ نحو الباب واختفتْ.

قال الجوكر في النهاية:

- من الآن فصاعداً نحن متروكون لأنفسنا إذ أن فرود قد مات الآن والشخصيات التي خرجتْ من مخيلته هي التي قتلته.

لقد كنتُ حزيناً وغاضباً جداً كذلك فتوجهتُ مباشرةٍ صوب الجوكر ورفعته عن الأرض هازّاً إياه مثل شجرة خوخ جاعلاً كل جلاجله تخشخش وقلت:

- أنتَ هو من قتله. أنتَ من سرق الليمونادة الأرجوانيّة المخبأة في خزانة كوخ فرود وأنتَ من حلَّ لغز لعبة الصبر.

لمّا وضعته على الأرض من جديد قال شيخ البستون:

- إن ضيفنا معه حق ولهذا فإن لنا كل الحق في قطع رأس المهرج. نحن لن نتخلص أبداً من ذاك الذي تلاعب بنا وقتاً طويلاً ما لم نقتل مهرجه. يا *شباب*! اضربوا الآن رأس هذا المضحك.

ولكن الجوكر جرى كالسهم مُبعداً يد بعض *السبعات* و*الثمانات* قبل أن يبلغ الباب ويتوارى مثل آس الكُبة. فهمتُ أن زيارتي قد طالتْ أكثر من اللازم فاندفعتُ خارجاً. كان يتموج، بين البيوت الصغيرة للقرية، وشاحٌ أصفر من الشمس الغاربة ولكنني لم أرَ أي أثرٍ للجوكر ولا لآس الكُبة.

شيخ الديناري

أجبرونا على حمل جرس حول الرقبة.....

كان والدي قد بدأ يتحرك في سريره قبل موت فرود بكثير. بيد أنني أبيتُ إلا أن أعرف خاتمة لعبة الجوكر. كان لا بد له أن يُطلقَ نحنحاته الأولى حتى أقرر قطع قراءتي وأُخفي *الكتاب*.

- هل نمتَ جيداً؟ سألته لمّا نهض.

- بشكلٍ رائع جداً. أجاب وهو يكتم تثاؤباً ويحملق بعيونه. لقد حلمتُ أحلاماً عجيبة.....

- قُصَّ عليّ. قلتُ.

بقي جالساً في سريره. أكان يخشى من هرب الصور الأخيرة من حلمه فيما لو نهض؟

- لقد حلمتُ أن الناس هم مثل الأقزام الذين تحدثتَ عنهم البارحة على الشرفة. ولكن على الرغم من أنهم كانوا أحياء إلا أننا فقط أنا وأنت من كانا مندهشين لأن نكون حيين. كان هناك أيضاً طبيبٌ كهل قد اكتشف في يومٍ من الأيام أن لكل قزم بطاقة تحت إبهام رجله. كان يلزم عدسة مكبِّرة أو مجهر من أجل ملاحظتها. على كل بطاقة كان هناك أحد أنواع ورق اللعب وأرقام تبدأ من واحد حتى عدّة ملايين؛ فعلى سبيل المثال أحد الأقزام لديه إشارة كُبة والرقم ٧٢٨٩٦٤ وواحدٌ آخر لديه إشارة ديناري ورقم ٦٠١٤٣ وثالث له إشارة ديناري أيضاً ورقم ٢٦٥٩. وكل واحد كان له رقم مختلف عن أرقام الآخرين. بهذه الطريقة لم تكن البشرية أكثر من لعبة صبر هائلة. ولكنني أود الوصول إلى

هذا- كان هناك اثنان من بين هؤلاء الأقزام لم يكونا يحملان أية علامة مميزة، وخمّن من كانا؟ هانس- توماس ووالده! بدأ الآخرون يرتابون بنا فأُجبرونا على حمل جرس حول الرقبة لكي نعلن في كل لحظة عن مكان تواجدنا.

اعترفُ بأن هذا الحلم كان أكثر من غريب، ولكنني قلتُ لنفسي بأنه لا بد وأنَّ يكون والدي قد بَهَّرَ ما كنتُ قد رويته له مساء الليلة الماضية. ثم تابع:

- هذا لا يُصَدَّق! أتعلم: إن كل تلك الأفكار التي يمكن لنا أن نخزِّنها هي بدون شك تلك التي تكون متوارية أكثر من غيرها والتي تصعد إلى السطح عندما ننام.

- على أن لا نكون قد خزَّنا الكثير جداً من الكحول........

في تلك المرَّة استثناءً نظر إليَّ مبتسماً ومن دون أن يشعر أنه مُجبَرٌ على إضافة كلمة وهذا نادر الحدوث لوالدي. نزلنا وتغدينا بدون أن يأخذ منها واحدة.

كان الفطور في فندق تيتانيا حسب الاختيار: فإمّا كان علينا أن نقبل شيئاً ما كيفما اتفق مُتَضَمَناً من أجر الغرفة وإما أن نخدم أنفسنا بأنفسنا من مقصفٍ ملكيٍّ تماماً وضخم ويكفي أن ندفع ثمن ذلك.......

لم يكن والدي شرهاً أبداً، ولكنه أخذ في ذلك الصباح عصير فواكه ولبن رائب وبيض وطماطم ولحم خنزير وهليون. عندما رأيتُ كل ما أخذ لم أشأ أن أُقصِّر في هذا أنا أيضاً.

- أتعلم: لقد كنتَ محقاً بالنسبة لأولئكَ الذين يفرطون في الشراب،كنتُ قد نسيتُ إلى أي درجة يمكن للعالَم أن يكون صافياً. اعترفَ لي وهو ينقضُّ على البيض.

- ولكن أتمنى أن لا تهمل الفلسفة من أجل هذا، ها؟ سألتُ مستفهماً.

كنتُ دائم الخشية من أن تكون أفكار أبي الفلسفيَّة ليست إلا نتيجة لحالات سُكره وبأنه سيعود مثل كل الناس ما أن يتوقف عن الشرب.

ألقى عليَّ نظرة دهشة وقال:

- بالتأكيد لا. أية فكرة! على العكس فمن الآن سأصبحُ فيلسوفاً *خطيراً*.

فتنفستُ الصعداء مُطمئناً.

ثم سألني:

- هل تعرف لماذا يعيش معظم الناس حياتهم الصغيرة بهناء وبدون أن يدهشوا مما يرون؟

فهززتُ رأسي.

- لأن العالَم يصبح مجرد اعتياد.

وضع القليل من الملح على البيض ثم تابع:

- يلزمنا جميعاً سنواتٌ طويلة جداً قبل أن نعتاد على العالَم. ويكفي لكي نقتنع بهذا أن نراقب الأطفال الصغار: إن كل ما يرونه يكوِّن لديهم انفعالاً قوياً جداً بحيث أنهم لا يصدقون عيونهم. إنهم لا يتوقفون عن الإشارة بإصبعهم إلى هذا أو ذاك من الأشياء أو عن طرح الأسئلة. إنهم بهذا مختلفون عنَّا نحن البالغون الذين انتهينا بالتعوُّد على كل ما يحيط بنا وصرنا بغاية الضجر حتى أنه لم يعد من الممكن أن يثيرنا شيء.

بقينا على المائدة لوقتٍ طويلٍ أيضاً ونحن نتذوق لحم الخنزير والجبن.

عندما فرغتْ أطباقنا في النهاية قال والدي أيضاً:

- هل تريد أن نتعاهد على شيءٍ بشكلٍ متبادل يا هانس- توماس؟
- أوف. هذا يتوقف على ماذا .... أجبتُ
- سوف نتعاهد على أن لا نتركَ هذا الكوكب قبل أن نعرف أكثر قليلاً من نحن ومن أين أتينا.

فقلتُ وأنا أمدُّ له يدي:

- اتفقنا، ولكن يجب أولاً أن نجد ماما. ثم أضفتُ: فبدونها سوف لن ننجح في هذا أبداً.

الكُبة♥

آس الكُبة

لّما قمتُ بقلبها رأيتُ بأنها كانت آس الكُبة

بدا لي والدي متوتراً جداً عندما كنّا في السيارة ذاهبين إلى بيري. لم أستطع أن أعرف ما إن كان عصبياً لفكرة رؤية (ميناء) بيري أو لأنه كان عليه أن يتصل حوالي الظهيرة بوكالة عارضات الأزياء تلك والتي كان يمكن أن تعرف أين توجد ماما.

رُكِنَتِ السيارة في منتصف مركز المدينة ثم توجهنا نحو الميناء الدوليّ الكبير.

- هنا أنزلنا مرساة السفينة منذ سبعة عشر عاماً. قال والدي وهو يشير إلى المكان حيث كانت تتواجد سفينة شحنٍ روسيَّة.

ثم شرح لي لمرّة جديدة أن الحياة ليست إلا تعاقب لا متناهٍ للعصور.

- قُلْ لي، في أية ساعة عليكَ أن تتصل؟ سألتُ.

- بعد الساعة الثالثة.

نظرنا إلى الساعة كلينا: كانت بالكاد قد بلغت الثانية عشرة والنصف.

- «إن القَدَرْ هو رأس قرنبيط ينمو في كل الجهات بشكلٍ متساوٍ.» قلتُ.

قام والدي بإشارة غاضبة من يده وقال:

- توقف قليلاً عن قصصكَ تلك.

لقد فهمتُ أنه كان يتوجس من اللحظة التي سيرى فيها ماما من جديد.

- أنا جائع. قلتُ.

لم يكن هذا صحيحاً أبداً، ولكن كان لا بد من إيجاد شيء له علاقة بالقرنبيط. ثم ذهبنا في النهاية لنأكل في ميناء ميكروليمانو الشهير.

مررنا ونحن نمشي من أمام سفينة كانت في طريقها إلى جزيرة تدعى سانتورين. روى لي والدي أن تلك الجزيرة كانت فيما مضى أكبر بكثير عمّا هي عليه اليوم فقد غرق الجزء الأعظم منها في البحر على إثر ثورة بركانيٍّ عظيم.

بينما كنا نأكل المسقّعة لم يستطع والدي أن يكبح نفسه عن تقديم بعض الملاحظات حول الصيادين الذين كانوا يُرَتِّقون شِباكهم أمام المطعم مباشرة، ولولا هذا لكانت الوجبة صامتة بالأحرى. بالمقابل فقد نظر كل واحد منا نحن الاثنان إلى ساعته ثلاث أو أربع مرّات على الأقل. بالتأكيد *فعلنا هذا* بأكبر قَدْر ممكن من السريَّة، ولكن يجب الاعتراف أن أحدنا لم يكن أكثر مهارة في ذلك من الآخر....

كانت الساعة الثالثة إلا ربعاً فعزم والدي في النهاية أن يذهب ويتصل. قبل أن يترك الطاولة طلب قطعة ضخمة من البوظة من أجلي، ولكنني أُخرجتُ العدسة *والكتاب* دون أن أنتظر أن تُقدَّم لي. لقد حرصتُ في تلك المرّة أن أقرأ تحتَ الطاولة حتى لا ألفتَ الانتباه.

بلغتُ كوخ فرود مجدداً وأنا أتسلق الهضبة. طالما كنتُ أجري كنتُ أعتقد أنني أسمع ضجة غامضة صمّاء تصعد من الأرض كما لو أن التُربة كانت ستنهار تحتي ما بين لحظةٍ وأُخرى.

عندما صرتُ في الأعلى التفتُّ وألقيتُ نظرة على القرية؛ كان العديد من الأقزام قد غادروا صالة الأفراح وركضوا بين المنازل. صاح أحدهم:

- أُقتلوه.

- سوف نقتلهما كليهما. صاح آخر.

دلفتُ إلى الكوخ وشعرت بالأسى عندما تذكّرت أن فرود لن يطأه بعدها أبداً بقدميه. ارتميتُ على مصطبة واستعدتُ أنفاسي، ولكن كان يجب التحرك بسرعة. نظرتُ حولي، على الطاولة أمامي كانت هناك سمكة حمراء تسبح في وعاءٍ كبير على حافة النافذة وفي إحدى زوايا الحجرة كان هناك جراب أبيض مصنوع بدون شك من جلد أحد تلك الحيوانات ذات القوائم الست. سكبتُ ماء الحوض في زجاجة فارغة مُلقاة على حافة إحدى النوافذ ووضعتها بحيطةٍ هي والحوض الزجاجيّ في الجراب الأبيض. على أحد الرفوف فوق الباب وجدتُ العُلبة الخشبية التي غدت فارغة والتي كان فرود يضع فيها ،في البداية، لعبة ورقه. بسرعة كبيرة أدخلتُ كل ما وقعت عليه يدي في الجراب. كنتُ أهمُ بأخذ تمثالٍ زجاجيٍ يُمثّلُ أحد الملوك عندما سمعتُ رنة جلاجل، وقَفَزَ الجوكر إلى الحُجرة.

- علينا أن نفر من هنا نحن الاثنان بأقصى سرعة وأن نبلغ البحر. قال وهو بالكاد يلتقط أنفاسه.

- نحن الاثنان؟ سألتُ مندهشاً .

- نعم نحن الاثنان ، ولكن لا توجد أية ثانية لنُضيعها أيها البحّار .

- ولماذا؟

- « تتقوض الجزيرة المسحورة من الداخل .» قال .

فعادتْ لعبة الجوكر إلى ذاكرتي .

بينما كنتُ أُعيد إغلاق الجراب نبَّشَ الجوكر في إحدى الخزن وأخذ زجاجة صغيرة مملوءة حتى نصفها بسائلٍ مُتلألئ من الليموناد ة الأرجوانية .

- هيه ، لقد نسيتَ هذا . قال .

من عند عتبة الباب كان المشهد مرعباً : عُصبة كاملة من الأقزام كانت تصعد مُنقضةً على الهضبة . كان بعضهم راجلاً وآخرون على صهوات المولوك . كان *الشباب* الأربعة في المقدمة وسيوفهم في أكفهم .

- من هنا . اسرعْ . صاح الجوكر .

أسرعنا إلى خلف الكوخ آخذين درباً كان يتلوى في غابةٍ تُنيف على القرية . نجحنا في الاختفاء خلف الأشجار في نفس اللحظة التي بلغ فيها الأقزام كوخ فرود .

كان الجوكر يتقدمني قافزاً كعنزةٍ جبل حقيقيَّة ، ولكن المشكلة كانت في أن جلاجله كانت تُساعِد في هداية فلول العصابة ، مما يعني أن الجميع كان يتبعنا على الأثر .

- إن ابن الفرّان هو من يجب أن يعثر على طريق البحر . قال الجوكر بدون أن يُبطئ عَدْوَه .

أجبته أنني قد مررتُ بسهلٍ كبيرٍ كان فيه النحلات العملاقة والمولوك قبل أن أُلاقي زوج وثلاثة السبات اللذين كانا يعملان في الحقول .

- إذن فهذا هو الطريق الصحيح. صاح وهو يشير إلى ممرٍ كان يذهبُ نحو اليسار.

خرجنا بعد قليل من الغابة المُشْرف من أعلى جرف صخريّ صغير على الحقل حيث تعرفتُ على أول قزمين.

كنا نستعد لنزول ذاك الجرف عندما تعثَّر الجوكر وسقط على الصخور المُنحدرة فرددتْ الجبال جميعها رجع ضجيج جلاجله. لقد خفتُ أن يكون قد أُصيب بجروح عميقة، ولكنه نهض من جديد بدون أي أثر لخدش ثم فرقع ضاحكاً.

ما كنتُ أنا لأنجو مثله فعزمتُ أن أبدو أكثر حذراً. بوصولي إلى أسفل الهضبة شعرتُ من جديد بأن الأرض ترتجف تحت قدميّ.

بدا لي أن عبور الحقل قد استغرق في العودة زمناً أقل منه في الذهاب. رأينا بعدها بقليل النحلات الشهيرات؛ بالتأكيد كان حجمها أكبر من تلك التي في ألمانيا، ولكنها لم تعد تبدو لي مُذهلة مثلما كانت عليه يوم وصولي.

- اعتقد أنه من هنا. قلتُ وأنا أشير بإصبعي إلى جبلٍ عالٍ.
- من الجهة الأُخرى من الجبل؟ سأل الجوكر مندهشاً تماماً.

فهززتُ رأسي.

- لقد وصلتُ من خلال فتحةٍ في إحدى المغارات.
- إذن ليس لنا الخَيار أيها البحَّار.

وهو يقول هذه الكلمات كان يشير لي بإصبعه إلى أولئكَ الأقزام الذين كانوا منطلقين جميعاً في ملاحقتنا. كان في مقدمتهم عشرة مولوك يمتطيها فُرسان وقد أثاروا عجاجاً من الغبار في طريقهم.

سمعتُ من جديد ضجة غريبة، نوعٌ من القعقعة الواهنة كانت ناتجة عن رجع سنابك المولوك وهي تعدو. لقد كنتُ مندهشاً لرؤية أن المسافة المقطوعة من قبل الأقزام كانت أقصر من تلك التي قطعناها نحن؛ لم يكونوا إلا على بضعة أمتار منّا عندما لمحتُ في النهاية الفتحة الصغيرة في الجبل.

- ها هي. صرختُ.

نجحتُ في زلق نفسي من خلال الشُّق وعندما صرتُ في المغارة كان الجوكر يحاول أن يلحق بي، ولكن ورغم حجمه الصغير فقد كنتُ مُجبراً على سحبه من ذراعيه بكل قواي لكي أجعله يمرُّ من نفس الثقب الذي نفذتُ منه أنا. كنتُ متعرقاً بينما كان ذراعا الجوكر باردين مثل صخور الجبل.

سمعنا أصوات طلائع المولوك وهي تتوقف أمام المغارة وظهر وجهٌ من التجويف الصخريّ: لقد كان شيخ البستون الذي ألقى بنظرة قصيرة على الداخل قبل أن ينغلق الثقب. بالكاد كان لديه الوقت ليسحب ذراعه الذي أمل في أن يمسكنا به.

- أعتقد أن هذه الجزيرة هي في طريقها للاضمحلال. قلتُ.

- أو بأنها ستنهار على نفسها من الداخل. صحّحَ الجوكر. وهذا يعني أن علينا أن نفرّ قبل فوات الأوان.

ونحن نركض عبر المغارة نفذنا خارج الوادي الضيق الذي كان يغلقه ذلك الحاجز الجبلي العالي. من جديد وجدتُ العضاءات و الضفادع والتي لم يعد حجمهم آنئذ بحجم الأرانب.

قمنا بعبور الوادي ولدينا الانطباع باجتياز مئة متر في كل خطوة ثم وصلنا بعد قليل إلى شجيرات الورد الصفراء والفراشات الصّافرة. كانت

بالتأكيد لا تزال كثيرة العدد أيضاً كما أن بعضها قد بقي ضخماً، ولكن الأُخريات قد غدون فجأةً أصغر بكثير ولم أعد أسمع غناءهن اللهم إلا إذا كانت خشخشة جلاجل الجوكر قد غطت على أصواتهن؟

وصلنا بعد قليل إلى قمة الجبل حيث كنتُ قد شهدتُ شروق الشمس في الصباح الذي أعقب الغرق. كانت تنتابنا أحاسيس بأننا نطفو فوق مشهد الطبيعة ما أن ترتفع نعالنا عن الأرض.

من الجهة الأُخرى عثرتُ على البحيرة حيثُ سبحتُ بين أسراب الأسماك التي كانت بكل ألوان قوس قزح. لم أتذكر أن البحيرة كانت بمثل هذا الصِّغر..... وفي النهاية المحيط!... أهدابٌ من الرغوة تداعب الساحل بعيداً، بعيداً هناك.

كان الجوكر يرقص من الفرح مثل طفلٍ وهو يسأل مندهشاً

- هل هذا هو المحيط؟ هيَّا أخبرني أيها البحَّار: هل هذا هو؟

لم يكن لديَّ الوقت لأجيب لأننا سمعنا فرقعة رهيبة قادمة من الجبل خلفنا، كانت كما لو أن عملاقاً كان يقوم بكسر الأحجار.

- إنه الجبل وهو يلتهم نفسه. قال الجوكر.

نزلنا عن القمة بكل سرعة. لم تعد البحيرة التي سبحتُ فيها إلا مجرد مستنقع عادي، وحدها الأسماك كانت كثيرة كما كانت من قبل. كان يمكن القول أن قوس قزح قد سقط في تلك المياه وبقي يفور هناك.

بينما كان الجوكر يتطلع حواليه فتحتُ الجراب الأبيض الذي كنتُ احمله على ظهري وأخذتُ الوعاء الزجاجي الكبير وملأته بالأسماك الحمراء، ولكنه

قُلِبَ في اللحظة التي كنتُ أرفعه فيها. لم أكن مع هذا قد قمتُ بحركة خاطئة، كان كما لو أنه قد سقط لوحده مسحوباً بقوة مجهولة. أو هل كان ذلك من عمل الأسماك؟ من يومها أصبح الوعاء مثلوماً.

- اسرعْ أيها البحّار. صاح الجوكر.

ثم ساعَدَني في إعادة ملء الوعاء بالأسماك. انتزعتُ طرف قميصي وغلّفتُ به الوعاء بحذر ثم أعدتُ وضع الجِراب على ظهري حاملاً الوعاء بشكلٍ مستقيمٍ تماماً وشاداً إياه إلى جسدي.

كادت ضجة رهيبة حادّة أن تثقب لنا غشاء الطبل. بدتْ الجزيرة على وشك الانهيار من كل الجهات. بينما كنّا نركض عبر أشجار النخيل وجدنا الهور حيث رسوتُ قبل يومين. أول شيء لاحظته كان القارب وهو آمنٌ تماماً بين شجرتي نخيل كما تركته بالضبط. وعندما التفتُ من جديد لم تعد الجزيرة سوى هضبة صخريّة غطتها أشجار نخيلٍ قليلة. كان المحيط هادئاً ولكن الزبد الذي كان يغسل الشاطئ كان يترك شعوراً مُسبقاً بأن الجزيرة كانت ستغرق نهائياً في البحر ما بين دقيقةٍ وأُخرى.

لمحتُ في طرفة عين شيئاً أصفر يلمع تحت شجرة نخيل. استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن أُدرك أنها آس الكُبة. وضعتُ الجراب والوعاء في القارب وركضتُ لألتحق بها بينما كان الجوكر مُشرقاً بالفرح وهو يرقص كطفلٍ حول القارب.

- آس الكُبة. همستُ.

التفتتْ وأرسلتْ إليَّ نظرةً طافحةً بالحنان وبالحزن حتى أنني اعتقدتُ بأنها كانت سترتمي على عُنقي، ولكنها قالتْ وهي تعتذر:

- لقد وجدتُ في النهاية الطريق لكي أخرج من المتاهة. اعرف منذ اليوم فصاعداً بأنني أنتمي إلى ساحلٍ آخر. هل تسمع الأمواج وهي تتكسر على ذاك الشاطئ على بعد كيلومترات من هنا وكَمْ من السنوات من الآن؟

- أنا لا أفهم ما تريدين قوله. قلتُ.

- هناك ولدٌ صغيرٌ يُفكّر فيَّ ولا أستطيع أن أجده..... ولكن ربما يستطيع هو أن يجدني. لقد تركتُ نفسي أنسحبُ بعيداً جداً عنه، هل تفهم؟ لقد قطعتُ البحار في كل الجهات واجتزتُ سلاسل الجبال ثم هاجمتني أفظع الأفكار، ولكن أحداً ما قد خلط الأوراق..... قالت.

- لقد وصلوا. صاح الجوكر فجأة.

لمّا التفتُّ رأيتُ الأقزام ينبثقون من خلف أشجار النخيل وهم يمتطون أربعة مولوك. كان الشيوخ الأربعة في الطليعة وقتها.

- امسكوا بهم. صرخ شيخ البستون الذي كان قد استعاد حُكم لعبة الصَّبر.

التصقتُ على الأرض لبضع ثوانٍ لمّا سمعتُ ضجةً من داخل الجزيرة تصمُّ الآذان. في الوقت الذي استعدتُ فيه رشدي كان الأقزام والمولوك قد اختفوا كما السِّحر. بحثتُ بنظري عن آس الكُبة ولكنها كانت قد تبخَّرتْ هي أيضاً. بالكاد بعد بضعة لحظات وجدتُ في المكان الذي كانت واقفةً فيه تحت إحدى شجرات النخيل ورقةً مقلوبةً ووجهها باتجاه الأرض؛ لمّا قمتُ بقلبها رأيتُ بأنها كانت آس الكُبة.

كانت الدموع في عينيّ وشعرتُ مُرتبكاً بغضبٍ شديدٍ يتصاعد داخلي. أسرعتُ إلى مدخل أشجار النخيل حيث ظهر الملوك والأقزام. كان هناك زوبعة خفيفة جعلتِ الأوراق تتطاير في الهواء. كنتُ أُمسك حينها آس الكُبة بيدي واستطعتُ استكمال لعبة الورق بالورقات الإحدى والخمسين الأُخرى. لقد كانت جميعها بالية جداً وبحوافٍ مُتآكلة وكان بالكاد يمكن التعرف على بعضها ثم أدخلتها في جيبي. رأيتُ وأنا ألُمُّ آخر ورقة أربعة خنافس بيضاء بست قوائم، أردتُ الإمساك بها ولكنها سارعت بالاختباء تحت أحد الأحجار.

دوَّتْ ضجة فرقعة من جديد وتكسَّرتْ أمواجٌ ضخمةٌ عند قدميَّ. كان الجوكر عندها في القارب يجدِّف من أجل أن يبتعد عن الشاطئ. خوضَّتُ في الماء من أجل أن أُدركَ القزم حتى بلغتُ مؤخرة القارب وارتقيتُ إلى سطحه.

- هكذا فإن ابن الفرَّان يريد أن يأتي معي أيضاً، كنتُ آمل مع ذلك أن أمضي وحيداً من هنا. قال الجوكر وهو يعطيني مجذافاً.

بينما كنَّا نجذف بكل قوانا غرقتْ الجزيرة في المحيط. أخذ الماء يفور ويدوِّم حول أشجار النخيل، وبينما كانت تختفي آخر نخلةٍ في الموج لمحتُ طائراً صغيراً جداً يطير من أعلاها.

لقد كان هذا يعني أن حياتنا قد أُنقذتْ. وهكذا نجونا بضربات المجاذيف من الدّوامة الجهنميّة التي جرفت الجزيرة. لمّا استطعنا أخيراً إعادة المجاذيف كانت يدايّ مخضبتين بالدماء ومع أن الجوكر كان قد جدّف كبالغ بحجم طبيعي إلا أن يديه كانتا بيضاوتين ونظيفتين مثلما كانت عليه ليلة البارحة عندما مدّهما لي أمام كوخ فرود.

نامت الشمس في البحر فتقاذفتنا الرياح على هواها كل الليل واليوم الذي تلاه. حاولتُ وعلى عدّة مرّات أن أفتتح حديثاً مع رفيق السَّفر ولكنني لم أنجح في أن أسحب منه كلمة واحدة تقريباً. لقد بقي هناك صامتاً بابتسامة سعيدة على شفتيه.

في وقتٍ مُتأخر من مساء اليوم التالي اكتشفتنا سفينة صيد لمدينة ارندل أصعدتنا على ظهرها. قصصنا عليهم بأننا قد كنّا على سفينة *ماريا* والتي غرقتْ بكاملها في حين أنه من المحتمل أن نكون نحن الناجيين الوحيدين.

كانت السفينة في طريقها إلى مرسيليا وعلى مدى الزمن المقطوع بقي الجوكر صامتاً. اعتقد البحارة بأنه شخصٌ عاديّ فتركوه بهناء. ما أن رسونا بالكاد في مرسيليا حتى قفز المهرج على الأرض واختفى في زقاقٍ بين مستودعين حتى أنه لم يقل لي كلمة وداع.

بعد عدّة شهورٍ من ذلك وصلتُ إلى هنا إلى دورف. لقد عشتُ مغامراتٍ عجيبةً جداً حتى أنه قد بدا لي بأنه قد لا يكون لديَّ ما يكفي من كل حياتي لأُفكّر بها. كانت دورف هي المكان الأمثل بالنسبة لي، وها هي الآن اثنتان وخمسون سنة بالتمام والكمال من قدومي إلى هُنا. إنه اتفاقٌ عجيب، أليس كذلك؟

لمّا رأيتُ بأنه لم يكن هناك فرّان فقد قرّرتُ أن أستقر هُنا وأفتتح مخبزاً صغيراً فقد كنتُ قبل أن أركب البحر صانع حلوياتٍ مُتدرب في لوبك. أشعر هنا فعلياً بأنني في وطني.

لم أقصَّ على أحدٍ أبداً ما قد عشته، وعلى أية حال فإن أحداً ما كان ليُصدِّقني.

بالتأكيد كان هناك لحظات راودتني فيها الشكوك أنا أيضاً حول كل تلك القصة عن الجزيرة المسحورة، ولكن عندما حططنا الرِّحال في مرسيليا كنتُ لا أزال أحملُ على كتفي الجراب الأبيض والذي حفظتُهُ هو ومحتوياته باهتمامٍ بالغٍ على مدى كل تلك السنوات.

زوج الكُبة

إنها موجودة بدون شك على شاطئ عظيم تتأمل البحر

رفعتُ عينيَّ عن الكتاب. كانت الساعة هي الثالثة والنصف بينما كانت البوظة التي قُدِّمتْ لي قد أخذت وقتاً طويلاً لتذوب في صحني.

ولأول مرّة تعبر ذهني فكرة مخيفة: لقد قال فرود أن الأقزام على الجزيرة المسحورة لا يهرمون مثلنا نحن الموجودات البشريّة. وإذا كان ذلك كذلك فلا بد أن يكون الجوكر موجوداً في مكانٍ ما من العالَم.

عادتْ إلى ذاكرتي الكلمات التي قالها لي والدي في ساحة سوق أثينا عن آثار الزمن. ولكن لم يكن للزمن قبضة على أقزام الجزيرة إذ حتى لو بدا عليهم بأنهم أحياءٌ تماماً فإنهم لم يكونوا موجوداتٍ من لحمٍ ودم مثلنا نحن فقد كانوا حصينين: إذ لم يُصب أي شخصٍ منهم بشظايا زجاج الأباريق والقناني التي حطّمها الجوكر أثناء الاحتفال الكبير، كما أن الجوكر نفسه لم يُصب بأي أذى بتدحرجه عن الجبل ولم يظهر على يديه أي أثرٍ للجهد الذي بذله لمّا جذّف بكل قواه للابتعاد عن الجزيرة؛ بالإضافة إلى هذا الشأن الصغير أيضاً: لقد ذكرَ هانس الفرّان في لحظةٍ ما بأن أيادي الأقزام هي دائماً باردة......

لقد أصابتني القشعريرة بسبب ذلك.

فكّرتُ بالقزم: هو أيضاً كانت يداه باردتين!

أكان من المحتمل أن يكون ذلك القزم الغريب الذي قابلناه في محطة الوقود هو نفسه من فرَّ بين المستودعات في مرسيليا منذ مئة وخمسين سنة؟ هل كان الجوكر شخصيًّاً هو من أعطاني العدسة المُكبِّرة التي استخدمتُها في القراءة والتي أظهرتْ لي دروب الكتاب؟

هل كان الجوكر هو من ظهر لي في حديقة الألعاب في كوم وعلى جسر البندقية وعلى العبَّارة المُتجهة إلى باتراس وفي ساحة سينتاغما في أثينا؟

لشدة ما أزعجتني تلك الأفكار كان مجرد النظر إلى البوظة الذائبة يخلق فيَّ إحساساً بالغثيان.

نظرتُ حولي. ما كنتُ لأدهش كثيراً لو رأيتُ انبثاق القزم هنا في البيري، ولكنني لم ألمح إلا والدي راجعاً وهو يجري. لم أفعل شيئاً سوى مُراقبة رأسه ففهمتُ أن الأمل في العثور على ماما قد تعزّز كثيراً.

لا أدري لماذا ولكني عاودتُ التفكير في آس الكُبة التي بقيتْ تتأمل البحر مُستحضرةً من هناك شاطئاً آخر على بُعد عدَّة سنوات وعدَّة كيلومترات مباشرةً قبل أن تصبح من جديد مجرَّد ورقة لعب.

- لقد استطعتُ معرفة أين ستكون عصراً. قال والدي وهو يلهث.

فهززتُ رأسي: في هذا تُعوِّضُ كل جهودنا.

- إنها موجودة بدون شك على شاطئ عظيم تتأمل البحر، أهذا هو؟ سألتُ.

كان والدي يجلسُ قُبالتي.

- هذا مُمكِنٌ جداً في الواقع، وكيف تعرف ذلك؟

فهززتُ كتفيّ.

حدّثني والدي عندها أنه سيتم التقاط صورٍ لها في خليج بحر ايجة في مكانٍ يُدعى رأس سونيون موجودُ عند الحافّة الجنوبيّة من شبه الجزيرة اليونانية على بعد سبعين كيلومتراً عن أثينا.

- في أقصى الخليج تماماً تقومُ آثارٌ فخمة لمعبد بوسيدون. تابعَ. لقد كان بوسيدون هو إله البحر عند الإغريق، وسوف تأخذ انيتا صورها أمام المعبد.

- « يلتقي الرجل من البلاد البعيدة بالمرأة الجميلة قريباً من المعبد القديم.» قلتُ.

تنهد والدي بصبر:

- ***بماذا تهذي الآن أيضاً؟***

- ***وحي دلف، فأنتَ من كان بايثي. قلتُ.***

- العمى هذا صحيح، آه. ولكنكَ تعرف أنني كنتُ أفكّر بالأحرى بالأكروبول عندما قلتُ هذا.

- يا للسماء. أنتَ ربما، ولكن ليس أبولون.

ضحك ضحكةً مفتعلة وجدتُ صعوبةً في تأويلها. ثم اعترفَ في النهاية:

- لا بد أن *بايثي* كانت في الغياهب ولم تعد تُدرك ما تقول.

هناك الكثير من الوقائع التي لا أتذكرها في هذا السفر الطويل، ولكنني لن أنسَ أبداً رحلتنا إلى رأس سونيون.

بعد أن تركنا وراءنا كل شواطئ جنوب ***أثينا حاذينا على اليمين*** البحر الأبيض المتوسط: الأزرق السماويَّ الجميل.

لم يكن باستطاعتنا أن نفكر بأي شيء آخر سوى بالصدمة التي كانت ستحدث من اللقاء تماما بعد كل تلك السنوات. حاول والدي أن يتناول بعض الموضوعات الأخرى بشجاعة فهو بدون شك لم يكن يريدني أن أتوهم أن الأمور ستكون على ما أحسن ما يرام حتى أنه سألني ما إن كانت هذه العطلة قد أعجبتني. ثم أضاف:

- كنتُ أُفضِّل أن آخذك بالسفينة إلى رأس هورن أو إلى رأس الرجاء - الصالح ولكن هذا ما حصل وبدلاً من ذلك ها نحن ذا في الطريق إلى رأس سونيون.

كانت المسافة طويلة جداً بما يكفي لتبرير استراحة- تدخين. توقفنا على الطريق الساحليّ في منظرٍ يُذكِّرُ بجمال القمر وأصغينا إلى البحر في الأسفل وهو يتكسَّر على الصخور التي كانت تتراخى عليها نباتات عروس البحر المائيّة المترنحة مثل حوريات بحر مُتكاسلة. كانت زُرقة البحر صافية جداً وشفَّافة حتى أن هذا الكمَّ من الجمال قد جعل عينيَّ تغرورقان بالدموع. كان لدي انطباع بأنني أرى على عُمق عشرين إلى ثلاثين متراً، ولكن والدي أكّد بأن ذلك لا يمكن أن يزيد عن سبعة إلى ثمانية أمتار على أكثر تقدير.

هذا باختصار ما يُلخِّص حديثنا. لقد كانت هذه الاستراحة وبدون مُنازع هي الأكثر صمتاً في رحلتنا كلها.

من بعيد، بعيدٍ جداً لمحنا على يميننا أطلال معبد بوسيدون تشمخ بجلالٍ فوق الخليج.

- ماذا تظن الآن؟ سأل والدي.
- أتسألني ما إن كانت هُنا أم لا؟

- نعم من بين أشياء أُخرى. أضاف.
- أنا أعرف بأنها هُنا وأعرف بأنها ستعودُ معنا إلى النرويج. أضفتُ.

فانطلقَ بضحكةٍ صاخبة.

- لا شيء أكثر بساطة من هذا يا هانس- توماس، هي لم تهجر عائلتها لتترك نفسها تعود بهدوء من جديد إلى حضن الأُسرة بعد ثمان سنواتٍ من الغياب.
- ليس لديها الخَيار. قلتُ.

أكملنا بقية الطريق صامتين وركنّا السيارة بعد ربع ساعة من ذلك عند أسفل المعبد الكبير.

كان علينا أن نشق طريقاً بين حافلات الركاب وموجٍ من السُّياح الإيطاليين. بعد أن تظاهرنا برغبة زيارة المعبد مثل الآخرين دفعنا بضعة مئات من الدراخمات من أجل الدخول.

لما وصلنا إلى أرض المعبد أخرج والدي مشطاً وفَرَدَ قبعة القش المُضحكة التي اشتراها من دلف.

ثلاثة الكُبة

سيدة أنيقة جداً تضع قبعة حافتها عريضة

انطلاقاً من تلك اللحظة تسارعتِ الأحداث على نحوٍ لا أزال أجد صعوبةً في تنسيقها في مجموع مشاعري. اكتشفنا أنا ووالدي في أقصى الموقع بعض المصورين ومجموعة صغيرة من السُّياح. ولّما اقترينا أكثر ميزنا بدقة أكبر

سيدة أنيقة جداً تضع قبعة حافتها عريضة ونظّارات شمسيَّة وفستان طويل بلون الجارنك. لقد كانت هي من أثار كل هذا الاحتشاد.

- إنها هي قال والدي.

تجمَّد في البداية مثل تمثال ولكنني عندما أردتُ الاقتراب منها حزم أمره على أن يلحق بي رغم كل شيء.

- هيَّا، سنقوم باستراحة صغيرة. صحتُ بالمصورين الذين التفتوا مباشرةً على نبرة صوتي رغم أنهم لم يفهموا شيئاً مما قلتُ.

أتذكر أنني كنتُ غاضباً قليلاً فيا ما شاء الله: وجدتُ كل هؤلاء الناس يراقبون ويصوِّرون ماما بكل تفاصيلها أما نحن فها هي ثمان سنواتٍ مضت ولم نلمحها فيها مجرد لمحة.

كان دور ماما عندها لتتجمد في مكانها. نزعتْ نظارتها الشمسيَّة ونظرتْ إليَّ عن بعد حوالي عشرة أمتار. نقلتْ عينيها صوب أبي قبل أن تعيد تثبيتهما عليَّ من جديد.

لقد كانت مختلفة كثيراً عن كل ما كنتُ قد تصورتُهُ، لقد كانت غريبة ومع هذا فقد أدركتُ أنها كانت ماما إذ يشعر الطفل بغريزته بهذا النوع من الأشياء. وقد وجدتُها جميلة فوق حدود المعقول.

تواصل بقية المشهد كما في فيلمٍ مُصَوَّر بتصويرٍ بطيء. على الرُّغم من أنها تعرَّفتْ على والدي مباشرةً إلا أنها ركضتْ نحوي. فبقيتُ مُنْغَمَّاً لبضعة ثوان لفكرة أن يشعر والدي بأنه قد تم تجاهله.

عندما صارت قريبةً مني ألقتْ بقبعتها بعيداً وأخذتني بين ذراعيها . كانت تفضل أكثر لو رمت بي في الهواء ولكن لم يكن لديها القوة الكافية لفعل ذلك . لقد حُرِمنا من هذه الأشياء لثماني سنوات ولم أعُد أنا ذلك الطفل الصغير ، وهكذا ضمتني بكاملي إليها وهي تشدُّ عليّ بقوة .

لا زلتُ أتذكر تلك السعادة للعثور على رائحتها من جديد بعد العديد من السنوات . لقد كنتُ أسعد من مَلِك! سعادة لا علاقة لها أبداً بتلك التي نشعر بها عندما نأكل أو نشرب شيئاً لذيذاً ؛ لقد كان إحساساً بحبورٍ انتشر في كل جسدي .

- هانس- توماس . غمغمتْ عدّة مرّات قبل أن يخنقها النحيب .

لقد كانت تلك هي اللحظة التي اختارها والدي ليدخل إلى المشهد ، تَقدَّمَ عدّة خطوات منّا وقال :

- لقد قطعنا أوروبا كُلها لكي نعثر عليكِ . . .

لم يكن لديه الوقت ليُكمل (عبارته) حتى ارتمتْ ماما على عنقه وهي تبكي بكل دموع جسدها .

ما كان يمكن للمصورين والسُّياح- الذين شاهدوا ذلك المشهد المؤثر مندهشين - أن يتنبأوا أننا احتجنا قروناً حتى التقينا من جديد .

بعد لحظات تمالكتْ ماما نفسها من جديد وعادتْ لتقوم بالعرض . هتفتْ ببعض الكلمات اليونانيّة للمصورين الذين هزوا أكتافهم وأجابوها بلهجة جعلتْ ماما تستشيط غضباً . تلا ذلك ***نقاشٌ حام*** إلى أن أدركَ المصورون بأنهم مُجبرون على الابتعاد فحزموا أشياءهم وتركوا المكان حتى أن أحدهم أخذ القُبعة التي رمتها وهي تركض للقائي . وقبل أن يرحلوا نهائياً قام أحدهم بشتم ماما بعنفٍ شديد وهو يشير بإصبعه إلى ساعته .

ها نحن الثلاثة وحدنا في النهاية. كُنا مُرتبكين قليلاً وقد مرَّتْ اللحظة الأولى وكان من الصعب معرفة كيف نبدأ من جديد بعد العديد من السنوات.

كانت الشمس عندها منخفضة جداً في الأفق و تلمع تحت قبة معبد بوسيدون القديم وكانت الظلال الممتدة للأعمدة تستلقي على الأرضية. لم أشعر في العمق بأية دهشة لاكتشافي قلب صغير أحمر موشًّى على فستان ماما.

تجولنا نحن الثلاثة وقتاً طويلاً في الموقع وأدركتُ أننا لم نكن أنا وماما فقط من يحتاج للوقت لكي يفهم الواحد الآخر بشكلٍ أفضل. فلم يكن من السهل كذلك على بحارٍ عتيقٍ من ارندل أن يجد صوته فقط ليتناقش مع عارضة أزياءٍ ذائعة الصيت تعيش في اليونان منذ سنواتٍ طويلة وتتكلم اليونانية بكل طلاقة، كما أن ذلك ما كان ليكون بمثل تلك السهولة بالنسبة لها هي أيضاً. كانت ماما تتحدث عن معبد نصف الإله بينما كان والدي يتحدث عن البحر راوياً بأنه قد اجتاز شساعة رأس سونيون من أجل الوصول إلى استانبول.

قرَّرنا أن ننطلق من هناك عندما اختفت الشمس في الأُفق ناحتةً ظلاً للمعبد. تخلفتُ قليلاً إذ كان على والديَّ، اللذين قد ابتعد أحدهما عن الآخر منذ وقتٍ طويلٍ جداً، أن يُقرِّرا وحدهما ما إن كان هذا يعني لقاءاً عابراً أو صفحةً وقد طويت نهائياً.

وعلى أيـة حال فقد كانت ماما مُضطرةً تماماً أن ترجع إلى أثينا معنا بالسيارة لأن المصورين لم يتفضلوا بانتظارها في الكراج. فتح والدي باب الفيات كما لو كان يفتح باب رولز- رايس مُخصصة لزوجة رئيس.

قبل أن يُشَغِّل والدي (السيارة) تحدثنا أيضاً عن أشياء لا رابط بينها ثم انطلقنا نحو أثينا. طلب مني والدي عند أول قرية أن أُمسك بزمام الأمور بشكلٍ ما وأن أقود المناقشة.

في أثينا وبعد أن صارت السيارة في كراج الفندق بقينا زمناً على الرصيف بدون أن نقول شيئاً. صحيح أننا تحدثنا بدون توقف منذ أن غادرنا معبد بوسيدون، ولكن لا والدي ولا أنا نفسي كنا قد تجاسرنا بعد على مُقاربة الموضوع الذي كان يهمنا حقاً.

استجمعتُ شجاعتي رغم كل شيء وكسرتُ الصمت قائلاً:

- حسنٌ. ربما قد حان الوقت الآن من أجل وضع خطة للمستقبل.

مرَّرتْ والدتي ذراعها حول كتفيّ بينما بالكاد نجح والدي فقط في التلفظ ببعض التُّرهات من قبيل: أنه لا يجب أن يكون هناك شيءٌ عاجل وأن كل شيء في وقته.....

بعد شيءٍ من التردد كان يجب تقرير ما إن كنا سنحتفل باللقيا من جديد على شرفة الفندق بشرب شيءٍ منعش. أشار والدي إلى النادل وطلب قنينة ليمونادة للأب والابن وأفضل زجاجة شمبانيا من أجل السّيدة. لم يعد النادل يفهم بالفعل شيئاً من هذا أبداً فقال:

- أولاً أنتم تحتفلون، والآن ها أنتما الاثنان متعقلان! هل استنتج من هذا أن هذا المساء هو على شرف السيدات؟

وبما أن أحداً لم يتكرم ويجيبه فقد اتجه صوب البار بطلبيته. ماما والتي لم تفهم كل تلك التلميحات ألقت بنظرة متعجبة على والدي، ولكن بدا عليها أنها ضاعت تماماً لمّا تسّمر هذا الأخير آخذاً هيئة الجوكر.

استُؤنِفتِ المحادثة فتحدثنا على مدى ساعة عن أشياء وأشياء بدون أن ننجح في الإفصاح عن عمق أفكارنا. اقترحتْ ماما في النهاية أن أذهب لأنام وأتركهما قليلاً لوحدهما. لاحظتُ أول تدخلٍ لها في تربيتي التي أهملَتها- وهذا أقل ما يمكن قوله- لمدة ثماني سنوات.

أصرَّ والدي على أن أفعل «ما قالته» ففهمتُ في النهاية أن حضوري يُضايقهما. في العمق كان عليهما هما أن يُعالجا مشكلتهما وما كان لي إلا أن أُعقّدَ الوضع.

قبّلتُ ماما طويلاً والتي وشوشتني في أُذني أنها كانت ستصحبني في صباح اليوم التالي إلى عند أفضل صانع حلوى في المدينة. كنتُ سعيداً بمعرفة أن هناك سراً صغيراً بيننا أنا وهي....

خلعتُ ملابسي وهرعتُ إلى الكتاب والذي لم يتبقَ منه سوى بضع صفحاتٍ لأقرأها.

أربعة الكُبة

كما أننا لا نعرف كذلك من يقوم بتوزيع الورق.....

ترك هانس- الفرّان عينيه في اضطراب الذكريات. كانت عيناه تلمعان بينما كان يستحضر الجزيرة المسحورة، ولمّا انتهى بدتا كما لو أن النار قد انطفأت فيهما.

كانت الحجرة المتواضعة غارقة حتى نصفها في ظلٍ خفيف. كان الليل قد حلَّ منذ وقتٍ طويل ولم يبقَ في الموقد إلا بعض الجمرات. نهض هانس الفرّان

لمرّة أُخيرة ليذكي النار التي كانت مُستعرة منذ وقتٍ مبكر من المساء فاجتاح الحجرة وميضٌ قوي جاعلاً الأسماك الحمراء وكل تلك الأشياء الغريبة المُكدَّسة هناك تبرق.

بقيتُ ثابتاً تماماً طيلة كان الفرّان العجوز يسرد حكايته بدون أن أُضيِّع كلمة واحدة من قصته. وما أن انتهى من الحديث عن لعبة ورق فرود حتى استطعتُ عندها فقط أن أسترد أنفاسي ولشدة ما فوجئت بإصغائي له وأنا فاغرٌ فمي على وسعه. لم أجرؤ على مقاطعته مرَّة واحدة إذ أنني كنتُ أعرف بأنه لن يبوح لي بأسراره إلا مرّة واحدة.

- وهكذا عاد فرود إلى أوروبا رغم كل شيء. ختم وهو ينظر إلى آخر لهبٍ في الموقد.

هل كان يوجه كلامه إليّ أم كان يتحدث إلى نفسه؟ لم أكن أفهم دائماً معنى عباراته.

- أتفكر في أوراق اللعب؟ سألتُ.

- نعم فيها أيضاً.

- أهي حقاً أوراق لعب فرود الموجودة فوق في السقيفة، أليس كذلك؟

أشار الرجل الكهل بإشارة نعم ثم ذهب إلى غرفته وعاد بالعلبة الصغيرة في يده.

- هذه هي لعبة ورق فرود *يا ألبرت*.

وضع العلبة أمامي فأخذ قلبي يخفق بكل شدّة عندما أخرجتُ الأوراق من العُلبة بلطف وكشفتها على الطاولة. كانت أربعة الكُبة في أعلى الرزمة. تفحّصتُ بعناية كل ورقة الواحدة تلوالأُخرى؛ كان الدهر قد أكل وشرب على

الألوان حتى أنني كنتُ أجد صعوبة بعض الأحيان في تمييزها. في المقابل كان من السهل تمييز بعضها مثل شب الديناري وشيخ البستون وزوج السبات وآس الكُبة.

- هل كانت هذه هي نفس تلك الأوراق.... التي عاشت حُرَّة طليقة على الجزيرة؟ دمدمتُ.

أشار لي من جديد بقول نعم.

ففهمتُ أن كل ورقة كنتُ أحملها بيدي كانت تُمثِّلُ شخصية حية. وأنا أنظر إلى شيخ البستون على ضوء النار تخيلتُه على هيئة قزم يتجول في حديقةٍ وسط الزهور والأشجار. بينما بالنسبة لآس الكُبة أوَلم تقل هي في إحدى اللحظات بأنها لا تُمثِّلُ جزءاً حقيقياً من لُعبة الصبر هذه؟

- لا ينقصُ إلا الجوكر! قلتُ بعد أن تحققتُ من أن هناك اثنتين وخمسين ورقة في اللُعبة.

وافق هانس الفرَّان على ذلك قائلاً:

- لقد تبعني إلى «لُعبة الصبر الكبيرة» هل تفهم يا بني؟ فنحن أيضاً لسنا إلا أقزاماً يعيشون في الهواء الطلق كما أننا لا نعرف كذلك من يقوم بتوزيع الورق.

- هل تعتقد..../أنه لا يزال يحيا عابراً العالَم؟

- بالتأكيد يا ولدي، فلا شيء ولا أحد في العالَم يستطيع أن يُهاجم الجوكر.

كان هانس الفرَّان لا يزال يُراقب النار. كان ينعكس عن ظهره ظلٌّ أسود جعلني فجأةً خائفاً قليلاً. تذكَّرْ أنني كنتُ بالكاد قد بلغتُ الثانية عشرة وربما

كان والدي ينتظرني في المنزل ليُقرِّعني بعنف لأنني أمضيتُ الأمسية عند هانس وعدتُ مُتأخراً رغم أنه لم يعد يهتم بي فعلياً منذ وقتٍ طويل جداً. لا بد أنه كان نائماً في مكانٍ ما من القرية بعد أن بالغ في شرب الخمر.

كان هانس الفرّان هو الشخص الوحيد الذي أستطيع الاعتماد عليه في حياتي.

- لا بدَّ أنه لم يعد شاباً تماماً. اعترضتُ.

فهز هانس رأسه:

- ولكن هل نسيتَ ما قُلتُهُ لكَ؟ إن الجوكر لا يهرم مثلنا نحن.

- ولكن...... هل رأيتَهُ من جديد منذ أن عُدّتَ إلى أوروبا؟ سألتُ.

- أشار هانس الفرّان بإشارة خفيفة من رأسه:

- مرّة واحدة..... لقد كانت بالكاد منذ ستة أشهر. رأيتُ طيفه الصغير ينبثق في الشارع أمام المخبز مباشرةً، ولكن في الوقت الذي استغرقه خروجي من المحل كان كما لو أن الأرض قد ابتلعته. وعندها دخلتَ أنتَ إلى القصة يا البرت. فمن عصر ذلك اليوم سُعِدْتُ بحمايتكَ وبتأديب بعض الأولاد الفاسدين القبيحين الذين كانوا يُسمِّمون حياتك. لقد كان ذلك يوماً استثنائياً تماماً فقد كان قد مضى في الواقع اثنتان وخمسون سنة بالضبط منذ غرق جزيرة فرود في البحر.... لقد حسبتُ وأعدتُ الحساب..... فتشكّلتْ عندي القناعة بأننا قد التقينا لأول مرّة في أحد أيام الجوكر.....

نظرتُ إليه وأنا مُفاجأٌ تماماً فسألتُ:

- وهل لا يزال التقويم القديم معمولاً به؟

- يمكن القول نعم يا بني. لقد فهمتُ في ذلك اليوم أنكَ أنتَ هو الولد الذي قد فقد أمه ومن أجل هذا جعلتُكَ تتذوق من الشراب اللامع وأريتُكَ الأسماك الحمراء....

لقد انعقد لساني من الذهول فقد فهمتُ عندها فقط أن بعض عبارات الأقزام أثناء حفلة الجوكر كانت تخصني مباشرةً فكان عليّ أن أبتلع ريقي.

- و..... وما هي بقية القصة؟ سألتُ.

- أوه، لم أسمع كل العبارات أثناء حفلة الجوكر، ولكن يبدو أننا نحن البشر نحتفظ بذاكرتنا بكل ما نسمع حتى إن اعتقدنا أننا لن نتذكره إذ يمكن أن ينبثق كل شيء بين لحظةٍ وأُخرى. فعلى سبيل المثال تذكرتُ قبل قليل وأنا أُؤجج النار ما قالتاه أربعة الكُبة و أربعة الديناري عن ذاك الفرّان الذي يعرض على ولدٍ يافع الشراب اللامع والسمكات الحمراء.

- بجد؟

فألقى هانس الفرّان:

- «يهرم الولد ويصبح له شعرٌ أبيض. ولكن وقبل أن يموت يصل الجُندي التعِس من بلاد الشمال.. يسهر الجندي على سر الجزيرة المسحورة.»

بقيتُ بدوري أراقب النار باضطراب.

كنتُ مملوءاً بالاحترام لسر الحياة- وبسبب عبارةٍ واحدة انهارت حياتي كلها: لقد فهمتُ أن هانس كان سيموت وأنني سأحل محله هنا في دورف، وسأصير من يومها حافظ سرِّ الليموناضة الأرجوانية والجزيرة المسحورة، وسأمضي بقية عمري في هذا الكوخ، وسأتعلم كيفية الاعتناء بالأسماك حتى

ذلك اليوم الذي.... يصل فيه الجندي التعس من بلاد الشمال. ولكن ذلك ما كان ليكون بين ليلةٍ وضحاها فقد فهمتُ أنه كان يتوجب عليّ أن انتظر اثنتين وخمسين سنة قبل أن يصل فرّان دورف الجديد .....

- لقد كوَّنتِ الأسماك الحمراء أيضاً سلسلة طويلة من الأجيال. إنها تعود إلى تلك التي أحضرتُها معي من الجزيرة. شرح هانس الفرّان. يعيش بعضها لعدة أشهرٍ فقط وأُخرى لعدّة سنوات. و من المُحزن جداً في كل مرَّة أن ترى إحداها تتوقف عن القفز في الوعاء إذ ولا واحِدة منها تشبه الأُخرى: حتى السمكة الصغيرة هي موجودٌ لا يمكن تعويضه ومن أجل هذا أدفنها واحدة فواحدة في الغابة وأضع حجر أبيض صغير على القبور الصامتة لأنني أجد أن كل واحدة منها تستحقُ نوعاً من شاهدة القبر والتي هي مادة أكثر مقاومة وأكثر بقاءً من الأسماك. هذا هو سرُّ السمكات الحمراء يا ألبرت.

بعد عدّة سنوات ينطفئ هانس الفرّان بعد سنة واحدة من موت والدي الأمر الذي سمح لهانس الفرَّان أن يتبناني وان يترك كل شيء باسمي. كانت آخر كلمات الرجل العجوز الذي كان غالياً جداً على قلبي هي: « ***لم يعرف الجندي أن الصبيّة التي ألمّ بها العار كانت مجزوزة الشّعر وأنها أنجبتْ طفلاً صغيراً جميلاً.*** »

عرفتُ أن ما سمعته حينها كان إحدى العبارات الناقصة من لعبة الجوكر وقد عبرتْ وعيه فجأة في لحظة موته.

رفعتُ عينيّ عن الكتاب حوالي منتصف الليل عندما طرق والدي باب الغرفة.

- إذن هل ستعود معنا إلى ارندل؟ سألتُه قبل حتى أن يجتاز عتبة الباب.

- سوف نرى. اكتفى بالقول بابتسامة غامضة.

- على أي حال فإن ماما ستأخذني غداً إلى صانع الحلويات. دسستُ هذه الكلمات كمناسبة لأؤكد بأنها لن تتسلل من بين أصابعنا مثل حُلم جميل.

أخذ والدي نَفَسَاً مسموعاً وقال:

- سوف تنتظركَ في الأسفل في صالة الاستقبال عند الحادية عشرة. لقد قبلتْ الهانم أن تُلغي ارتباطاتها الأُخرى كلها.

وجد النوم صعوبة كبيرة في أن يعرف سبيلاً إلينا في تلك الليلة أنا ووالدي. كان آخر شيء قاله لي، اللهم إلا إذا كان يُحدِّثُ نفسه هو:

- لا بد من وقتٍ لإعادة توجيه السفينة بعد أن تكون قد غادرتْ......

- إن هذا ممكن ولكن القدَر إلى جانبنا. قلتُ.

خمسة الكُبة

كان هذا يعني عدم الانسياق في التأثر وتجنب كل حنين سابق لأوانه....

حاولتُ مع استيقاظي أن أتذكر على وجه الدقة آخر عبارة نطق بها هانس الفرّان قبل أن يموت مباشرةً حول تلك المرأة التي جزّوا شَعرها، ولكن والدي أخذ يتقلب في سريره،وباختصار كان نهاراً جديداً قد بدأ.

بعد الفطور وجدنا ماما في قاعة الاستقبال. عاد والدي إلى الغرفة وهو خجولٌ قليلاً إذ أصرتْ ماما أن نذهب إلى صالة الشاي الشهيرة تلك بدونه، ولكن كان من المُتفق عليه أن يوافينا والدي إلى هناك بعد بضع ساعات.

غمَزتُه وأنا أنطلق لأُذكره بنهار البارحة ولأُشير له أنني سأفعلُ أقصى المستطاع من أجل أن أُعيد ضالّتنا الغالية إلى المنزل.

بعد أن طلبنا شيئاً لنشربه وكل أنواع الحلويات نظرتْ إليّ ماما حينها بأعمق نظراتها وقالت :

- أعتقد يا هانس- توماس أنكَ لا تزال غير عارف لماذا رحلتُ أنا؟

لم أترك نفسي لأسقط في مقدمةٍ كهذه فسألتُ بدوري :

- وهل يعني هذا أنكِ تعرفين أنتِ نفسكِ لماذا؟

- في النهاية..... ليس تماماً . اعترفتْ .

ولكنني لم أكن لأقتنع بنصف اعتراف فقلتُ :

- نجد صعوبةً في فهم كيف استطعتِ حزم حقيبة سفركِ تاركةً رجُلاً وطفلاً . وكل هذا من أجل بعض الصّور البائسة في مجلة موضة يونانية ......

حُمِلَتْ إلينا القهوة والليمونادة وكل الحلويات، ولكنني بقيتُ رابط الجأش فتابعتُ :

- إذا كنتِ تظنين جدياً أنكِ قادرة على أن تشرحي لي لماذا، وعلى مدى تلك السنوات *الثمان*، لم تُرسلي حتى بطاقة بريدية إلى ابنكِ فسوف تتفهمين تماماً كيف يمكن لي أنا أيضاً أن أقول لكِ « إلى اللقاء » وأترُككِ فجأةً مع قهوتكِ .

انتزعتْ نظارتها الشمسيَّة ومسحتْ عينيها . لم تسِل أية دمعة ولكنها ربما تظاهرتْ بذلك لتنقذ هيبتها .

- ليست الأمور بهذه السهولة، أنتَ تعرف ..... قالت بينما كان صوتها على وشك أن يتكسَّر .

فقلتُ :

- في السنة ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً . مما يعطي في ثماني سنوات ألفين وتسعمئة وعشرين يوماً هذا بدون حساب السنوات الكبيسة . حتى في

٢٩ شباط لم أحصل على أي خبر (كما لو كنتُ ميتاً). بالنسبة لي لا شيء أبساط من هذا وصدّقيني أنا أعرف الرياضيات جيداً.

أعتقد أن قصة السنوات الكبيسة كانت هي الضربة القاضية. لقد عرفتُ أن أدُسَّ بمهارةٍ كبيرةٍ تاريخ ميلادي وكان هذا كثيراً جداً عليها؛ فأخذت يدي بين يديها وراحت تنتحب مثل نافورة. لم تعد بحاجة أن تتصنع ذلك عندها. ثم سألتني:

- هل تعتقد أنكَ تستطيع أن تسامحني في يومٍ من الأيام يا هانس- توماس؟

- هذا يتوقف على .... أجبتُ. أولم تسألي نفسكِ كم من الوقت يتسع لصبي أن يمارس ألعاب الصبر في ثماني سنوات؟ ليس عندي رقمٌ أكيدٌ ولكن صدّقيني أنه سيكون رقماً عظيماً. من فرط اللعب وتصنيف الأوراق على عائلاتها التي قامت عندي في النهاية مقام عائلةٍ حقيقية. هكذا على سبيل المثال فإنني أُفكِّرُ في ماما ما أن أرى آس الكُبة مما يدل على أن هناك خطأً ما.

لقد قلتُ هذا عن آس الكُبة لكي أرى فقط ما إن كانت تعرف شيئاً ما عن الموضوع، ولكن بدت عليها الدهشة.

- آس الكُبة؟!

- نعم آس الكُبة. أولم يكن لديكِ البارحة قلبُ أحمر موشى على فستانكِ؟ والسؤال كله هو معرفة لمن يخفق هذا القلب.

- أرجوك يا هانس- توماس........

لم تعد تعرف ماذا تقول ولربما تخيلتْ بأنني أصبحتُ مجنوناً قليلاً في غيابها؟

- ما أودُّ قوله هو أننا وجدنا صعوبة أنا وبابا في أن نُكمِلَ عائلات لُعبة الصبر، وكل ذلك لأن آس الكُبة- والتي كانت ترتكب حماقة من حماقاتها في محاولة لإيجاد نفسها- لم تكن في مكانها أبداً في النتيجة....

لقد كانت مُضطربة بشكلٍ جذري.

- لدينا في منزلنا في هيسوي دُرجٌ مليءٌ بالجواكر، ولكن ذلك لم يساعد كثيراً فكان علينا أن نقطع أوروبا كلها من أجل العثور على آس الكُبة.

إن فكرة كل الجواكر استحضرتْ ابتسامة على شفتيها. فسألتْ:

- هل لا يزال يقوم بتجميع الجواكر؟

- هو نفسه واحد منها. أعتقد بأنكِ لا تعرفينه أبداً. إنه شخص مختلفٌ تماماً عن المجموعة، هل تفهمين؟ ولكنه قد بذل الغالي والرخيص في هذه الأوقات الأخيرة من أجل إخراج آس الكُبة من مغامرتها في عالَم الموضة. قلتُ.

انحنتْ من أجل أن تُداعب خدّي، ولكنني قمتُ بحركة تراجع، لقد كان هذا يعني عدم الانسياق في التأثر وتجنب كل حنين سابق لأوانه.

- أعتقدُ أنني فهمتُ ما تقصد بـ «آس الكُبة». قالت.

- هذا حسنٌ. أجبتُ. ولكن لا تقولي لي أنكِ تعرفين لماذا هجرتنا. فتفسير هذا السِّر الغامض في لعبة ورقٍ عجيبة وقديمة بأكثر من مئة سنة امّحتْ ألوانها.

- ماذا تريد أن تقول؟

- مكتوبٌ في أوراق اللعب أن تغادري إلى أثينا في يومٍ من الأيام لمعرفة من أنتِ. إن هذا يعني في الواقع نوعاً من اللعنة التي تُنيخ بثقلها على عائلتنا. تستطيع عرّافة أن تُعلمكِ عن هذا بشكلٍ جيد وكذلك بعض اختصاصيِّ فطائر الحلوى في بعض مخابز الألب.

- أوه أنتَ تهزأ مني يا هانس- توماس....

أشرتُ بلا وأخذتُ نَفَساً غامضاً. ألقيتُ نظرة من جميع الجهات ثم انحنيتُ فوق الطاولة وأنا أهمس:

- الحقيقة هي أنكِ متورطة في مغامرة خاصة جداً جرت في الواقع منذ وقتٍ طويلٍ جداً قبل أن تلتقي *الجدّة بالجدّ* في فرولاند بكثير. ومن جهةٍ أُخرى ليس من المدهش أبداً أن تأتي أنتِ إلى أثينا؛ فقد جذبكِ انعكاس صورتكِ إلى هنا.

- أقُلتَ « انعكاس»؟!

أخرجتُ قلماً وكتبت *انيتا* على منديلٍ ورقي.

- إقرأي الآن الكلمة بالمقلوب. رجوتها، علماً بأنها تعرف اليونانية بشكلٍ جيدٍ جداً.

- *اتينا* ...... قرأتْ. أوه، هل تعرف بأنكَ تكاد تخيفني بقصصكَ هذه كلها؟ أعترف لكَ أنني لم أفكر بهذا أبداً.

- بالتاكيد لا. قلتُ بلهجةٍ واثقةٍ جداً. هناك الكثير من الأشياء التي لم تفكري فيها ...... ولكن ليس هذا هو الجوهريّ الآن.

- ولكن ما الجوهريّ إذن يا هانس- توماس؟

- الجوهريّ هو أن تحزمي حقيبتكِ سريعاً، فأنا ووالدي ننتظركِ منذ أكثر من مئة سنة تقريباً ولو أردتِ معرفة كل شيء فإن صبرنا قد بدأ ينفد ......

في تلك اللحظة بالذات ظهر والدي عند الباب فرفعتْ ماما عينيها نحوه وباعدتْ ما بين ذراعيها بهيئة المستسلم وهي تسأله:

- ماذا فعلتَ به؟ إن هذا الولد لا يتحدث إلا بالألغاز.

- أنتِ تعرفين جيداً أن لهُ مخيلة واسعة جداً. قال والدي وهو يجلس. أما ما عدى هذا فإنه ولدٌ جيد جداً.

شعرت أن والدي قد تخلص من الموقف بشكلٍ جيدٍ جداً. ولكنه ما كان ليعرف أي تكتيك تبنيتُ لأُقنع ماما بأن تعود معنا. ثم قلتُ:

- هي لم تسمع حتى الآن إلا عيِّنة فأنا لم أقل لها بعد عن ذلك القزم الغامض الذي يتعقبنا منذ أن قمنا باجتياز الحدود السويسريَّة.....

ألقى والدي ووالدتي نظرة على بعضهما البعض يمكن القول أنها طويلة قبل أن يضيف والدي:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تحتفظ بهذا إلى ما بعد يا هانس- توماس.

لقد فهمنا نحن الثلاثة في ذلك الصباح أننا ما كنا لنحتمل أن نعيش سنواتٍ طويلة كل واحدٍ على حِدة وأننا كنا نشكّل عائلة فعلاً. من الواضح أنه لا بد وأنني نجحتُ في إيقاظ غرائز الأمومة لدى والدتي.

كان والدي ووالدتي يحتضن أحدهما الآخر كعاشقين شابيّنً في صالة الشاي تلك،ولكن بعد ذلك في النهار بشكلٍ خاص.لاحظتُ قبل حلول الليل أنهما قد تغازلا قبل ذلك، ولنقل إنهما قد قاما... بجولة. وهذا بذاته ليس بالشيء غير الطبيعي إذ كان عليهما أن يعوّضا ثماني سنوات، مهما يكن كان عليّ أن أُقدِّر أن أُدير رأسي عدّة مرّات.......

ماذا أقول أيضاً؟ هل من المفيد فعلاً أن أصف كيف صعدتْ ماما معنا إلى الفيات في النهاية؟

أعتقد أن والدي قد دُهش من أنها قد تمكنت من أن تترك نفسها لتقتنع بسرعة كبيرة، بينما كنتُ مُقتنعاً من جهتي أنه كان يكفي أن نجدها حتى نطرد

نهائياً ذكريات ثماني سنواتٍ بائسة مرّت في انتظارها. عليّ أن أعترف أنها بطلة في سرعة حزم حقيبة سفرها؛ هذا دون أن ننسى أنه كان عليها أن تفسخ عقداً، الأمر الذي كان يُعتبر جريمة فعلية في جنوب الألب. أكد لها والدي أنها سوف تجد دون عناء عروضاً أُخرى عندما تعود إلى النرويج.

كنا في سباق على مدى عدّة أيام من أجل إنهاء كل شيء ثم وجدنا أنفسنا ثلاثتنا في النهاية نعيد قطع المسافة ولكن بالاتجاه المعاكس هذه المرّة عابرين يوغسلافيا من أجل الوصول مباشرةً إلى إيطاليا من الشمال. كنتُ أجلس على المقاعد الخلفيّة كعادتي، ولكن هذه المرّة كان هناك راشدان اثنان من الأمام. من المستحيل ابتداءً من ذلك أن أقرأ بخفية إذ أن والدتي لم تتوقف عن الالتفات ولم أتجاسر أنا على تصور ما كان سيكون عليه رد فعلها لو اكتشفت *الكتاب*.

لمّا وصلنا إلى إيطاليا في وقتٍ مُتأخر من الليل أعطيت لي غرفةٌ وحدي الأمر الذي سمح لي في النهاية أن أواصل قراءتي دون أن أخاف أي إزعاج فقرأتُ إلى أن سقط الكتاب من يديّ.

ستة الكُبة

كان حقيقياً كالشمس والقمر.....

أمضى ألبرت الليل كله في رواية قصته وأثناء سرده تخيلتهُ عدّة مرّات عندما كان في الثانية عشر من عمره

أمضى وقتاً طويلاً يُراقب فيه النار وهي تنطفئ بهدوء كما لو أنه كان مفتوناً بالجذوات الأخيرة وبالرماد. لم أشأ أن أُقاطعه أثناء حكايته- مُقلداً بذلك الحالة التي كان عليها في تلك الليلة التي حدثه فيها هانس الفرَّان عن فرود وعن تلك الجزيرة العجيبة.

كان بإمكاني حينها أن أقف وأن أنظر عبر النافذة المطلة على دورف من علٍ. كان الفجر قد بزغ وطاف ضباب صباحي فوق القرية المتواضعة فكان بالكاد يمكن تمييز بحيرة ڤالديار بينما كانت الشمس ستبزغ ما بين لحظة وأُخرى من خلف الجبال.

كان عقلي مهاجماً بالأسئلة، ولكن لم أكن أعرف بأيها أبتدئ *فارتأيتُ* التزام الصمت. عدتُ لأجلس بجانب ألبرت الذي كان قد استقبلني بحفاوةٍ شديدة لمّا وجدني منهكاً أمام كوخه.

جعلني الدخان الأخير الذي كان يتصاعد من النار أُفكّر بضباب الصباح في الخارج.

- ستبقى هنا في القرية يا لودڤيغ. قال الرجل العجوز.

لقد قال هذه العبارة بتلك الطريقة التي لم أعرف ما إن كانت سؤالاً أم أمراً، وربما الاثنان معاً.

- بالتأكيد. قلتُ.

لقد فهمتُ منذ زمن أنني سأكون فرَّان دورف الجديد وكان ذلك ينطوي على أنني سأنقل سرّ الجزيرة المسحورة بدوري.

- ولكنني لم أفكّر بهذا. أضفتُ.

- وبماذا فكّرتَ إذن يا ولدي؟

- لقد فكّرتُ بلعبة الجوكر من جديد. فلو كنتُ أنا المقصود بذلك الجندي التعِس القادم من بلاد الشمال......

- حسنٌ؟

- فهذا يعني أنني قد ...... أنني قد تركتُ ولداً هناك. قلتُ وأنا أُخفي وجهي بين يديَّ وأجهش بالبكاء.

مرَّر الرجل المُسِن ذراعه حول كتفيَّ وقال:

- *إنها الحقيقة « لم يعرف الجندي أن الصبيّة التي ألمّ بها العار كانت مجزوزة الشّعر وبأنها أنجبتْ طفلاً صغيراً و جميلاً.»*

تركني لأبكي كل دموع جسدي ثم قال لي بلطف:

- ولكن هناك شيء لم أفهمه أبداً والذي ربما تستطيع أنتَ أن تفسره لي.

- آه، وما هو إذن؟

- لماذا كانت الصبية المسكينة مجزوزة الشعر؟

- لم أكن أعرف ذلك أنا نفسي حتى اليوم. قلتُ. كيف كان بإمكاني أن أعرف أنهم قد آذوها كثيراً؟ لقد سمعتُ أن هذا النوع من الأشياء يحدث أحياناً عند التحرير: فتفقد النساء اللواتي كنَّ مع جنود أعداء شعورهن وشرفهن كما يُقال. نعم، لم أسعَ إلى لقائها من جديد عندما عرفتُ هذا فقد قلتُ لنفسي بأنها ربما ستنساني في النهاية. ما كنتُ إلا لأزيد الطين بلّه لو سعيتُ للقائها. كنتُ أعتقد أن أحداً ليس على علمٍ بقصتنا، وقد كان هذا صحيحاً على أيِّ حال، ولكن عندما تنتظر طفلاً...... فعندها يكون من المستحيل إخفاء الحقيقة.

- أتَفَهَّمُ هذا. قال ألبرت وهو يراقب النار المنطفئة.

نهضتُ وذرعتُ الحجرة بعصبية، أكان يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ فكرتُ. فماذا لو كان ألبرت مخبولاً كما تتهامس ألسنة السوء في *Schöner Waldemar* في العمق لم يكن لديّ أي دليل على صدق أقواله إذ يمكن أن تكون كل تلك العبارات التي نطق بها على لسان فرود وهانس الفرّان محض اختلاقاتٍ لرجلٍ ذي عقلٍ مختل.

لم أكن قد ذقتُ شخصياً من أية ليمونادة أرجوانيّة ولم أكن قد رأيتُ كذلك أي أثرٍ للعبة ورقٍ عتيقة. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن أتمسَّكَ به هو بعض تلك الكلمات حول الجندي من بلاد الشمال، ولكن من يدري ما إذا كان ألبرت قد اخترع كل ذلك؟ بقيتْ تلك الصبية التي جُزَّ شَعرها قصاصاً والتي لم يكن يعرف عنها شيئاً. اللهم إلا إذا كنتُ قد تحدثتُ في نومي وقلتُ شيئاً حول هذا الموضوع؟ لقد كنتُ قلقاً جداً جداً ***حول أمر لين ..... وفكرة*** إمكانية أنها كانت حاملاً قد عادت وهاجمتني عدّة مرّات..... ولربما كانت هذه المقتطفات التي أطلقتها في نومي كافية لألبرت حتى يقوم بخلط كل شيء ويخترع قصته بكاملها. من جهةٍ أُخرى فقد سألني مباشرةً عن توضيحات عن المرأة المجزوزة الشَعر.....

ولكنني شعرتُ فعلياً أن ألبرت لم يُمض الليل كله ليروي لي الأكاذيب. كان لديه هو نفسه قناعة صلبة صلابة الحديد بما كان يقول، وربما كان ذلك بالتحديد هو الدليل على مرضه. ربما كان الحق مع أهل القرية عندما زعموا أن ألبرت رجل مجنون قليلاً يعيش في عالَمه الخاص.

منذ وصولي إلى القرية لم يتوقف عن مناداتي بـ «ابـني» ولا بـد أن يكـون هذا دون أدنى شك أحد مفاتيح قصته غير الواقعيَّة تلك. كان ألـبرت يرغب بابن شاب يستأنف عمل المخبز من بعده.

لقد كان هذا دون شك السبب الحقيقي الذي اختلق مـن أجله تلك القصة الملفقة العجيبة. لقد سمعتُ من قبل عن حالات من هذا النوع؛ والمقصود هنا أولئكَ المرضى الذين يتكشفون عن عبقريات حقيقيّة في بعض الميادين الدقيقة جداً ولا بد أن ألبرت كان من جهته صاحب مخيلة ممتازة في سرد المغامرات.

كنـتُ لا أزال أمـشي بـالطول وبـالعرض بينما بـدأت الـشمس تـصل إلى سفوح الجبل.

- أنتَ قلقٌ جداً يا ولدي. قال الرجل العجوز.

عدتُ لأجلس بجانبه فعاد إلى ذاكرتي كيف بدأ كل شيء تلك الليلة عندما تأخرتُ عشية البارحة في *Schöner Waldemar* حيث عاود فريتز اندري الحديث عن سمكات فرود الحمراء. لم أكن قد رأيتُ منها أنا إلا واحدة وقد وجدتُ أنه من الطبيعي تماماً أن يُزخرف الرجل العجوز محله وأن يكون له بعض الأصحاب . ولكن عندما رجعتُ مُتأخراً في إحدى المرَّات سمعتُ ألـبرت وهو يمشي على السقيفة وعندما صارحتُه بذلك أخذ يقص عليَّ كل شيء ......

وقد قلتُ له وقتها:

- هل كل تلك السمكات الحمراوات.... التي قلتَ لي أن هانس الفرَّان قد أحضر منها الكثير من الجزيرة المسحورة... لا تزال موجودة في دورف؟ أو لم يعد لديكَ منها إلا واحدة؟

التفتَ ألبرت نحوي ونظر في عينيّ بشكلٍ مباشر.

- إذن ليس لديكَ ثقةٌ كبيرةٌ جداً فيَّ يا ولدي؟

لقد كانت هذه هي كلماته الخاصة، ثم عبر ظلٌ فوق مُحيَّاه.

لقد كنتُ عجولاً أكثر من اللازم وربما ***كنتُ أفكِّرُ في لين كثيراً***. وهكذا هتفتُ به بنوعٍ من الحِدَّة:

- حسنٌ أجب: ماذا حلَّ بكل تلك السمكات الحمراوات؟

- تعال معي. قال.

نهض وذهب إلى غرفة نومه. لحقتُ به ورأيته يبسط سُلَّماً مُثبَّتاً في السقف. هذه الحركة قد قام بها أمامه هانس الفرَّان، وفقاً لحكايته، لمَّا كان لا يزال صبياً صغيراً.

- سوف نصعد إلى السقيفة يا لودفيغ. غمغمَ.

صعد أولاً وتبعتهُ. إذا كان ألبرت قد اخترع كل تلك القصة عن فرود وعن الجزيرة المسحورة فلا بد أن يكون فعلياً مريضاً جداً.

ولكن ما أن تمكنتُ من إلقاء نظرة على السقيفة حتى أدركتُ بأن كل ما قصّه ألبرت عليّ كان حقيقياً كالشمس والقمر. كانت السقيفة تفيض بالأحواض المليئة بالأسماك والتي كانت تعكس كل ألوان قوس قُزح. كما كان هناك كل أنواع الأشياء غير المألوفة بعضها أكثر من بعضها الآخر. تعرفتُ، بشكلٍ عشوائي، على تمثال بوذا والتمثال الزجاجي الذي كان يُمثِّلُ أحد تلك «المولوك» الشهيرة ذات القوائم الست، وعلى السيوف والخناجر والكثير من الأشياء الأُخرى التي كانت موجودة في الصالون قديماً عندما كان ألبرت لا يزال ولداً صغيراً.

- هذا ... هذا .... لا يُصَدّق! قلتُ مُتلعثماً وأنا أقوم بأولى خُطواتي إلى منتصف معرض التُحف الأُسطوري ذاك.

لم أكن أُفكِّرُ بالأسماك الحمراء فحسب عندما قلتُ ذلك بل حصلتُ في النهاية على الدليل أن كل تلك القصة عن الجزيرة المسحورة كانت حقيقيَّة.

كان ضوء الصباح المائل إلى الزُرقة يدخل عبر كوَّة. ما كانت الشمس لتلمع أبداً عند منتصف الظهيرة من ذلك الجانب من الوادي ولكن ومع هذا فقد كان هناك انعكاسُ ذهبيٌّ على جدران السفينة وما كان لهذا الضوء أن يأتي من الخارج.

- هناك. همسَ ألبرت وهو يُشير بإصبعه إلى زاوية جدارٍ منحنٍ.

رأيتُ عندها زجاجة عتيقة تُشّعُ بضوءٍ مُركّزٍ جداً حتى أن كل الأسماك الحمراء والأشياء التي كانت في الحجرة كانت تُغير أشكالها بسببها.

- هذه هي الليمونادة الأرجوانيّة يا ولدي. لقد مضتْ اثنتان وخمسون سنة ولم يذق منها أحد ،ولكننا سننزل ونأتي بها معنا إلى الصالون.

انحنى ورفع الزجاجة وبما أنه قد أمالها بخفة فقد رأيتُ جمال السائل في داخلها بحيث امتلأت عيناي منه بالدموع.

كنا على وشك معاودة النزول عندما لمحتُ لعبة الورق العتيقة في علبة من الخشب.

- هل أستطيع ..... أن أنظر إليها؟ سألتُ بصوتٍ مرتجف.

أشار لي الرجل العجوز بنعم بشكلٍ احتفالي جداً وأخذتُ الأوراق المُستهلكة العتيقة في يديّ: رأيتُ ستة الكُبة وزوج السبات وبنت البستون وثمانية الديناري. عددتُ الأوراق باضطراب فكانت تنقص واحدة.

- لا يوجد هنا إلا واحدة وخمسين. قلت.

فاستدار الرجل العجوز وقال وهو يشير إلى طبلية قديمة:

- أُنظر هناك.

التقطتُ الورقة التي كانت قد انزلقت فوقها ووضعتُها من جديد مع الأوراق الأُخريات. لقد كانت آس الكُبة.

- إنها لا تني تضيع، ولكنني أجدها دائماً في النهاية.

أعدتُ وضع الأوراق في العُلبة ونزلنا من جديد على السُّلم. بوصولنا إلى الصالون ذهب ألبرت واحضر قدحاً صغيراً للخمر ووضعه على الطاولة.

- أنتَ تعرف ماذا سيحدث. قال.

فوافقتُ.

لقد كنتُ الرجل الجديد الذي كان سيتذوق من هذا الإكسير المقدس. كان ألبرت أيضاً قد وُجِدَ في مكاني منذ *اثنتين وخمسين* سنة وقبله كان هانس الفرّان الذي تذوق منها ولأول مرّة على الجزيرة المسحورة.

ذكّرني الرجل الكهل:

- ولكن لا تنسَ بأنه ليس لكَ الحق إلا بجرعة واحدة ومن ثم يجب الانتظار إلى أن تكتمل لعبة صبر بكاملها قبل أن يُنتَزع غطاء الزجاجة مرّة جديدة وهكذا سوف تكفي هذه القنينة لعدّة أجيال.

- صب قليلاً في قاع الكأس وقال وهو يمده لي:

- تفضل أرجوك.

- لا أعلم ..... ما إن كنتُ أجرؤ. قلتُ.

- ولكنكَ تعرف أنكَ مجبرٌ على هذا. ردَّ ألبرت. فيما لم تفِ قطرات هذا المشروب بوعودها فإن ألبرت لن يكون إلا عجوزاً خَرِفاً مريضاً يخدعكَ بقصصه حتى تنام واقفاً وأنا لا أريد أن يُبَكِّتني ضميري على ذلك، هل تفهم؟ حتى ولو لم يراودكَ الشك في هذه اللحظة فسوف يأتي الشك في يومٍ أو آخر ومن أجل هذا عليكَ أن تحسَّ بطعم هذه القصة، إذا صحَّ المعنى، في كل جسدك. فقط بثمنٍ كهذا يمكن أن تصبح فرّان دورف المستقبلي.

رفعتُ الكأسَ إلى شفتيّ وتركتُ القطرات تنزلق في فمي..... بالكاد مرَّت بضع ثوانٍ حتى جُرفَ جسمي بكامله في زوبعة أحاسيس وطعوم. ظننتُ لحظتها أنني موجود في كل ساحات أسواق العالَم. في هامبورغ كنتُ أقضم حبة طماطم وفي لوبك كنتُ التهم لُب أجاصة بملء فمي وفي زيورخ كنتُ أقرشُ عنباً وفي روما أكلتُ تيناً وفي أثينا لوزاً وجوزاً وفي القاهرة بلحاً. هذا إذا اكتفيتُ بذكر هذه الطعوم فقط فبعض المذاقات كانت غريبة جداً عليّ حتى أنني اعتقدتُ للحظة أنني موجود بشحمي ولحمي على الجزيرة المسحورة وأنا أتذوق من كل تلك الفواكه الغريبّة من الأشجار مباشرةً. وفكرتُ: لا بد أنها كانت من ثمار التوفا أو من جزر أبو حلقة أو من عنب الاستشفاء. وفجأةً ظننتُ نفسي وقد عُدتُ إلى ارندل مُطوَّقاً بمذاق عنب الأحراش الذي قطفته لين وبعطر شَعرِها.....

ما كان لي أن أعرف كم من الوقت بقيتُ هكذا كما لا أظن أنني قد قلتُ كلمة لألبرت، ولكن الرجل العجوز نهض في النهاية وقال:

- لقد حان الوقت لكي ينام الفرّان العجوز قليلاً. سأُعيد القنينة إلى مكانها في السقيفة واعرفْ بأنني سأُغلق الباب القلّاب بالمفتاح ورائي دائماً. أنتَ لم تعد

طفلاً في النهاية. قد تكون الفواكه والخضروات لذيذة وجيِّدة للصحة ولكن هذا ليس بسببٍ لأن يكون (هذا المشروب) بنفسه أحد الخضروات.

لم أعد أعرف اليوم جيداً ما إذا كانت الصورة التي قدّمها ولكنني أعرف أنه قد حذّرني قبل أن يذهب لينام فيما يتعلق بالليمونادة الأرجوانية ويلعبة ورق فرود.

سبعة الكُبة

يهتف رجل الفطائر بأنبوبٍ سحري.....

لمّا استيقظتُ في وقتٍ مُتأخر من الصباح فهمتُ في نهاية الأمر بأن الفرّان العجوز الذي التقيته في دورف كان في الحقيقة جدي لأبي وبأن المرأة التي جزّوا لها شعرها عند التحرير كانت جدتي النرويجيّة.

كان من الممكن لبعض الشكوك أن تتواصل لأن لعبة الجوكر لم تقل كل هذا بأُسلوبٍ واضح جداً، ولكن الصبايا اللواتي كُنَّ مدعواتٍ بـ (*لسين*) واللواتي ظهرن مع ألمانيّ ما *كنَّ ليكنّ* كتيبةً برأيي.

لم تكن القصة قد توضّحتْ تماماً بعد فقد أفلتتْ بعض عبارات لُعبة الجوكر من هانس الفرّان بحيث أنه لم يتم التمكن من نقْلها إلى ألبرت أو إلى أحدٍ آخر. هل كان يمكن أن يُعثر عليها يوماً فتكتمل في النهاية لعبة الصبر مع الاثنتين والخمسين عبارة؟

لم تترك الجزيرة أي أثرٍ خلفها بغرقها في البحر كما أن هانس الفرّان قد مات ولم يعد باستطاعته أن يكشف أي شيء. لم يكن من المُحتمل كذلك أن

تُبعثَ الحياة من جديد في الأوراق العتيقة للعبة الصبر لفرود على أمل أن تتذكر عباراتها التي مضى عليها مئة وخمسون سنة.

لم يعد هناك إلا إمكانية وحيدة: إذا كان الجوكر لا يزال حيّاً فقد يستطيع هو أن يتذكر لعبة الجوكر......

كان يجب التصرف من أجل أن يمرّ والديَّ بدورف حتى ولو كان ذلك يعني دورة كبيرة وبأن عطلة أبي كانت ستنتهي قريباً، ولكن كان يجب أن أنجح في هذا بدون أن أُريهما الكتاب.

لم أكن آمل إلا بشيء وحيد وهو: أن أدخل إلى المخبز الصغير وأن أقول للفرّان العجوز: مرحباً، هذا أنا لقد عُدتُ من بلاد الجنوب و معي والدي، إنه ابنكَ أنت.

تصرّفتُ بحيث يدور النقاش كله عند الفطور حول جدي، ولكنني كنتُ أريد أن أحتفظ حتى نهاية الوجبة بكشف كل الحقيقة. كنتُ أعرف أن إمكانية تصديقي مشكوكٌ بها جدياً بعد ما كنتُ قد تركته يتفلتُ من قبل عن *الكتاب*. وهكذا إذن فقد تركتهما يتناولان فطورهما بسلام.

اغتنمتُ فرصة ذهاب ماما لتُحضر فنجان قهوة ثانٍ لأنظر إلى والدي وأنا أواجهه تماماً وقلتُ له وأنا أؤكد على كل كلمة:

- من الجيد أننا قد عثرنا على ماما في أثينا، ولكن لا يزال ينقصنا ورقة من أجل أن تنجح لعبة الصبر بكاملها ولقد عرفتُ الآن أين هي.

بحث والدي عن ماما بنظرة قلقة ثم التفتَ نحوي وقال:

- ولكن ماذا جرى يا هانس- توماس؟ هل تستطيع أن تقول لي؟

- أتتذكر الفرّان الذي أعطاني قنينة ليمونادة وأربع فطائر حلوى بينما كنتَ تتكاسل في *Schöner Waldemar* مع القرويين وتُفرغ كأساً بعد أُخرى من ماء حياة الألب خاصتهم؟

فأدار عينيه.

- إن هذا الفرّان هو والدكَ الحقيقيّ. قلتُ.

- أية حماقة!

شمصَ كحصانٍ أُسيء امتطاؤه، ولكنه لم يحلّ المشكلة هكذا.

فطمأنته:

- لا داعٍ للتحدث بكل هذا الآن وهنا ولكنني أضمن لكَ بأن هذا الشيء أكيد مئة بالمئة.

جاءت ماما والتحقت بنا وتنهدتْ عندما فهمتْ عن ماذا كانت تدور المسألة، ولكن والدي كان يعرفني ويعرف أنني لا ألقي أبداً الكلام على عواهنه وأنه لا بد وأن يكون هناك شيء صحيح فيما قلته. أوَلم يكن هو نفسه جوكر وقد عرف حتى ذلك الحين أن يكون واعياً لما هو جوهري بشكلٍ فعليّ؟

- وما الذي جعلكَ تقول بأنه والدي؟ سألني.

لم يكن بإمكاني أن أبوح له بأنه كان مكتوباً جهاراً نهاراً في الكتاب. وبدلاً من ذلك فقد تقدمتُ بحجة كانت قد مرَّت بذهني عشية البارحة فبدأت بالقول:

- أولاً إن اسمه لودفيغ.

- أوه، إنه اسمٌ شائعٌ جداً في سويسرا وفي ألمانيا. اعترض والدي.

- هذا محتمل ولكن هذا الفرّان قد أسرَّ لي بأنه قد كان في غريمستاد أثناء الحرب.

- آه. لقد قال هذا؟

- لم يقل هذا بالنرويجيَّة بالتأكيد، ولكن عندما قلتُ له بأنني كنتُ قادماً من ارندل قال لي بأنه كان هو في « ***Grimme Stadt*** » وهذا يعني برأيي غريمستاد.

- ***Grimme Stadt***؟ ولكن هذا يعني في الألمانيّة: المدينة المُرعبة الرهيبة...... ***بقدر ما يُشير إلى ارندل في هذه الحالة.*** ولكنك تعرف بأن الكثير من الجنود الألمان قد توقفوا في جنوب النرويج يا هانس- توماس.

- أعرف. قلتُ. ولكن واحداً منهم فقط كان هو جدي وقد أصبح فرّان دورف. هذه أشياء تحصل.

وليريح ضميره فقد اتصل بجدتي في الهاتف. أكان ذلك بسبب جدي أم ليقول لها فقط بأننا قد وجدنا ماما في أثينا؟ وبما أنها لم تكن في المنزل فقد اتصل بالخالة انغريد فأعلمته أن الجدة قد غادرت لتقوم بجولة صغيرة في الألب.

بسماعي هذا أطلقتُ صفرة إعجاب وقلتُ:

- « يهتف رجل الفطائر في أُنبوبٍ سحريٍّ بحيث أن صوته يُحملُ على بُعد مئات الكيلومترات.»

كان والدي مندهشاً وقد أخذ ملامح شخصٍ يبحث عن حلٍ لكل ألغاز العالَم مرَّةً واحدة.

- لقد تلفَّظتَ قبلاً بهذه العبارة أم أنا مُخطئ؟

- *Yes sir* (نعم يا سيدي) . أجبتُ. إذ ليس من المُستبعد أن يكون الفرَّان قد فهم بأن حفيده الشخصيّ هو من كان أمامه. من جهةٍ أُخرى فقد رآكَ أنتَ أيضاً والدم لا يصير ماءً كما يُقال. أو ربما كان يرغب في أن يجري اتصالاً صغيراً إلى النرويج بعد كل تلك السنوات- أولم يزره في محله صبيٌّ من ارندل؟ وربما كان هذا الاتصال كافياً لإحياء حُبٍ قديم في دورف كما كان عليه الحال في أثينا ....

وهكذا فقد انطلقنا إلى دورف مباشرةً. لا والدي ولا ماما كانا مُقتنعين بأن يكون الفرَّان العجوز هو جدي فعلاً، ولكنهما كانا يعرفان بأنهما لن يعرفا السلام أبداً ما لم يستوضحا حقيقة هذه القصة.

بوصولنا إلى كوم أمضينا الليلة في ميني هوتيل باراديلو كما في الذهاب. وجدنا بأن الاحتفال المتنقل وقارئة البخت وكل الألعاب قد اختفت.

هنا أيضاً حصلتُ على غرفة لي وحدي الأمر الذي واساني قليلاً. كنتُ مُتعباً جداً بعد كل ذلك الطريق، ولكني كنتُ أُريد إنهاء قراءة *الكتاب* قبل أن أنام.

ثمانية الكُبة

أعجوبة مذهلة جداً حتى أننا لا ندري جيداً ما إن كان يجب أن نضحك منها أم نبكي

نهضتُ وخرجتُ لأتمشى قليلاً أمام المنزل. لقد كنتُ أترنح إذ كانت كل أنواع الطعوم تخوض معركة ضارية في جسدي من أجل أن تستحوذ على انتباهي. كان كتفي الأيسر نهباً لطعم الفريز بينما كان يتنافس عنب الذيب

والليمون الحامض على ركبتي اليمنى. كانت المذاقات تتلاحق بتلك السرعة حتى أنه بالكاد كان لدي الوقت لأُسمي كلاً منها. في كل مكانٍ من العالَم ثمة من لديه في فمه هذا الطعم نفسه. فكرتُ. تملكني الانطباع أنني كنتُ مدعواً إلى كل الوجبات في العالَم معاً وأنني تذوقتها جميعاً في الوقت نفسه.

تجولت قليلاً في الغابة أعلى الكوخ. وعندما هدأت عاصفة أحاسيسي انتابني شعورٌ لم أفقده أبداً من يومها.

فهمتُ ولأول مرَّة وأنا أنظر إلى القرية الضائعة في عمق الوادي إلى أية درجة كان العالَم معجزةً لا يُسبر غورها. كيف يمكن لنا نحن البشر أن نفسر حقنا في أن نكون حيث نحن؟ لأول مرَّة اكتشفُ هذا الشيء مع أنه كان دائماً أمام ناظريّ منذ أن كنتُ صغيراً. كنتُ كما لو أنني قد عشتُ حتى ذلك الحين في حالة غفلة و أنني انتزعتُ في النهاية من سُباتٍ طويل.

أنا موجود! فكرتُ. إنني شخصٌ حيٌّ تماماً على هذا الكوكب. بدا كما لو أنني فهمتُ ولأول مرَّة في حياتي ماذا يعني الشخص. عرفتُ أيضاً أنني لو واصلتُ الشرب من هذا الإكسير الغريب فإن كل تلك الإحساسات ستختفي تماماً في النهاية شيئاً فشيئاً. ولفرط تذوق كل المذاقات في العالَم فإنني سأتحد معه وسأفقد إلى الأبد الشعور بالوجود، وسأصبح مثل حبة طماطم أو خوخ.

جلستُ على أرومة شجرة ولمحتُ أيلاً خرج من الغابة. ليس ثمة ما يُذهِل في ذلك فهناك الكثير من الطرائد في الغابة المحيطة بدورف. ولكن سيطر علي انطباع أنني لم *أفهم* أبداً من قبل ما هو المخلوق الحيّ. مع أنني كنتُ أرى كل يوم تقريباً عدداً كبيراً من الأيائل إلا أنني لم ألاحظ أبداً إلى أية درجة كان

كل واحد منها موجوداً عجيباً وغامضاً. لكثرة ما رأيتُ من الأيائل فإنني لم أعد أطرح على نفسي أي سؤال حولها منذ وقتٍ طويل.

فكرتُ أن هذا هو ما يحدث مع كل ما يحيط بنا ومع العالَم برمته. فبقدر ما نكون أطفالاً تكون لدينا مَلَكَة اكتشاف العالَم بدهشة قبل أن نعتاد عليه في النهاية. الكِبرُ يشبه في العمق ثمل الحواس إلى درجة خلط كل شيء وعدم الإحساس بعدها بأي شيء.

في النهاية فهمتُ ما حدث لأقزام الجزيرة المسحورة: ثمةَ ما منعهم من الشعور بسرِ وجودهم الخاص ربما لأنهم لم يكونوا أطفالاً أبداً. عندما أخذوا يشربون يومياً من ذلك المشروب الفعَّال ليعوِّضوا ما **فاتهم**، انتهوا بكل بساطة إلى أن أصبحوا كُلاً واحداً مع العالَم المحيط بهم. فهمتُ أيضاً ذلك النصر الكبير الذي حققه فرود والجوكر لمّا نجحا في مقاومة إغراء الليموناداة الأرجوانيّة!

نظر الأيل إليَّ لثانية أو لثانيتين فقط قبل أن يهرب، ثم أذهلني عمق الصمت للحظة قصيرة. أشجاني بعدها عندليبٌ بغنائه الشجيّ. كم يبعث على الحيرة أن يصدر عن جسمٍ هزيلٍ جداً صوتٌ بتلك القوة وبذلك الجمال!

ففكرتُ: إن هذا العالَم هو أعجوبة مذهلة جداً حتى أننا لا ندري جيداً ما إن كان يجب أن نضحك منها أم نبكي، ودون شك الاثنان معاً.

أتذكر الآن أن مُمرِّضةً شابّةً من القرية دخلتْ إلى المخبز قبل عدة أيام ومعها طفلةٌ صغيرةٌ عمرها أُسبوعان أو ثلاثة أسابيع. لم أكن مهتماً أبداً بالأطفال اهتماماً خاصاً، ولكنني عندما ألقيت نظرةً على الطفلةِ الصغيرة لمحت في عينها دهشةً عظيمةً. لم أفكر في ذلك بعدئذ، بيد أنني قد فعلت عندما كنتُ جالساً على أرومة الشجرة أصغي لغناء العندليب وأنا أنظر إلى الهضاب

وهي تستحم بضوء الشمس. قلتُ لنفسي: لو استطاعتْ هذه الطفلة أن تتكلم لعبَّرتْ بالتأكيد عن دهشتها للقدوم إلى العالَم وعن أنها تجد هذا العالَم غريباً جداً. كان لديَّ ما يكفي من الشجاعة لتهنئة الأم الشابة غير أن إنعام النظر في ذلك كان قد بيّن لي أن الطفلة هي الأولى بالتهنئة. ربما يكون علينا أن نُحيِّي كل مواطن جديد في العالَم بالقول: « أهلاً وسهلاً بكَ في العالَم أيها الصديق. إنك محظوظٌ فعلاً لتمكنك من القدوم إلى هُنا!»

من المحزن أن يجد الناس في النهاية أنه من الطبيعي جداً أن يكونوا أحياء. سوف نَفقدُ في يومٍ من الأيام تلك المَلَكَة التي تجعلنا نندهش والتي لن نجدها ثانيةً إلا عندما نكون على وشك الرحيل عن العالَم.

اجتاح جسدي من الأعلى طعمٌ مكثّفٌ من الفريز الذي لم يكن سيئاً أبداً ولكنه كان قوياً جداً حتى كاد أن يصيبني بالغثيان. أعتقد أنني قد حصلتُ فعلاً على جرعتي من الليمونادة الأرجوانيّة وأنني لستُ مستعداً لتكرار هذا عمّا قريب فقد كانت أعناب الغابات وغناء العندليب وزيارة الأيل كافية جداً لسعادتي.

كنتُ سأنهض عندما سمعتُ فجأةً غُصناً يُطقطق. رفعتُ عيني فلمحتُ خلف إحدى الأشجار عفريتاً صغيراً يُمدُّ عنقه لينظر باتجاهي.

قفز قلبي من مكانه: إنه الجوكر.

اقتربَ مني وعندما صار على بُعدٍ لا يتجاوز الخمسين متراً تلمَّظ:

- همممم!.....

مسح فمه وتابع قائلاً:

- لقد شربتَ إذن من المشروب اللذيذ، *ها*؟ ميام ميام.

كانت قصة الجزيرة المسحورة لم تزلْ كلها في رأسي كما أنني لم أكن خائفاً فعلاً حتى وإن كان عليَّ الاعتراف بأنني لم أكن أتوقع ظهوره. من حيث الجوهر كنا نحن *الاثنان متشابهين* قليلاً. كنتُ حينها أُشبه جوكراً في *لعبة* ورق.

نهضتُ وذهبتُ صوبه. لم يعد يرتدي بزّة المهرج البنفسجيّة بكل جلاجلها بل بذلةً بنيَّةً ذات خطوطٍ سوداء.

مددتُ له يدي وأنا أقول:

- أنا أعرف من أنت.

أخذ يدي؛ كانت يده نديّة مثل طلِّ الصباح، سمعتُ رنةً واهنةً لبعض الجلاجل تحت بذلته. فهمتُ عندها أنه قد وضع فوق بزة الجوكر بذلةً عاديّة.

- سعيدٌ بأن أُصافح يد الجندي من بلاد الشمال. قال مُتصنعاً.

كانت أسنانه تلمع مثل أصداف اللؤلؤ ثم أضاف:

- تهانينا في عيد ميلادكَ يا أخي فمن الآن فصاعداً سيكون دور *الشب* لكي يحيا.

- ولكن..... ولكن ليس هذا عيد ميلادي. قلتُ متأتئاً.

- صه. قال الجوكر. لا يكفي أن نولد مرَّة واحدة. في هذه الليلة يولد صديق الفرَّان لمرَّة ثانية. الجوكر يعرف ذلك ولذلك فهو يسمح لنفسه أن يُهنِّئه.

كان يتكلم بصوتٍ صغيرٍ عالٍ ومثلوم. تركتُ يده الباردة وقُلت:

- لقد.... لقد سمعتُ القصة كلها .... حول قصة فرود وعنك أنتَ نفسكَ وعن الآخرين جميعاً.....

- من الطبيعي. قال مقاطِعاً إياي. فاليوم هو يوم الجوكر يا ولدي وغداً ستبدأ لعبة صبرٍ جديدة... وسيتكرر ذلك بعد اثنتين وخمسين سنة حين يكون

الولد من بلاد الشمال قد صار رجلاً ناضجاً. سوف يأتي إلى دورف للمرّة الأولى وسيكون مُحتاجاً على امتداد رحلته إلى عدسة مُكبِّرة صغيرة، ولكن ليس أيّة عدسة مُكبِّرة. أعلنَ الجوكر. بل من أحسن أنواع زجاج الديناري. فهو سيستطيع أن يُدخل كل أنواع الأشياء في جيبه عندما ينكسر حوض أسماكٍ قديم. الجوكر رجلُ يقوم بالأشياء على أحسن وجه، ولكن المهمة الأصعب ستكون مُلقاة على كاهل ذلك الشب.

لم أفهم جيداً ما قصده القزم بذلك ولكنه جاء في مواجهتي تماماً ووشوشني في أُذني:

- يجب أن **لا تنسَ** تدوين قصة أوراق لعب فرود مكتوبة في كتابٍ صغير ثم يجب أن تدسه في فطيرة حلوى إذ ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى. هذا ما يقوله الجوكر وهذا هو كل شيء.

- ولكن..... لا يمكن لفطيرة حلوى أن تتسع لقصة أوراق لعب فرود. قلتُ مُعترضاً.

ضحكَ من أعماق قلبه وقال:

- هذا يعتمد على حجم فطيرة الحلوى يا ولدي أو على حجم الكتاب......

- قصة الجزيرة المسحورة ..... وكل ما تبقى ..... ولكنها قصة طويلة جداً حيث ستكوِّن حتماً كتاباً ضخماً وفطيرة حلوى عملاقة بنفس الوقت. قلتُ مُستغرباً.

نظر إليَّ وقال بهدوء :

- يجب ألا نؤكد أبداً بدون أن نعرف. أية عادة سيئة! قال الجوكر. ليس من الضروري أن تكون الفطيرة ضخمة جداً إن كانت حروف الكتاب صغيرةً جداً.

- لا أفهم جيداً كيف يمكن لإنسان أن يصوغ حروفاً بذلك الصِّغر. قلتُ مُصِرّاً. حتى لو نجح أحدٌ بذلك فمن سيستطيع أن يفك شيفرة الحروف من بعد؟

- هذا يعني أولاً أن تكتب الكتاب. قال الجوكر. بقدر ما تبدأ العمل مباشرةً بقدر ما سيكون هناك وقتٌ دائماً لتصغير الحروف وسيتمكن ذاك الذي يحوز العدسة من القراءة.

ألقيتُ نظرة على الوادي. كان ضوء الشمس قد بدأ يبسط سجادته الذهبية على القرية وعندما أدرتُ رأسي من جديد لم يعد الجوكر موجوداً هناك، مع أني نظرتُ في كل الجهات إلا أنه كان قد اختفى بمثل السرعة التي اختفى فيها الأيل قبل قليل.

لمّا عدتُ إلى المنزل شعرتُ أنني منهك حتى أنني كدتُ أن أتعثر، ففي اللحظة التي وضعتُ فيها قدمي على حجر وخزني طعمٌ مُكثَّف من الكرز في رجلي.

فكّرتُ بأصدقائي في القرية في الأسفل، لو أنهم عرفوا فقط! إنهم يتحلّقون كل مساء في *Schöner Waldemar* ولأنه كان ينقصهم مواضيع يتحدثون بها فإنهم يتقوّلون بالسوء على الفرّان العجوز الذي كان يعيش منعزلاً في أحد الأكواخ بعيداً عن القرية. وجدوه غريباً على الدوام وصنّفوه شاذاً دون أن يطرحوا على أنفسهم الكثير من الأسئلة. ولكن هل كانوا يعرفون أنهم يُشكّلون هم أيضاً جزءاً من اللغز العظيم؟ ***لقد كان دائماً أمام أنظارهم ولكنهم لم يكونوا يرونه حتى.***

ربما كان ألبرت يحتفظ بسرٍ ما، ولكن السر الأعظم كان العالَم على ما هو عليه قبل كل شيء.

كنتُ أعرف أنه لم يعد باستطاعتي الانضمام إليهم أبداً وأنني سأكون موضوع حديثهم في يوم من الأيام. بعد بضعة سنوات سأظل هنا الجوكر الوحيد في القريّة.

عندما سقطتُ أخيراً على سريري نمتُ إلى وقتٍ مُتأخر من بعد الظهر.

تسعة الكُبة

لن يكونوا ناضجين بما يكفي حتى يستمعوا إلى لعبة أوراق فرود .....

شعرتُ أنه لم يبقَ لي إلا بضع صفحات لأقرأها، ولكن دهشتي الكُبرى نجمت عن أن الصفحات الأخيرة كانت مكتوبة بحروفٍ بحجمٍ عاديّ. كان بإمكاني أن أضع العدسة على طاولة السهرة وأن أواصل القراءة كما في كتابٍ عاديّ.

يقترب وقت قدومكَ إلى دورف لتبحث عن سر أوراق لعبة صبر فرود والجزيرة المسحورة *mein sohn* (يا ولدي). كتبتُ كل ***الذي*** أتذكّره من حكايات ألبرت. بعد شهرين فقط من تلك *nacht* (الليلة) يموت الفرّان وأحلّ محله.

دوّنتُ مباشرةً قصة الليموناد الأرجوانيّة وقد قرَّرتُ كتابتها بالنرويجيّة. أولاً لكي تستطيع أن *verstehen* (تفهم)، وأيضاً حتى لا يستطيع سُكان القرية أن يقرؤوها فيما لو وقعتْ في أيديهم يوماً ما. أما اليوم فقد نسيتُ بشكلٍ عمليٍّ نرويجيتي *alles* (كلها).

وجدتُ بأنه لم يكن بإمكاني الاتصال بكم في النرويج إذ كنتُ لا أدري على أي نحوٍ سيكون رد فعل*ين*؟ لم أجرؤ على خرق قانون الصمت وأخالف النبوءة القديمة لأنني كنتُ أعرف أنكَ ستأتي إلى دورف في يومٍ من الأيام.

كتبتُ الكتاب على آلةٍ كاتبةٍ عاديّة. لقد كان ***ganz unmöglich*** (من المستحيل كليّاً) كتابة حروفٍ أكثر صغراً، ولكن تناهى إلى سمعي منذ بضعة أسابيع أنهم قد استحضروا في المصرف آلةً عجيبةً تنسخ بالتصغير حتى يصبح طبق الورق أصغر أكثر فأكثر. وهكذا فقد قمتُ بتصوير كل ورقة ثماني مرّات إلى أن استطعتُ جمعها كلها في كتابٍ صغيرٍ جداً. أما بالنسبة لكَ ***mein sohn*** (يا ولدي) فلابد أن الجوكر قد أعطاك عدسة مُكبِّرة، أليس كذلك؟

عندما أردتُ نسخ القصة لم أتذكر إلا العبارات التي تذكّرها هانس الفرّان، ولكنني تلقيتُ البارحة رسالةً منظمةً وفقاً لترتيب لعبة الجوكر. ومن ***natürlich*** (الطبيعي) أن يكون الجوكر هو من كتبها كلها.

بعد أن ستمر بدورف سوف ***telefonieren*** (أتصلُ) ب*لين* وربما نتمكن جميعاً من الالتقاء يوماً ما .

Ach (آه) نحن فرّاني دورف جميعنا جواكر ننقل قصة ***fantastisch*** (خياليّة). لن تستطيع هذه القصة أن تُحلّق بأجنحتها الخاصة مثل القصص الأُخرى، ولكن علينا نحن مثل كل الجواكر- الموجودين في ألعاب صبرٍ « قصيرة» أو «طويلة»- أن نُذكّر الناس أن العالَم هو أجمل وأغرب مغامرة موجودة. إن هذا ليس بالعمل الهيّن إذ طالما أنهم لا يفهمون بأن العالَم الذي يعيشون فيه هو لغز فإنهم لن يكونوا ناضجين بما يكفي حتى يستمعوا إلى لعبة أوراق فرود على الجزيرة المسحورة.

في يومٍ ما - وسيكون ذلك في بلاد المشرق - سيستمع العالَم كله إلى كتابي أنا، ولكن حتى ذلك الحين على أحدٍ ما أن يتذوق من الليمونادة الأرجوانيَّة كل اثنتين وخمسين سنة.

هناك شيء عليكَ ألا تنساه أبداً: لا يمكن للجوكر أن يموت أبداً حتى ولو كان على كل أوراق لعبة الصبر أن تصبح عمياء فإن الجوكر سوف لن يشك أبداً بإمكان إزالة الغشاوة عن عيون بعض الأشخاص.

حسنٌ، إلى اللقاء *sohn* (يا بني) - ربما تكون قد وجدتَ أُمكَ في بلاد الجنوب. سوف تعود أنتَ أيضاً إلى دورف عندما تصبح بالغاً.

إن صفحات *الكتاب* الأخيرة هي لعبة الجوكر الشهيرة التي اشترك فيها كل أقزام الجزيرة المسحورة منذ وقتٍ بعيدٍ، بعيدٍ جداً من الآن ....

لعبة الجوكر:

تغرق سفينة الفضة في البحر الهائج. يرسو البحّار على جزيرةٍ لا تني تتسع. يُخفي جيب السترة علبة ورق لعب عليها أن تجف بالشمس. ثلاثٌ وخمسون شخصية تلازم ابن معلم صناعة الزجاج على مدى سنواتٍ طويلة.

*قبل أن تبهت الألوان يولد ثلاثة **وخمسون** قزماً **ويتخذون** هيئاتٍ في مخيلة البحّار الذي يعيش في عزلة. شخصياتٌ غريبة تتراقص في وعيّ السّيد. عندما ينام السّيد يحيا الأقزام حياتهم الخاصة. في صباح أحد الأيام يُفلِتُ الشيخ والشب من سجن الوعي.*

تتدفق الشخصيات من المخيلة الخلّاقة في فضاءٍ مخلوقٍ هو أيضاً. تخرج الشخصيات من كُم الحاوي ويقرصون أنفسهم ليتأكدوا ما إن كانوا أحياءً حقاً. **الأشخاص الخارجين** من المخيلة **جميلوا** المنظر **ولكنهم كلهم**، باستثناء واحدٍ، قد **فقدوا عقولهم**. جوكر واحد فقط في لعبة الورق سيفضح السرَّ يوماً.

يُعطّلُ الشراب **المتلألئ** مدارك الجوكر. يبصقُ الجوكر الشراب المتلألئ من جديد. بدون مصل الكذب يرى المهرج بشكلٍ أوضح. بعد اثنتين وخمسين سنة يصل حفيد الغريق إلى القرية.

الحقيقة موجودة في أوراق اللعب. الحقيقة هي أن ابن معلم صناعة الزجاج لم يشأ أن يؤمن بقوة مُخيلته. تثور الشخصيات متمردة بشكل رهيب ضد السيد. قريباً سيموت السَّيد والأقزام هم من سيقتلونه.

تهتدي أميرة الشمس إلى طريق المحيط. تتقوض الجزيرة المسحورة من الداخل. يعود الأقزام من جديد مجرد أوراق لعب. ينجو ابن الفرَّان من القصة قبل أن **تنغلق** على نفسها.

عند الوصول إلى الموطن الأصلي يختفي المهرج خلف بعض المستودعات القذرة. يفرُّ ابن الفرَّان في الجبل ويستقر في قريةٍ صغيرةٍ ضائعة. يخفي الفرَّان كنوز الجزيرة المسحورة. مكتوبٌ في أوراق اللعب ما يجب أن **يحدث**.

تأوي القرية الولد المُشرَّد الذي فقد أمه بسبب المرض وهو طفل. يجعله الفرَّان يتذوق الشراب اللامع ويريه السمكات الجميلة. **يهرم الولد ويصبح شعره أبيض، ولكن قبل أن يموت يصل الجُندي التعس من بلاد الشمال. يسهر** الجندي على سر الجزيرة المسحورة.

لم يعرف الجندي أن الصبية **التي ألم بها العار** كانت **مجزوزة الشَّعر** وأنها أنجبتْ طفلاً صغيراً جميلاً. على الولد أن يركب البحر **فهو** ابنٌ للأعداء. يتزوج البحّار من امرأة جميلة تنجب ولداً قبل أن تُهاجر إلى بلاد الجنوب **آملةً** أن **تجد** نفسها. يبحث الأب والابن عن المرأة الجميلة التي لا **تجد** نفسها.

يشير القزم ذو اليدين الباردتين إلى طريق القرية الضائعة ويعطي **الولد القادم من بلاد** الشمال عدسة مُكبِّرة من أجل سفرته. تتطابق العدسة المُكبِرة مع**(كسرة)** زجاج حوض السمكة الحمراء. ليست السمكة الحمراء من سيُفشي سِرّ الجزيرة ولكنه كتاب فطيرة الحلوى. رجل الفطائر هو نفسه الجندي من **بلاد الشمال**.

حقيقة الجدّ مكتوبة في أوراق اللعب. القَدَر ثعبانٌ جائعٌ جداً حتى أنه يلتهم نفسه. تحتوي العلبة الداخليَّة على العلبة الخارجيَّة كما تحتوي العلبة الخارجيَّة على العلبة الداخليَّة. القدر رأس قرنبيط ينمو في كل الجهات بشكلٍ متساوٍ.

يُدرك الولد أن رجل الفطائر هو جدّه الحقيقي كما يدرك رجل الفطائر أن **الولد القادم** من بلاد الشمال هو حفيده الحقيقيّ. **يهتف رجل الفطائر في أنبوبٍ سحريٍّ بحيث أن صوته يُحملُ على بُعد مئات الكيلومترات**. يبصقُ البحّار المشروب القوي. المرأة الجميلة التي لم تعثر على نفسها تجد بدلاً من ذلك أن ابنها محبوبٌ جداً.

لعبة الصبر هي لعنة عائلة. سيكون هناك دائماً جوكر يَكشف السِّر. تتبع الأجيال بالأجيال، ولكن سيكون هناك دائماً مهرجٌ يجوب العالَم لا سلطان للزمان عليه. على ذاك الذي يكشف القَدَر أن ينجو منه.

عشرة الكُبة

سيكون هناك دائماً مهرجٌ يجوب العالَم لا سلطان للزمن عليه.....

لم يعرف النوم طريقه إليَّ بعد أن قرأتُ الصفحات الأخيرة من *الكتاب*. فجأةً لم يعد فندق ميني هوتيل باراديلو بمثل ذلك الصِّغر فقد اختلط هو ومدينة كوم بكاملها **في شيءٍ ما أكبر بشكلٍ لا نهائي.**

وهكذا فإنني لم *أخطئ* في الجوكر: لقد كان قزم محطة الوقود هو بالفعل ذاك الذي قد تبخَّر خلف مستودعات ميناء مرسيليا والذي يهيم من وقتها على وجهه في العالَم ثم يظهر من وقتٍ لآخر لفرَّان دورف، وإلا فإنه يطوف العالَم بلا قيود يومٌ هنا وآخر هناك. كان يخفي طبيعته الحقيقيَّة والتي تميزها بزة بنفسجيَّة ذات جلاجل بمجرد بذلة عادية رقيقة إذ ليس من السهل ألا ينتبه إليه أحد في مدينةٍ صغيرةٍ في الضواحي بزيٍّ مُضحكٍ كهذا ولكان الناس قد استغربوا كذلك أن يظل دون تجاعيد في عشرة أو عشرين أو مئة سنة......

عرفتُ منذ نهاية الجزيرة المسحورة أن الجوكر يستطيع أن يركض ويجذف بدون أن يشعر بأدنى تعب على خلافنا نحن الفانون كما يمكن تخيله أيضاً وهو يثب إلى القطار. أولم يكن في إثرنا منذ الحدود السويسريَّة؟

كنت مقتنعاً أن الجوكر قد اندسَّ في «لعبة الصبر الكبيرة» بعد أن فرَّ من «لعبة الصبر الصغيرة» على الجزيرة المسحورة، ولكن يبقى دوره هنا مثلما كان هناك: وهو تذكير كل الأقزام صغاراً وكباراً من وقتٍ لآخر وبانتظام بأن عليهم أن يستغربوا من كونهم أحياء.

نراه سنة في ألاسكا أو في القوقاز وفي السنة التالية في أفريقيا أو في التبت، يظهر فجأةً في مرسيليا في أحد الأسابيع وفي الأُسبوع الذي يليه في ساحة القديس *مُرْقُص* في البندقيَّة.

من الآن فصاعداً تكون كل قطع المتاهة التي تؤلف لعبة الجوكر في مكانها وهذا يُفرِحُ القلب بقدر ما يُفرِحُ العقل لأن نرى المجموعة في النهاية وقد اكتملتْ.

أعدتُ التفكير في تلك العبارة لأحد *الشيوخ* التي أفلتتْ من هانس الفرّان: « تتبع الأجيال بالأجيال، ولكن سيكون هناك دائماً مهرجٌ يجوب العالَم لا سلطان للزمن عليه.» لشدَّ ما أحببتُ أن يقرأها والدي فلربما فهم أن الوصف الذي قدَّمه لي عن آثار الزمن كان بالفعل سوداوياً أكثر مما ينبغي وأن هناك بعض الأشياء تقاوم *بلى* الزمن. من بين هذه الأشياء كان الجوكر الذي يمكن له أن يجتاز كل العصور دون أن يفقد سنّاً لبنياً واحداً.

آه! لقد وجدتُ في هذا إشارةً إلى أن الناس لن يتوقفوا أبداً عن التساؤل حول وجودهم. بالتأكيد إن موهبة الاندهاش هذه لم تُمنح للجميع، ولكن لا يمكن لها أبداً في المقابل أن تختفي كلياً فما دام ثمة تاريخ وبشر يمكن للجوكر أن يختلط بهم، فإن مَلَكَةَ الاندهاش هذه سوف تُبعثُ من جديد. في أثينا القديمة كان هناك سقراط وفي ارندل هناك أنا ووالدي وهذه ليست بالقائمة الشاملة. بالتأكيد ثمة جواكر أخرى كثيرة في أزمنة وأمكنة مُختلفة، ولكن لا بد أننا قليلو العدد رغم كل شيء.

تذكّر هانس الفرّان جيداً آخر عبارة في لعبة الجوكر التي لا بدَّ من القول إنها كانت مُزعجة جداً إذ أن شيخ البستون، وبنفاد صبره، قد ردَّد ثلاث مرّات: « سيكون على ذاك الذي يكشف القَدَر أن ينجو منه. »

هل كانت هذه العبارة موجهة قبل أيّ أحدٍ آخر إلى الجوكر الذي بقي حيّاً دهراً بعد آخر؟ أنا الآن أيضاً بفضل قصّة *الكتاب* الطويلة قد فهمتُ وكشفتُ القّدَر فهل يحدث الشيء نفسه لجميع الناس؟ على الرغم من أن مرورنا على الأرض لا يدوم إلا للحظة قصيرة فأننا نُكتَبُ في تاريخ مُشترك سينقذنا جميعاً. في الحقيقة نحن لا نحيا حياتنا الخاصّة فقط، فنحن نستطيع أن نزور أماكن مثل دلف أو أثينا ونحس ونحن نتنزه فيها بالتجلي المنبث لرجالها الذين عاشوا قبلنا على هذه الأرض.....

ألقيتُ نظرة عبر النافذة على السّاحة الخلفيَّة الصّغيرة: كان الليل مُظلماً ولكن وميضاً غريباً قد تألق داخلي فتبدى لي تاريخ البشريَّة من وقتها مختلفاً تماماً. إنها هي إذن: « لعبة الصَّبر الكبيرة»، ولكن في لعبة عائلتي كان لا يزال ينقُصُ ورقة أخيرة.

هل كنّا سنلتقي بجدّي في دورف؟ وكيف نتخيل أن تكون جدتي هناك الآن في المخبز العتيق؟

أخذتْ العتمة لون الصَّباح الأزرق ولمّا اكتسى كُل شيء بالصباح استرخيتُ على السرير.

شب الكُبة

رجلٌ صغير كان يُنَبّشُ في المقاعد الخلفية.....

كنا قد استكملنا طريقنا ولم نعد نتحدث عن جدّي عندما أعلنتْ ماما أن المزحة حول فرّان دورف قد طالتْ كثيراً.

لم يُصرِّح والدي أنه قد آمن بقصصي أكثر منها، ولكنه مع ذلك دافع عني فقدَّرت له ذلك كثيراً.

- سوف نسلك نفس الطريق الذي جئنا منه. قال. سنتوقف في دورف لشراء كيسٍ كبيرٍ من الفطائر وبذلك لن نجازف على الأقل بالموت جوعاً. أما بصدد مزحات هانس- توماس عليكِ أن تعترفي أنه لا يحق لكِ التشكي من ذلك كثيراً في هذه السنوات الأخيرة.....

وضعت ماما ذراعها حول كتفيّ أبي خجلةً وقالت:

- أنتَ تعرف جيداً أنني لم أقصد قول ذلك.

- انتبهي فأنا أقود ..... قال وهو يهمهم.

هنا التفتتْ إليَّ ماما من جديد:

- أنا آسفة يا هانس- توماس، ولكن عِدني ألا تُحبَطَ كثيراً إن لم يكن ذاك الفرّان يعرف عن جدّكَ أكثر منا.

لم تكن حفلة الفطائر لتبدأ مباشرةً فقد كان يجب الوصول إلى دورف أولاً أي ليس قبل وقتٍ متأخرٍ من المساء وحتى ذلك الحين كان يجب أن نضع شيئاً في البطن. وهكذا يترك والدي أوتوستراد بيلينزونا ليتوقف في شارعٍ صغيرٍ بين مطعمين. وبينما كنا نأكل شريحة لحم بالعجين اقترفتُ أعظم حماقة في حياتي. لقد تحدثتُ إليهما عن *الكتاب* ولأنني لم أعرف أن أُمسك لساني فقد حدث ما حدث من أجل معاقبتي دون أدنى شك.....

تهورتُ بأن قصصتُ عليهما أنني وجدتُ كتاباً صغيراً جداً مطبوعاً بحروفٍ بغاية الصغر في إحدى الفطائر التي أعطاني إياها الفرّان العجوز وقد

جاء هذا في وقته إذ أن قزم محطة الوقود كان قد أعطاني قبلها مباشرةً عدسة مُكبِّرة، و شرعتُ بعدها في تلخيص محتوى *الكتاب* بخطوط عريضة.

من حينها وأنا غالباً ما أسأل نفسي كيف استطعتُ أن أكون بمثل هذا الغباء لأنقُضَ اليمين المقدَّس الذي قطعته للفرَّان المُسِن في الوقت الذي لم نكن فيه إلا على مسافة بضع ساعاتٍ من طريق دورف. اعتقد أنني أعرف السبب، لقد كنتُ أتوقُ كثيراً أن يكون ذلك الرجل الكهل هو جدي وكنتُ آمل أن تُصدِّقني ماما في النهاية، ولكن بما أنني كنتُ أريد كثيراً لهذا الأمر أن يحدث، فلم أفعل إلا أن زدتُ الطين بلّة.

- جميلٌ أن يكون لديكَ مخيلة كبيرة يا ولدي، ولكن يجب أن يكون للمخيلة حدودها أيضاً. كان هذا تعليق ماما الوحيد.

ثم تدخَّلَ والدي:

- أوَلم تروِ قصةً من هذا النوع من قبل على شرفة الفندق في أثينا؟ أتذكّر بأنني ثمّنتُ مخيلتكَ الفياضة، ولكن عليَّ الاعتراف أن الحق مع أُمكَ هذه المرّة. قل لي: ألا ترَ أنكَ تبالغ قليلاً؟

لا أدري ماذا جرى لي ولكنني أجهشتُ باكياً. لقد كلّفني كثيراً الاحتفاظ بكل شيء لنفسي ولمّا رويتُ لهما في النهاية كل شيء فإنهما لم يُصدِّقاني.

- انتظرا .... قلتُ وأنا أجهش. انتظرا قليلاً حتى نصير في السيارة وسوف *أريكما* هذا *الكتاب* الشهير رغم أنني وعدتُ جدّي ألا أتكلم عنه لأحد.

أكملنا وجبتنا على عَجَل. كنتُ آملُ أن يظل والدي مؤمناً بقدرتي على قول الحقيقة. وضع ورقة نقديّة من فئة مئة فرنك سويسريّ على الطاولة ونهضَ بدون أن ينتظر الباقي.

عندما اقتربنا من السيّارة رأينا رجلاً صغيراً كان يُنَبِّشُ في المقاعد الخلفيَّة.

- أنتَ هناك، توقفْ. صاح والدي.

هرَعَ إلى الفيات الحمراء ولكن ذلك المجهول قفز خارج السيّارة واختفى في زاوية الشارع بسرعة البرق. اعتقدُ أنني سمعتُ رنين جلاجل خفيف عندما أخذ يعدو. انطلق والدي في إثره (وأؤكد أنه لم يكن عدّاءاً سيئاً بالمرَّة). بقيتُ أنا وماما قُرابة النصف ساعة في انتظاره، ثم لمحناه قادماً صوبنا في النهاية بملامح المهزوم.

- أُقسِمُ أنه من المحتمل أن تكون الأرض قد ابتلعته! ياه، أي إبليسٍ صغيرٍ هذا!

تفقّدنا أمتعتنا واحداً فواحداً.

- لا شيء ناقص. قالت ماما بعد لحظة.

- ولا بالنسبة لي أنا أيضاً. قال والدي ويده تُفتشُ في علبة القفازات. بطاقة السيَّارة، جوازات السفر، جزدان النقود، دفتر الشيكات...... حتى أنه لم يلمس مجموعة الجواكر خاصتي. ربما كان يبحثُ عن الكحول فقط؟

أخذ الاثنان مكانيهما في الأمام وصعدتُ أنا إلى الخلف.

وفجأةً شعرتُ أن معدتي تتشنج إذ تذكّرتُ أنني خبَّأتُ *الكتاب* تحت إحدى سُتر الصوف..... وبالتأكيد فإنه لم يعد موجوداً هناك.

- *الكتاب* ..... لقد أخذ *الكتاب*. صرختُ.

وانطلقتُ باكياً من جديد.

- إنه القزم.... هو من سرق *الكتاب* لأنني لم أنجح في الاحتفاظ بالسِّر. قلتُ وأنا أجهش.

جاءت ماما إلى مقاعد السيّارة الخلفيّة واحتضنتني طويلاً إلى جسدها.

- هانس- توماس الصغير المسكين..... أخذتْ تردد. كل هذا هو خطأي أنا..... ولكننا سنعود الآن جميعنا نحن الثلاثة بكل تعقّلٍ إلى ارندل. لو أنكَ تنام قليلاً في البداية؟

فانتفضتُ لأسأل والدي:

- ولكننا مع هذا سنذهب إلى دورف، ها؟

- بالطبع فكلمة البحّار واحدة.

كنتُ سأنام لمّا سمعته يهمس لماما:

- مع ذلك فإن هذه القصة غريبة فقد كانت كل أبواب السيّارة مقفلة بالمفتاح وستعترفين أنه كان رجلاً *صغيراً* فعلاً......

- يستطيع الجوكر أن يدخل إلى حيث يشاء ولن تخيفه أبوابٌ مقفلة. وإذا كان صغيراً جداً فهذا لأنه موجودٌ اصطناعيٌ. قلتُ.

ثم نمتُ ورأسي على ركبة ماما.

بنت الكُبة

خرجتْ فجأةً امرأةٌ مُسِنة من النُزل العتيق....

استيقظتُ بعد عدَّة ساعات وأدركتُ وأنا أعتدل أننا كنا على ارتفاعٍ كبيرٍ في جبال الألب.

- آه. لقد استيقظتَ؟ قال والدي: سوف نكون في دورف بعد نصف ساعة وسوف نُمضي الليلة في نُزل *Schöner Waldemar*.

ما أن وصلنا إلى دورف حتى توقف والدي أمام المخبز تماماً ، ولكنه لم يكن يعرف القرية جيداً على أية حال مثلما كنت أعرفها . نظر والدي إلى والدتي نظرة مليئة بالمغزى، ولكن لعبتهما الصّغيرة لم تنطلِ علي .

كان المخبز فارغاً والدليل الوحيد على الحياة كان سمكة صغيرة تتحرك بشكلٍ دائريٍّ في حوضٍ كبيرٍ مثلوم . شعرتُ أيضاً أنني سمكة في قفصٍ حديديٍّ .

- انظرا . قلتُ وأنا أسحب العدسة الصغيرة من جيب سروالي . ألا تريان بأن لها نفس حجم الطرف الزجاجي الناقص؟

كان هذا هو دليلي الوحيد على أنني لم أروِ لهما كلاماً كيفما اتفق .

- رعد بريست . هذا يعني بأنه ليس هناك أي أثرٌ للفرّان .... صاح والدي .

من المستحيل معرفة ما إن قال ذلك ليضع حداً للنقاش أو ما إن كان قد صدّقني في نهاية المطاف وعبَّرَ بهذه الكلمات عن خيبة أمله بألا يلتقِ بأبيه مباشرةً .

تركنا السيّارة حيث كانت وتوجهنا صوب نُزل *Schöner Waldemar* .

في الطريق أرادتْ ماما أن تعرف من كان زملائي في اللعب في ارندل ، ولكنني رفضتُ الإجابة فقصة *الكتاب* وفرّان دورف ليست موضوعاً يُستهزء به .

خرجتْ فجأةً امرأة مُسِنة من النُزل العتيق والتي ما أن رأتنا حتى أسرعتْ صوبنا .

لقد كانت جدتي!

- أمي! صاح والدي مُنذهلاً .

مع أنه كان وحيداً إلا أن الملائكة في السماء قد تكون سمعتْ صرخته لشدَّةِ ما كانت موجعة .

ارتمتْ الجدّة على أعناقنا وغمرتنا بالقُبل. كانت ماما مُضطربة جداً حتى أنها لم تعد تعرف أين هي. وفي النهاية أخذتني الجدّة بين ذراعيها وشدّتني بقوّة كبيرة إليها وهي تبكي:

- آه يا ولدي، يا ولدي الصغير.....
- ثم أجهشتْ من جديد وبقوة أكبر.
- ولكن..... لماذا...... كيف...... فأفاً والدي.
- لقد مات هذه الليلة. قالت الجدّة بوقار وهي ترفع رأسها المغسول بالدموع.
- من الذي مات؟ سألتْ ماما.
- لودفيغ. غمغمتْ الجدّة. اتّصل بي منذ أُسبوع وتمكّنا من قضاء بعض الأيام هنا معاً. روى لي أن فتىً يافعاً قد زاره في مخبزه، وقبل أن يغادر هذا الفتى كان لديه حدسٌ قويٌ أنه لا بد وأن يكون حفيده الحقيقي وأن الرجل الذي معه في الفيات الحمراء هو ابنه الحقيقيّ. آه، كل تلك الحكاية غير معقولة أبداً ومحزنةٌ جداً في آن...... لقد تمكّنتُ على الأقل من رؤيته مُجدَداً لمرَّة أخيرة. لقد أصابه انسداد و ...... مات هنا بين ذراعيّ.....

كان ذلكَ كثيراً فانهرتُ باكياً. كانت تعاستي تبدو غير منتهية. حاول الكبار الثلاثة أفضل ما لديهم من أجل مواساتي، ولكنني كنتُ غير قابلٍ للمواساة.

لم يكن جدّي فحسب هو من فقدت ولكن عالَماً كاملاً حمله معه إلى الأبد. هو لم يعد موجوداً ليؤكدَ قصة الليمونادة الأرجوانيّة والجزيرة المسحورة. ربما لم يعد هذا دوره .... لقد كان جدّي رجلاً كبيراً في العُمر وكان *الكتاب* الذي بين يديّ برسم الاستعارة فقط.

بعد بضعة ساعات كُنا من جديد في صالة المطعم الصغيرة في نُزل *Schöner Waldemar* والتي لم يكن فيها سوى أربع طاولات. كانت سيّدة النُزل السمينة والتي تعرَّفتْ عليّ تأتي من وقتٍ لآخر نحوي وتقول:

- هانس- توماس؟ *Nicht wahr ?* (أليس كذلك؟)

- ولكن ما الذي مكَّنه من أن يعرف أن هانس- توماس كان حفيده الحقيقيّ في حين أنه لم يكن يعرف بأن له ابناً؟ إن هذا سيظل سِرّاً بالنسبة لي. قالت الجدَّة.

وافقتْ ماما:

- نعم إن هذا غير مفهوم.

ولكن والدي كان يرى الأمور بشكلٍ آخر:

- أرى أن ما لا يُصَدّق هو بالأحرى كيف فهم هانس- توماس مباشرةً أنه كان جدَّه الحقيقي.

توجهتْ كل النظرات إليّ. فألقيتُ من جديد:

- « يُدرك الولد أن رجل الفطائر هو جدّه الحقيقي كما يدرك رجل الفطائر أن الولد القادم من بلاد الشمال هو حفيده الحقيقيّ. »

حملّق الثلاثة بعيونهم على وسعها ورأيتُ أنهم قد قلقوا من جديد على سلامتي الذهنيَّة. فتابعتُ:

- ***« يهتف رجل الفطائر في أنبوبٍ سحريّ بحيث أن صوته يُحملُ على بُعد مئات الكيلومترات. »***

هكذا نجحتُ بتبديد الشكوك نهائياً حول ما يُزعم عن « مُخيلتي الفيَّاضة» وقد أدركتُ أيضاً بأن *الكتاب* سيظل إلى الأبد سريّ الأعظم.

شيخ الكُبة

في كل يوم تزداد الذكريات ابتعاداً عن ذلك الذي جعلها تولد ....

عندما تابعنا الطريق نحو الشمال كنا أربعة في السيارة مما يعني أكثر باثنين مما كان عليه الحال في الذهاب. أعتقد أن هذه ***التوزيعة*** الأخيرة كانت ناجحة بالأحرى، ولكن كان ينقصُ شيخ الكُبة.......

توقفنا من جديد عند محطّة البنزين الصَّغيرة ذات المضخة الوحيدة، وأعتقد أن والدي كان يودُ من أعماق قلبه أن يرى القزم العجيب من جديد، ولكنه بقيّ مُختفياً. لم يجعلني ذلك مندهشاً كثيراً ولكن والدي أطلق مجموعة مُذهلة من الشتائم.

عبثاً نقّبنا في الجوار. كان كل ما قاله الناس لنا أن محطة الوقود كانت مُغلقة منذ الأزمة البتروليّة في سنوات السبعينات.

وصلتْ رحلتنا الكبيرة في أرض الفلاسفة إلى نهايتها. لقد عثرنا على ماما في أثينا والتقينا بجدّي في القرية الألبيّة الصغيرة إلا أن روحي بقيتْ مُحتفظة بجرحٍ سريٍّ ولهذا الجرح جذوره في تاريخ أوروبا.

عندما صرنا في المنزل أسرَّتْ لي الجدّة أن جدّي كان لديه الوقت ليوصي لي قبل موته بكل ما كان يملكه حتى أنه قال مازحاً إنني ربما قد أرغب في يومٍ من الأيام في أن أستأنف العمل في مخبز دورف الصغير.

مضتْ سنوات منذ أن رجعنا أنا ووالدي من هذه الرحلة الطويلة التي لازلتُ أتذكّرها كما لو أنها البارحة. أرى نفسي جالساً من جديد على المقاعد الخلفية للفيات العتيقة الحمراء. كما أنني مستعدٌ دائماً لأن أحلف أن ذاك الذي أعطاني العدسة المُكبِّرة على الحدود السويسريَّة كان قزماً فعلاً. لا زلتُ أحتفظ

بالعدسة بين مقتنياتي. فضلاً عن أن والدي قد رأى جيداً القزم وهو يسلمها لي بيدين نظيفتين في محطة الوقود.

كان للجد سمكة حمراء في وعاءٍ في مخبزه في دورف فقد رأيناها جميعاً. تتذكر أنا ووالدي أيضاً الأحجار الصغيرة البيضاء في الغابة في أعلى الكوخ. ولن يستطيع أي شيء كذلك أن يمحو ذكريات الفطائر الأربع التي أعطاني إياها الفرّان العجوز. لم أنسَ طعم الليمونادة بالأجاص وأتذكر ما قاله الجدّ عن ليمونادة أفضل منها بكثير.....

ولكن هل كان هناك أبداً كتاب صغير في فطيرة حلوى؟ هل قرأتُ حقاً وأنا جالس على المقعد الخلفي كل قصة الليمونادة الأرجوانية والجزيرة المسحورة؟ أو أنني كنتُ أحلم فقط؟

في كل يوم تزداد الذكريات ابتعاداً عن ذلك الذي جعلها تولد وكلّما مرّ الوقت كلما شككتُ بذاكرتي الشخصيّة.

فبما أن الجوكر قد سرق *الكتاب* كان عليّ أن أكتب كل شيء من الذكريات التي بقيتْ لي. وحده وحي دلف يستطيع أن يأخذ بالاعتبار الواقع والخيال معاً.

لا بد أن تكون نبوءة الجزيرة المسحورة هي التي جعلتني أُدركُ أن الفرّان العجوز الذي قابلته في دورف لم يكن إلا جدّي وليس أحداً آخر، ولكن كان يجب أولاً العثور على ماما في أثينا ليصبح كل شيء جليّاً. ولكن كيف عرف هو بذلك؟

ليس لديّ إلا جواب واحد: لقد كان جديّ هو من ألّفَ *الكتاب* فبدون شك لا بد وأنه كان يعرف النبوءة القديمة منذ الحرب الأخيرة.

أعظم ما في هذه الأسرار هو أننا التقينا معاً في مخبزٍ صغيرٍ ضائع في مكانٍ ما في جبال الألب السويسريّة. فكيف كان لنا أن ننزل هناك؟ لقد تعمَّد قزمٌ ذو يدين باردتين أن يدفعنا على القيام بدورة طويلة.

أو بالأحرى ألم يكن أعظم ما في هذه الأسرار هو أننا التقينا الجدّة ونحن في طريق العودة في تلك القرية نفسها؟ أو هل كان ببساطة أننا قد نجحنا في انتزاع ماما من عالمها عالَم الموضة؟

إن الحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى إذ لا يستطيع الزمن أن يُضعفه بتلك السهولة التي يجعل فيها الذكريات القديمة تبهتْ.

نعيش جميعنا نحن الأربعة سعداء في هيسوي، وأقول جميعنا نحن الأربعة إذ منذ زمن صار عندي أُختٌ صغيرة. لقد كانت هي من تمشي على الأوراق الميتة راكلةً بقدميها حبَّات الكستناء المتساقطة على الأرض. إنها تُدعى تون انجليكا وستبلغ عمًّا قريب خمس سنوات. هي طاحونة كلامٍ حقيقيّة وربما تكون الفيلسوف الأعظم فينا جميعاً؟

يقضي الزمن بأن نصير بالغين في يومٍ من الأيام.

كما أن الزمن سيجعل المعابد القديمة تنهار ويُغرِق الجُزر الأكثر قدماً في البحر...

هل كان هناك أبداً كتابٌ في إحدى فطائر الحلوى؟ إن هذا السؤال لا ينى يتقافزُ في رأسي ولدي رغبة في أن أقول مثل سقراط: «إن كل ما أعرفه: هو أنني لا أعرف شيئاً.»

ولكنني على يقين أنه سيكون هناك دائماً جوكر ما يتجول عبر العالَم لكي لا ينام الناس على قناعاتهم. في أي مكانٍ أو أي زمانٍ يمكن أن يظهر فجأةً مُهرِّجٌ صغير يرتدي قبعةً بأذني حمارٍ طويلتين وبجلاجل تطنطن سوف ينظر في عينيك مباشرةً وسيسألك: «مَنْ نحن ومِنْ أين أتينا؟»

بعد مهنة أُستاذٍ للفلسفة ولتاريخ الأفكار في جامعة بيرغن في النرويج يُكرِّس جوستين جاردر نفسه بعدها للكتابة.

عَرفتْ روايته " *عالَم صوفيا رواية* عن تاريخ الفلسفة"، والتي تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، نجاحاً مفاجئاً وغير معقول.

سِرُّ الصبر، المُبدعة المُحيِّرة والمثيرة، هي أيضاً تدريبٌ حاذقٌ على تلك المسائل الفلسفية الكُبرى التي طرحها الجوكر: « مَنْ نحن ومِنْ أين أتينا؟»

وهكذا فهي تعرض ما هي الدهشة: تلك المقدرة على رؤية روعة العالَم. إنها تطرح على نفسها سؤال المعنى وتعطي دروساً في التسامح.

« وُلِدتُ في ٢٩ شباط مما يعني في سنةٍ كبيسة. وبمعنى آخر في يوم الجوكر وفقاً لرزنامة الجزيرة المسحورة. كيف إذن لم أُفكر بهذا من قبل؟ فصحتُ:

- في يوم الجوكر.
- تماماً.

هل تعتقد أن هذا لكوني ابن لجوكر أم لأنني أحد الجواكر أنا نفسي؟ »

شخصيات سرُ الصبر:

هانس- توماس: البطل.

والده: ابنٌ لألماني.

والدته: عارضة أزياء هاربة.

جدّه: جندي على جبهة الشرق في عام ١٩٤٤.

القزم الذي يُقدِّم عدسة مُكبِّرة لهانس- توماس.

والفرّان العجوز.

ولكن أيضاً .....

فرود الذي يغرق في عام ١٧٩٠.

٥٢ ورقة لعب من أجل إنجاح لعبة الصبر.

بدون أن ننسى الجوكر الذي يرى بعيداً جداً وجيداً جداً.

حتى ولو أن الحظ لم يسعفك بمصادفة أحد سكان المريخ في حديقتك يمكن أن يحصل لك في يوم ما أن تصادف نفسك.

في ذلك اليوم الذي سيحصل لك فيه هذا ربما ستطلق صرخة الهندي أيضاً.

سيكون ذلك أقل ما يمكن أن تفعله، لأنه لايحصل دائماً أن تكون على وعيٍ بأننا سكان من لحم ودم لأحد الكواكب والذي هو جزيرة صغيرة ضائعة في الكون.



سِرُّ الصبر

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ص.ب: 34312
هاتف: 03 83 661 11 963+
تلفاكس: 15 09 666 11 963+

Summary of Annotations